بهاء طاهر

واحة الغروب

رواية





دار الشروق



دار الشروق

واحة الغروب

واحة الغروب

بهاء طاهر

الطبعـة الأولى ٢٠٠٧
الطبعـة الحادية عشرة ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٧٨٧٣/ ٢٠٠٧
ISBN 978-977-09-2025-1

إلى ستيفكا أناستاسوفا


Twitter: @ketab_n

القســم الأول

تنـــويه

الاسم الحقـيقى لمأمور واحة سـيوة فى أواخر سنوات القـرن التاسع عشر هـو «محمود عزمـى»، وإليه ينسب عمل ترك أثرًا باقيًـا فى الواحة سيتعرف عليه القارئ فى موضعه من الرواية.

وباســتثناء ذلـك لا توجد أية مـعلومـات تاريخيـة منشـورة عن هذا المأمور أو عن سيرة حياته.

١ - محمـــود

يقول لى زوجتك امرأة شجاعة، كأنى لا أعرف كيف هى زوجتى! أليست ذاهبة معى برضاها إلى الخطر؟ ومع ذلك فلعلى لا أعرف بالفعل كيف هى كاثرين. ليس هذا وقته. المهم أنه لم يذكرها مصادفة. وراء كل كلمة من كلماته هدف، ولكن كاثرين ليست هى المشكلة الآن. ثم إنى لن أحل أى مشكلة وأنا أتجول فى ممرات نظارة الداخلية المعتمة وبعد مقابلة المستر هارفى المقبضة.

لم يكن فيما قاله أى جديد غير التلميحات المبطنة التى فهمت بعضها وتحيرنى بقيتها.

عرفت من قبل أن ألقاه أن المسألة منتهية. أبلغنى الأميرالاى سعيد بك أن مفتش النظارة رفع توصية إلى معالى الباشا ناظر الداخلية وأن معاليه أصدر أمر النقل على أن ينفذ فوراً. لم يبق أمامى سوى أيام قليلة للالتحاق بالقافلة المسافرة من كرداسة، وهو ينصحنى كصديق بالعدول عن فكرة اصطحاب زوجتى معى. الرحلة إلى الواحة ليست سهلة والمهمة نفسها صعبة جداً كما أعرف ولكنى حر فى النهاية. واجبه مع ذلك أن يحذرنى من خطر الرحلة وأنها تستغرق فى الظروف الحسنة أسبوعين على الأقل ومع دليل ماهر.

أثق أن سعيد لا يحاول إخافتى . وأظن أنه فعل كل ما يستطيع لإعفائى من المهمة . صداقتنا قديمة العهد وإن تكن قد فترت مع الزمن وأوشكت أن تقتصر على علاقة رئيس بمرءوسه . لكن حكايات عصر انقضى وأسراره تجمع بيننا . لم نعد نتكلم عنها منذ سنين ولكن كلينا يعرف أن الآخر مازال يذكر . غير أن الزملاء الآخرين يحذروننى من السفر بإشفاق مشبوه . بعضهم أسعده الإفلات من المهمة وأنها أصبحت من نصيبى ، وآخرون كانوا يجتهدون لإخفاء التشفى . حدثونى عن قوافل عديدة تاهت فى الصحراء وابتلعتها الرمال . قوافل صغيرة ضاعت ، وجيش فارسى جرار هزمته الصحراء فى الزمن القديم وطمرته الرمال إلى الأبد وهو فى طريقه ليغزو الواحة . قالوا لى محظوظة هى القافلة التى تنهى الرحلة قبل أن ينفد زادها من الماء ، وقبل أن تغير الرياح معالم الطريق فتبنى تلالاً لم يكن لها من قبل وجود وتدفن الآبار التى يعولون عليها فى سُقيا الجمال . ومحظوظة أيضاً إن لم تهاجم مضاربها فى الليل ذئاب أو ضباع وإن لم يلدغ الثعبان من ركْبها واحداً أو اثنين .

قيل ذلك وغيره فلم أهتم به . خوفى من وصول القافلة سالمة إلى مقصدها لا يقل عن خوفى من أن تضل الطريق إليه . أعلم جيداً أنى ذاهب إلى المكان المنذور لقتلى وربما لمقتل كاثرين معى .

ذلك إذن من بين ما كان يلمح إليه المستر هارفى فى مقابلة اليوم؟

دخلت مكتبه مصمماً أن أستفزه . . ما الذى بقى لأخسره؟

هى المرة الأولى التى أدخل فيها مكتب المستشار الذى يمسك كل خيوط النظارة بين يديه . وجدت دبلوماسيته فى الحديث مفتعلة ووجدته نفسه مفتعلاً وهو يجلس بقامته القصيرة خلف مكتب ضخم

وفوق رأسه طربوش غير مقنع يبرز منه شعره الأشقر. لا يخاطبني ولكنه يوجه الحديث معظم الوقت إلى شيء غير مرئي على يمينه في ركن المكتب. يكرر على سمعي ما سبق أن سمعته من الأميرالاي سعيد لكنه يغمزني فيما يعتبره نقطة ضعفي. لابد وأني (مبسوط) كابتن محمود عبد الظاهر أفندي - عفواً بل يقصد الآن «ميجور» محمود - لتعييني مأموراً للواحة! يتظاهر بأنه يتصفح ملف خدمتي الموضوع أمامه ويكمل أني كنت سأنتظر طويلاً هذه الترقية.

قاطعته بابتسامة حاولت أن تكون مهذبة: إذا ما روعي يا سعادة المستشار أن قليلين في النظارة يرحبون بهذه الترقية!

لا يعلق بشيء ولا ينظر نحوي، بل يقلب في الملف الآخر المكتوب عليه بخط كبير بالإنجليزية «واحة سيوة». يبدو مستمتعًا بما يقرأ، يتمتم لنفسه بين لحظة وأخرى Interesting. Very interesting. يرفع وجهه نحوي أخيراً وعلى شفتيه ما يشبه الابتسامة - إذن فأنا أعرف حضرة صاغ محمود، إنني سأتعامل فقط مع رؤساء العائلات الذين يسمونهم في الواحة الأجواد.

بالطبع. أعطاني سعيد بك كل التعليمات اللازمة.

يواصل أيضًا كأني لم أقل شيئًا لا شأن لي بالفلاحين الذين هم.. يعود للملف بحثًا عنهم، فأذكره بهم الزجّالة.

يكرر وهو يخطف نظرة أخرى إلى الملف: نعم، نعم، الزجالة. ماداموا راضين عن هذا النظام فما شأننا نحن؟ هذا يشبه إسبرطة إلى حد ما. هل تعرف إسبرطة في اليونان القديمة.. مستر عبد الظاهر؟

أعرفها مستر هارفي..

يبدو على وجهه نوع من خيبة الأمل لأنى أعرفها لكن يصمم أن يكمل محاضرته - نعم، إسبرطة، مع الفارق بالطبع! إسبرطة كانت مدينة لإنتاج العسكر يدربون الأطفال من الصغر ليصبحوا جنوداً ويعزلونهم عن سكان المدينة، لهذا أصبحت إسبرطة كلها جيشًا يسكن مدينة. أقوى جيش فى اليونان كلها قبل أن يظهر الإسكندر، وهؤلاء الـ. . الزجالة فى الواحة أيضًا مجندون للعمل فى فلاحة الأرض حتى سن الأربعين. ممنوع عليهم الزواج أو دخول المدينة وعبور أسوارها بعد غروب الشمس. شخصيًا هو يرى هذا تنظيمًا للمجتمع وللعمل جديراً بالنظر. يكاد يقول إنه جدير بالإعجاب. انظر مستر ظاهر إلى مستعمراتنا فى أفريقيا وآسيا التى تسودها الفوضى لأن العمل هناك. .

أقاطعه مرة أخرى ضاحكًا - سعادة مستر هارفى. نحن ليست لنا مستعمرات فى أفريقيا وآسيا.

لكنى أمسك عن القول - نحن مستعمرة!

يقطّب لحظة ويتوقف عن الاسترسال فى مسألة المستعمرات، يرجع إلى النظر فى الملف ثم يرفع رأسه ويبتسم فجأة ابتسامة ماكرة وهو يخاطبنى: لا تخصنا بالطبع الجوانب الأخرى من نظامهم الذى يعزل الرجال عن النساء فى سن الشباب. مسألة لا تعنينا. لا دخل لنا بعاداتهم البدائية. .

أفهم ما يريد قوله لكنى لا أردّ على كلامه فيعود إلى مخاطبة الشىء غير المرئى على يمينه - ثم إنى سمعت بالطبع من حضرة سعيد بك أنهم ينقسمون هناك إلى عشيرتين متخاصمتين.

يكاد صبرى ينفد - نعم، نعم، وأعرف أن المعارك بينهما لا تنقطع.

يحول وجهه نحوى من جديد ويضغط على كلماته - حتى هذا لا

شأن لنا به. هذه المعارك جزء من حياتهم وهم أحرار فيما يفعلونه بأنفسهم، إلا بالطبع إن أمكن عن طريق تحالفات معينة مع عشيرة أو أخرى تحويل ذلك إلى وسيلة لضمان السيطرة. هذه مسألة مجربة ومضمونة بشرط ألا يستمر التحالف مع طرف واحد لمدة طويلة. يجب أن يكون التحالف مع هؤلاء مرة ومع خصومهم فى المرة التالية، هل تفهم؟

. . أحاول يا سعادة المستر. أعرف هذه السياسة ولكن لم يسبق لى أن جربتها.

يقول وفى لهجته لأول مرة شىء من التشفّى - ستتعلمها حضرة مأمور. لا تنس أن مهمتك الأولى ستكون جمع الضرائب. مهمة صعبة كما تعرف. . صعبة جداً. حب البقاء سيعلمك هذه السياسة وغيرها يا ميجور. .

توقف فجأة وابتسم مرة أخرى وهو يقول - هناك مع ذلك شىء فكاهى فى المسألة كلها. هؤلاء الناس بنوا حصنًا فى الجبل وبنوا البلد وراء الحصن ليحموا أنفسهم من غارات البدو ومع ذلك فإن الدماء التى كان يسفكها البدو فى العراء يتكفلون هم بإراقتها وراء الأسوار. هو يجد هذا مدهشًا جداً. يجده شرقيًا جداً!

يصعد الدم إلى رأسى فأندفع - مثل هذه المعارك بين الأهالى موجودة فى الشرق وفى الغرب يا مستر هارفى. هذا يختلف عن غزو الأغراب. .

يتطلع إلى وجهى مليًا ثم يتكلم بلهجة مستمتعة - الصاغ محمود أفندى مازال متأثرًا بأفكار من الماضى. ولكنى بالطبع لم أعد أتعاطف مع العُصاة؟

أعجز عن السيطرة على نفسى فأندفع من جديد ـ لم أكن متعاطفًا مع أى عُصاة. كنت أؤدى واجبى لا غير ودفعت الثمن ظلما مرتين.

يهز رأسه. على العموم فأنا أعرف بطبيعة الحال أن عملى سيكون موضع النظر والمراجعة.

فكرت أن هذه هى فرصتى الأخيرة فحاولت أن أتكلم بلهجة محايدة تمامًا: أتمنى أن يكون عملى مرضيًا عند النظر والمراجعة. ولكن ماذا لو لم أنجح؟

يردّ بإيجاز: تعلم أنك أنت الذى ستدفع الثمن.

ثم يستدرك وكأنه قرأ ما بخاطرى: لن يكون الجزاء على أى حال هو إعادتك إلى القاهرة.

يغير الموضوع فجأة ـ يجب أن أعلم أن سعيد بك كان يعترض على أن أصحب معى السيدة زوجتى. حرصًا عليها بالطبع. لكنه أبلغ سعادته أن النظارة لا تتدخل فى حياة الضباط الشخصية. ثم إن السيدة على ما يعتقد..

توقف لحظة وبدا مترددًا فى اختيار كلماته قبل أن يكمل: السيدة امرأة شجاعة. ثم كررها وهو يهز رأسه، نعم امرأة شجاعة.

لم أقل شيئًا، فوقف فجأة ووقفت أنا أيضًا وبدأ يحادثنى بلهجة رسمية: ستسافر مع قافلة كرداسة لأنها جاهزة للرحيل، ولكنى سأرسل مع قافلة مطروح التى ستتحرك بعد أسبوعين عددًا من الخيول (وعلى شفتيه شبح ابتسامة) وأرجو أن تصل الخيول حية.

* * *

قلت لنفسى وأنا أخرج من مكتبه إذن مرة أخرى هزمنى الإنجليز! لكم أكرهك يا مستر هارفى. لكم أكرهكم جميعًا وأكره هذه النظارة ولكن لا مفر.

يجب أن أعود إلى البيت الآن لأتجهز للسفر. وما الذى بقى لأجهزه؟ كاثرين جمعت ما يلزم من المتاع منذ أخبرتها بأن كل المساعى لإعفائى من المهمة فشلت وجمعت أيضًا من المكتبات كل الكتب التى تتحدث عن الواحة أو التى يرد فيها ذكر لها. لم يفتها شىء. بالأمس حدثتنى عن خطتها العجيبة لمقاومة لدغات العقارب والثعابين، فأحلتها إلى شيخ من شيوخ الرفاعية وأقنعتها أن له خبرة فى معالجة السموم، إذن فهى تخاف من ذلك أيضًا، فما سر حماسها للسفر؟ حاولت كل شىء لإقناعها بالبقاء دون فائدة. تعلم الخطر الذى ينتظرنى هناك لكنها لا تهتم. لو كنت ساذجًا لقلت إن السبب هو الحب وإنها لا تريد أن يهلك زوجها وحده. أظن أنها تحبنى، ولكن ليس إلى هذا الحد!

مشيت من النظارة عبر شارع الدواوين حتى وصلت إلى قسم عابدين. فى قسم الشرطة هذا صنعت كل حياتى فضاعت كل حياتى. على مسافة قصيرة من البيت الذى لم أعرف غيره أيضًا منذ مولدى. ولكن فى صباى لم يخطر على بالى أبدًا أنى سأنتهى إلى هذا العمل.

فات وقت الندم على أى حال. ثم على أى شىء أندم؟ وما الذى كنت أتمناه فى صباى؟. لم تكن فى ذهنى أى فكرة عن المستقبل. كنت أتمنى فقط أن تستمر الأحوال على ما هى عليه. طفولة سعيدة وصبا أسعد. لم يبخل أبى علىّ أنا وأخى الأصغر بأى شىء. لم يحرمنا من

أى متعة ولا قسا علينا حتى نهتم بالتعليم وننتهى منه فى الوقت المناسب. أحب أخى سليمان أن يقضى معظم وقته مع أبى فى متجره بالموسكى، يتعلم أصول المهنة. أما أنا فلم يعكر صفو حياتى شىء. البلد كله كان يغلى فى آخر أيام الخديو إسماعيل وأنا أتلكأ فى المدرسة التجهيزية حتى يقترب سنى من العشرين. أعرف النساء وأعاشر الجوارى وأقضى الليالى مع الصحاب ننتقل بين المقاهى والحانات. وبيتنا الكبير فى عابدين لا تنقطع فيه الولائم ولا يكاد يخلو ليلة من الضيوف وحفلات السمر وأشهر المطربين والمطربات. فى كل ليلة فيما عدا ليلة الجمعة يرفع الخدم فى نهار الخميس كل الأثاث من الصالة الكبيرة فى الطابق الأول. ويفرشونها بالسجاجيد ويعبقونها بالبخور وتوضع فى الأركان أباريق النحاس المملوءة بالماء المعطر بالماورد. تلك ليلة أهل الطريقة والإنشاد والذكر التى يهجر فيها أبى وأنا معه كل متعة أخرى. أرتل مع المرتلين وأتطوح مع الذاكرين إلى أن يغمرنى العرق وتنحلّ أطرافى فيأتى النوم بعدها هادئًا وعميقًا طول الليل. وفى الصباح أذهب مع أبى وسليمان مبكرين لصلاة الجمعة فى مسجد سيدنا الحسين. لكن فى الليل ترجع الدورة إلى ما كانت عليه، إلى أن قادتنا أقدامنا مع صحبى ذات مساء بالمصادفة إلى مقهى (متاتيا) بميدان العتبة. وهناك رأيت ذلك الرجل المعمم الذى يتحدث العربية بلغة الأتراك أو أهل الشام. لم أكن قد سمعت مثل كلامه من قبل، أو لعلى كنت أسمعه ولا أهتم به. لكن كلام الشيخ الأفغانى وحماس المريدين حوله فى حلقته أرغمانى على أن أسمع وأن أهتم، فأدمنت إلى جانب الخمر والنساء مجالس الشيخ وقراءة الصحف التى يحررها تلاميذه ـ «مصر» و«التجارة» و«الطائف». كلما أغلقت حكومة الخديو صحيفة منها انتقل إلى أخرى جديدة تكرر ما كانت تقوله أختها المصادرة، وكلها

تهاجم الحكام الذين أغرقوا مصر بالديون وقادوها إلى الإفلاس، وكلها تشتعل بالغضب لسيطرة الأوروبيين حتى صار منهم نظار فى حكومة البلد وموظفون فى كل نظارة. وأسمع أيامها أيضًا أن الشيخ وبعض مريديه يعتنقون الماسونية وأن أتباع هذه العقيدة ينتمون لديانات مختلفة ويجمع بينهم الإيمان بالحرية والتآخى بين الناس من كل جنس. فأسعى إلى أن أنضم أنا أيضًا إلى محفل ماسونى وأنتظر اليوم الذى تصبح فيه الأرض كلها محفلاً واحداً لعالم من الإخوة الأحرار. وأسمع بتكوين حزب وطنى سرى. أقرأ منشوراته المعنونة «مصر للمصريين» فيجرفنى الحماس وأسعى للانضمام للحزب، غير أننى لا أعرف طريقة للوصول إليه. تعطلنى أيضًا أول خيانة غيرت حياتى عندما أفلست تجارة أبى. لكنى مازلت حتى الآن لا أفهم كيف كنت أفعل كل هذه الأشياء دون تردد. كان كل شىء يسلم إلى الآخر بسلاسة دون أى قلق أو تأنيب ضمير. كما لو كان طبيعيًا جداً أن أسكر وأن أتردد على المحفل الماسونى وأضاجع النساء وأذهب إلى حلقة الأفغانى وأدور مع أبى والمريدين فى حلقة الذكر. بل فكرت أيامها أن أهتم بالدراسة لأحصل على الشهادة وأدخل مدرسة الحقوق مثلما كان معظم الطلبة يحلمون. اعتقدت أنى مهيأ لذلك لأن أكثر ما كان يستهوينى فى المدرسة حصص الخطابة والأدب لولا أن أبى أفلس. أغراه تاجر يونانى بمكاسب كبيرة من استيراد زيت الزيتون من بلده ثم أغرقه بالديون وفوائد الديون إلى أن انتزع فى النهاية دكان الموسكى لنفسه. لم يبق أى مورد للبيت الكبير المليء بالجوارى وبالخدم. فاجتهد أبى إلى أن ألحقنى بالشرطة. وكان ممكنًا وقتها بما حصلته من التعليم وبشهور من التدريب أن أصبح ضابطًا. واطمأن الوالد قبل أن تقعده حسرته وأمراضه إلى أن مرتبى يكفى لكى أعول أمى وأخى ولكى يبقى

البيت مفتوحًا وإن يكن بدون الولائم والطرب أو حلقات الذكر. اختفى الزوار واختفى معهم حتى المريدون والمنشدون. لم أعد إلى تلك الحلقات سوى مرة واحدة بعد سنين طويلة عندما دعانى الأميرالاى سعيد إلى ليلة إنشاد فى الطريقة التى يتبعها، لكنى لم أكرر التجربة. لم تحرك فى نفسى شيئًا مثلما كانت تجرفنى نشوتها فى الزمن القديم.

وأسأل نفسى الآن.. إن يكن كل ذلك الماضى البعيد قد اختفى. أسأل إن يكن ذلك الشاب الموزع الروح قد التأمت أجزاؤه أم زادتها الأيام تبعثرًا. حين تزوجت كاثرين بعد طول تردد كنت أحلم أن تستقر النفس أخيرًا. ها هى أسرة وبيت وزوجة ذكية وشجاعة، فلماذا لم يأت ذلك الاستقرار أبدًا؟ لماذا هو مراوغ وبعيد؟ اليقين الوحيد هو تلك البذلة الرسمية التى ألبسها، والمهنة التى جاءتنى دون أن أرغبها، ولم أعد أعرف لنفسى مهنة غيرها رغم كل ما جرته علىّ عبر السنين.

ثم هذه الواحة.



٢ـ كاثـــرين

أعرف أن محمود سيوحشه هذا البيت الواسع. سيشتاق فى صمت الصحراء إلى الحى الذى لا تهدأ فيه حركة الناس وغناء الباعة. لن يوحشه بالطبع قصر الخديو المجاور لنا الذى لم تطأه قدمانا وإن أحببت ما يظهر من خضرة حدائقه الجميلة من وراء الأسوار. لا يتصور محمود الحياة بعيدًا عن بيته الذى لم يعرف غيره أما أنا فتنقلت بين ثلاثة منازل ولا يجرفنى الحنين إلى بيت بعينه. يعود المكان إلى ذهنى فقط حين أذكر سكانه فأسترجع حتى روائحه المألوفة وأركانه المنسية، تدهشنى ألعاب الذاكرة.

تأخر محمود قليلاً. ذهب إلى النظارة لينهى الإجراءات وقال أنه سيرجع بعدها ليساعدنى فى حزم الحقائب. لم يبق الكثير، كل شىء جاهز للسفر إلا محمود نفسه. اعتدت من زمن بعيد على تقلباته التى لا تنتهى. فى البدء كان يذهلنى حين يقول الشىء وعكسه أو يفعل أشياء متناقضة دون أى تمهيد. أما هذه المرة فالمسألة تختلف. حزنه يزداد عمقًا.

لم يكن سعيدًا حين قابلته ولا كنت أنا أيامها. لكننا استطعنا أن

نتنزع السعادة وعشناها زمنًا. أراه دائما كما رأيته أول مرة على جسر (الدهبية) التى جمعتنا عليها المصادفة فى الرحلة إلى أسوان. انتبهت إليه وهو يقف بقامته الفارعة مرتديًا زيه العسكرى وطربوشه الذى يبرز منه شعره الأشيب يتوجّ وجهه الشاب. وسامته لفتت نظرى على الفور لكنها لم تكن هى ما جذبتنى إليه. من البدء وجدته يختلف عن الضباط الذين قابلتهم فى القاهرة. يختلف فى الواقع عن كل الرجال الذين عرفتهم هنا. اعتادوا أن يتحدثوا معى كأجنبية وإنجليزية فى بلد يحتله الإنجليز بكل خضوع بينما تسيل من عيونهم نظرة شهوة مستجدية كدموع الشحاذين. عندما اقتربت منه بدا لى الطربوش مثل تاج فرعونى فوق رأسه. وجهه الصارم بعينيه السوداوين الواسعتين وملامحه المتناسقة وجه ملك حقيقى انتقل من جدران معبد إلى سطح تلك الدهبية. سألته كم بقى من الوقت قبل أن نصل إلى أسوان؟ لم يتقدم نحوى محنيًا رأسه كالآخرين، بل لمحت نظرة عداء خاطفة فى عينيه، لكنه تلفت حوله ولم تكن فى الأفق غير زراعات على جانبى النهر وقرى متشابهة عند أطراف الحقول. نظر فى عينى وقال بإنجليزيته التى كانت ركيكة أيامها، لا أعرف، أنا هنا مع حرس الدهبية. كان ضمن قوة حراسة لأحد الأمراء أو الوزراء المسافرين على ما أذكر. وعندما بقيت واقفة أمامه قال بفتور يمكن أن أسأل أحد الملاّحين لو أردت، فقلت سآتى معك.

ومن وقتها بقيت معه، فى (الدهبية) على النيل وفى شوارع أسوان ومعابد الأقصر، ثم فى القاهرة عندما عقدنا زواجنا. ظل وقتًا طويلاً مترددًا فى الاقتراب منى وأنا التى أتكلم معظم الوقت. أظن أن الانقلاب أتى عندما عرف أنى أيرلندية وأنى أكره الإنجليز لأنهم يحتلون بلدى كما يحتلون بلده وأشعر بجنسيتهم التى أحملها عارًا

سأتخلص منه يوم تستقل أيرلندا. بعدها انهار سدّ بينى وبينه. انتهت مقاومته التى كنت أراها مثلما أرى الحب فى عينيه. أم أنى كنت واهمة؟ هل كان حبًا أم رغبة؟ لم أهتم لذلك كثيرًا فى حينها وحذرنى هو منذ بدء علاقتنا بأنه عاهد نفسه ألا يتزوج أبدًا، ثم لم يصمد طويلاً ذلك العهد.

بدا الشيخ الذى عقد قراننا فى القاهرة تعيسًا وهو يرى رجلاً مسلمًا وضابطًا محترمًا يتزوج امرأة أجنبية من غير دينه. كان يوجه أسئلة فيطل ارتياع متزايد من عينيه ويكرر الجواب كأنه لا يصدق نفسه. ليست بكرًا؟ أرملة؟ أكبر منه بسنتين؟ لا ينوب عنها فى عقد الزواج أب أو أخ؟ تزوج نفسها بنفسها؟

قال لى محمود إنه ليس فى ذلك ما يخالف شريعتهم، لكنى رأيت المأذون ينكبّ على أوراقه يدون فيها ما سمع دون أن يرفع رأسه حتى لا نرى نظرة السخط فى عينيه. غير أن الشيخ كان مهذبًا جدًا إذا ما قورن بوقاحة الإنجليز عندما ذهبت إلى القنصلية لأسجل زواجى - تتزوجين مصريًا؟ وتتزوجينه أيضًا حسب شريعتهم؟ وقبل الرجوع إلينا هنا؟ هل تعرفين حقوقك التى ضاعت؟ رددت بطريقتهم. قلت شريعتهم تعجبنى أكثر من شريعة الإنجليز فى أيرلندا. زواجى تمَّ على الأقل باختيارى ولم يفرضه أحد علىّ بالقوة. حين سمعوا ذلك أسرعوا فى الإجراءات كثيرًا لكى لا يطول بقائى فى القنصلية.

توقع محمود ألا يوافق مستشار النظارة الإنجليزى على سفرى معه إلى الواحة. أظن أنهم وافقوا بكل سرور متمنين لى الهلاك هناك فى أسرع وقت!

فى أيامنا الأولى. فى شهورنا الأولى، عرفت مع محمود سعادة لم

أكن أظن أنها ممكنة فى هذه الدنيا بعد تجربة مايكل التعسة. ومن البدء عرفت أن محمود لا يطيق أى كلام عن الحب، لا يقوله ولا يحب سماعه. الحب عنده هو ممارسة الحب لا أكثر ولا أقل. وهو هنا ملك أيضًا. مستعد دائمًا لأن يعطى، قادر دائمًا على إيقاظ لهفتى وخبير بتجارب كثيرة منذ صباه لم ينكرها. وتعلمت أنا بالغريزة وحدها - التى نسيتها مع مايكل - أن أجارى خبرته. ولعلىّ أن أكون قد علمته شيئًا أيضًا. أفهمته أنى لا أحب العنف والاقتحام الذى كان يتصوره دليل الرجولة، وأنى أحب اللمسات الرقيقة وأن يتجاوب الجسدان معًا ببطء وسلاسة من متعة التقارب والتلامس إلى قمة النشوة والامتلاء.

بالتدريج تجاوب معى فعشنا عيدًا متصلاً لشهور طويلة. لا يبخل هو ولا أتردد أنا. لم أصدق أنى يمكن فى أى وقت أن أقبل هذا الفهم للحب وللحياة. لكنى رافقته راضية تمامًا. سعيدة تمامًا. هل سقطت بفضله عنى أوهام كثيرة أو كنت أنا مستعدة لذلك من الأصل فلم يفعل محمود إلا أن نزع عنى قناع الزهد؟

معه أيضًا قبلت أشياء ما كنت أتصور أنى أقبلها. شعرت بعد شهورنا الأولى أنى لست وحدى فى حياته. أشمّ وهو معى فى الفراش رائحة امرأة أخرى وعرقها، أحسّ بطيف امرأة بينى وبينه، ثم أكذّب نفسى حين أجد عطاءه لا يقل بل يزيد. لكنى أعرف أن جسدى لا يكذبنى - هناك من تشاركنى فيه. اجتاحتنى غيرة لا تحتمل فقضيت نهارًا كاملاً أستجمع نفسى وأرتب أفكارى لأواجهه. وحين عاد من عمله ضاعت كل الأفكار التى رتبتها فسألته فور دخوله ونحن نقف فى صالة البيت: محمود، هل تخوننى؟ فردّ علىّ بسؤال - تقصدين هل أعرف نساء غيرك؟ أومأت برأسى فقال بهدوء - نعم. انفجرت

وجسدى كله ينتفض ـ هكذا إذن! فماذا لو عرفت أنا رجالاً غيرك؟ ردّ ببساطة أقتلك على الفور. صرخت إذن فلماذا لا أقتلك أنا الآن؟ سكت لحظة كأنه يفكر ثم أخرج مسدسه من جرابه وقدمه لى بامتداد ذراعه وهو يبتسم ـ فى الواقع هذا هو العدل. من حقك هذا أيضًا. خذى. لن أمنعك. أزحت ذراعه الممدودة واندفعت إلى غرفتى صائحة: لن أعيش مع مجنون! أغلقت الباب على نفسى وبدأت أجمع ثيابى وأشيائى للرحيل.

قاطعته أربعة أيام وفى اليوم الخامس كنا معًا فى الفراش من جديد. قال وهو يضمنى إليه ـ الكذب أسهل الأشياء لكننى لا أكذب، جسدى هو المشكلة. لا تكفيه امرأة والطلاق ليس مشكلة أبدًا. أنت أيضًا يمكن أن تتركينى فى أى لحظة لكنك لم تفعلى. كلانا يحتاج الآخر ولهذا ربطنا الزواج. تمتمت أسأله: ولكن فى كل ذلك أين الحب؟ فمال فوقى وقبلنى.

قبلت هذا النوع من الحب وهذا النوع من الزواج، فهل هى حياة فى قلب الحقيقة أم فى قلب الكذب؟ لم يخطئ. كلانا يحتاج الآخر. لماذا؟ وحتى متى؟ الآن أشعر أنه حتى هذه العلاقة التى قبلناها معًا قد تغيرت. ليست الحكاية هى النساء هذه المرة. لكن محمود ينسحب داخل نفسه كما لم يحدث أبدًا منذ عرفته. أيكون كل ذلك بسبب المهمة التى كرهها منذ سمع عنها؟ بذل كل المساعى لإعفائه منها ولم ينجح. أعرف الخطر الذى ينتظره ولكن محمود ليس جبانًا. سيؤدى واجبه هناك مثلما اعتاد طول حياته سواء أحب الواجب أو كرهه. أنا واثقة من ذلك. هو يكتم حتى الألم الذى يعاوده فى موضع الرصاصة التى هتكت عظام ذراعه. تشتد آلامه فى الشتاء والبرد، وأدرك ذلك

فقط من تعبيرات وجهه حين يضغط بيده بقوة على ذراعه، لكنه لا يشكو ولا ينطق بكلمة. قلت له مازحة إنه لن يعانى من البرد هناك أبدًا، فالحر على مدار العام. هزّ رأسه قائلاً: لو كانت المشكلة هى الحر!.

المشكلة الحقيقية لا أجهلها. قرأت كل شىء عن الواحة كتبه المؤرخون والرحالة. أعرف تاريخها القديم والحديث. لعلّى أعرف التاريخ القديم أكثر، لكنى درست أيضًا ما جرى فيها منذ بداية هذا القرن عندما غزاها جيش الوالى محمد على. ضمّ الباشا الواحة إلى مصر فأنهى استقلالها الذى استمر لمئات من السنين لم تخضع خلالها (سيوة) لأى دولة أو قوة خارجها. قرأت كيف قاوموا حكم المصريين، لا يكفون عن التمرد والثورة على الجنود ومحاربتهم ولا يكف المصريون عن قمع ثوراتهم بقسوة تلد تمردًا جديدًا وثورة جديدة. وأعرف كما يعرف محمود أن المأمور وهو حاكم الواحة يظل هدفًا ثمينًا لهم. فى البدء كانوا يقتلون العمد المحليين الذين تختارهم القاهرة من أبناء سيوة.. يكون قتلهم رسالة إلى المأمور أنهم ليسوا بعيدين عنه. لكنهم فى التمردين الأخيرين قتلوا المأمورين نفسيهما وأرسلت الحكومة جيشًا كبيرًا أعاد الهدوء ثم انسحب. فهل ما زال الهدوء باقيًا؟

أتمنى. من زمن بعيد أحلم بالرحلة فى الصحراء دون أن أتخيّل أنها ستتحقق بهذه الطريقة.. حلمت أن أرى الواحة التى خطا فوق رمالها الإسكندر الكبير وعاش فيها قصته المثيرة التى لازمته حتى الموت. عندى أحلام أخرى هناك لا أجسر حتى على التفكير فيها الآن. سيأتى كل شىء فى أوانه. المهم أننا سنكون هناك محمود وأنا وحدنا. لا خطر هناك فى أن تنازعنى فيه امرأة أخرى. الأخطار الأخرى ليست ثمنًا باهظًا لنسترد حياتنا كما كانت فى صفائها الأول.

تأخر محمود حقًا.

ربما مـا زال فى النظارة. أو لعله يودّع شـوارع مـدينتـه ويفكر الآن مثلى. يجرى جرداً لحياته ويحسب كيف وصلت به إلى هذه اللحظة. الانتقال إلى مصير مجهول مع هذه الأيرلندية التى رمتها المصادفة فى طريقه.

وأنا أيضًا. كم من مصادفة قادتنى إلى هذه اللحظة؟.. لا. ليست مصادفات. أنا المسئولة عن كل شيء ولست نادمة أبدًا. ربما يكون أبى قد وضعنى على بداية طريق، ولكن إرادتى هى التى قادتنى إلى هنا.

لو كـان حيًا الآن لرأى فى كل مـا يحـدث لى مع مـحـمـود عـقـابًا أسـتـحـقـه. مـا كـان ليـوافق أبدًا على هـذا الزواج من الأصـل وهو الكاثوليكى الغـيـور. مع أنه أول من علمنى أن أحب الشـرق وأعـشق آثاره. نعم، أثار فضولى بالذات إلى ما تركه اليونان والرومان من آثار مجهولة، ولكن بالطبع بشرط أن أبقى بعيدة عن ناس الشرق الأحياء. هم فـقط مـسـتـودع للتـاريخ. يجب أن أتـذكـر دائـمًـا أننى أيرلندية وكاثوليكية.

لا أنسى أبدًا غـضبتـه حين تحدثنا مـرة عن الأديان ونحن نتكلم عن اليونانيين القدامى، موضوعه المفضل. تطرق الحديث إلى آلهتهم فقلت له إن اليـونانيين أيامهـا، مثل المصريين القدمـاء، بل مثـل كل الناس من قبلهم وبعدهم كانوا يعبدون الخالق كما يتصورونه، وبما أن الإله واحد فى كل زمان ومكان، فلابد أنه يقبـل الصلاة من كل من يعـبده. كنت صغيرة أيامهـا ـ ربما فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشـرة ـ لكن أبى لم يحاول أن يناقشنى أو أن يعلمنى. احتقن وجهه ـ إذن فأنت تساوين بين من يعبـد الإله الحقـيقى الواحد ومن يعبـد تمثـالاً أو شـجـرة أو أى إله

زائف؟ . . تساوين بين المؤمنين بالرب المخلّص وبين الوثنيين والمتوحشين الذين يُصلون لتساعدهم آلهتهم فى الصيد والحرب؟ - رغم خوفى من غضبه لحظتها رددت عليه . لا أقصد ذلك أبدًا يا أبى . أقصد أن كل الناس يبحثون عن الخالق ويعبدونه بإيمان ونية حسنة ، وحتى لو أخطأوا الاختيار فهو يعرف بالتأكيد صدق نيتهم لأنه يعلم كل شىء . لكن أبى لم يسمعنى وصمم على أن أذهب إلى الكنيسة لأعترف للقس بخطيئتى وألتمس الغفران . وذهبت بالطبع لأنى أنا أيضًا كنت كاثوليكية مخلصة .

لكم أفتقده الآن رغم كل شىء ! لو كان حيًا لطلبت منه أن يساعدنى فى بحثى . فهو الذى علمنى اليونانية واللاتينية وقال إنى موهوبة فى اللغات ويجب أن أستفيد من هذه الموهبة . أظن أنه لم يخطئ . علمت نفسى بنفسى قراءة الهيروغليفية ومشتقاتها ، وبعد زواجى من محمود تعلمت العربية . كان أبى سيفخر بى - فى هذه الناحية على الأقل . اعتاد أن يقرأ لى أبحاثه وترجماته عن اليونانية وأن يشجعنى أنا أيضًا على الترجمة ويتحمس لكل ما أكتب . لكنى واثقة أنى ما كنت أستطيع إقناعه بزواجى من محمود . مستحيل .

أمى أيضًا لم أرها منذ جئت إلى مصر ولا أعرف ما هو شعورها الآن . تكتب لى أحيانًا باقتضاب لمجرد الواجب . لم ترض عن زواجى الأول وأظنها أكثر رفضًا لهذا الزواج الثانى . أختى «فيونا» وحدها هى التى فهمت على الفور . ومثلما سامحتنى لزواجى من مايكل باركت زواجى من محمود . غفرت لى قصة مايكل وإن لم أغفرها أنا لنفسى . لا غرابة أن أبى كان يسميها فيونا القديسة . تكتب لى رسائلها الطويلة والمحبة باستمرار . هل ستأتى ذات يوم إلى مصر كما وعدت؟ وكيف

يمكن أن تصل إلينا حتى لو جاءت ونحن مسافران الآن بعيداً عن كل عمران؟ كتبت إليها حتى تؤجل مشروع السفر.

لكن لأمض إلى النهاية. هل أريدها بالفعل أن تأتى أم أريد رغم شوقى لها أن تظل بعيدة؟ لا أريد ما يذكرنى بتلك القصة المؤلمة. بصعوبة شفيت منها. أنا واثقة بالطبع أنها لن تفعل أى شيء لتعيد الذكرى. ربما حتى لا يرد اسم «مايكل» على لسانها لو تقابلنا. ليست هى المشكلة وإنما أنا: إحساسى بأنى سرقته من أختى. لو تعرف فيونا كم هى محظوظة لأنها نجت منه!

جارنا القريب، صديق أبى وزميله الشاب، المدرس مثله، ذو الوجه الملائكى والحديث الهامس، جمع بينه وبين أبى الاهتمام بدراسة لغة اليونان وحضارتهم، لكن أبى ظل طول عمره مكتفيًا بالهواية. أما مايكل فكان ينشر مقالات فى مجلة محلية صغيرة، وأحيانًا يقبلون منه موضوعات فى مجلة شهرية متخصصة فى التاريخ. فهمت مثل الجميع وهو يتردد على البيت أنه مهتم بفيونا. اعتاد أن يقضى معها أوقاتًا فى حديقة البيت يتبادلان الحديث. ولم يكن فى ذلك أى غرابة. فيونا هى الأجمل والأصغر والأرق. مجرد النظر إلى وجهها المشرق سعادة. أعرف أن جسدى لا بأس به ولكن وجهى عادى تمامًا. غير أنه باغتنى بعرض الخطبة بعد عام من وفاة أبى التى لم أتخلص من صدمتها.

دخلت مكتبه ذات صباح مشمس فوجدته منكفئًا على كتاب يقرؤه. لم يمرض قبلها ولم يشك من أى شيء، بل كان مرحًا أكثر من العادة فى ذلك الصباح. قال لى محمود إنه عاش صدمة مماثلة. لم أفهم معنى ذلك الموت. لا أفهم أى معنى للموت، لكن مادام محتمًا فلنفعل شيئًا يبرر حياتنا. فلنترك بصمة على هذه الأرض قبل أن نغادرها.

سألت مايكل عندما جاءنى فى الحديقة: لماذا أنا؟ فردّ لأنى أحبك أنت. وفيونا؟ فكرر أنت من أحب. وقالت أمى فى غضب شديد- أوحى لنا جميعًا أنه يريد فَيونا والآن يخطبك أنت؟ كأنها فضيحة. هل جرى بينك وبينه شيء لا نعرفه؟ أقسمت دون كذب إنى لم أفكر فيه أبدًا، وإنه فاجأنى بطلبه، ثم إنى أنا أيضًا لا أريده. لكن فيونا نفسها التى حسمت: هى لم تنظر إلى مايكل أبدًا إلا كصديق لأبى وللأسرة، وحتى لو كان قد تقدم لها لاعتذرت.

إن يكن هذا صحيحًا فهى ليست فقط الأجمل بل الأذكى.

لابد أنها فهمته أفضل منى. قالت إنها لن تقبل مايكل فى أى حال وتركت لى أنا حرية أن أقبله أو أرفضه. فكرت قليلاً ثم وافقت. قلت لنفسى ستجد فيونا الجميلة بالتأكيد فرصًا أفضل.

لماذا أهملت إصرار أمى على أنه مهما يكن ما تقوله أختى فإن هذا الزواج خيانة لها؟ كان يجب أن أفهم مثلها أنه شخص لا يؤتمن ولكن ما كان لى أن أعرف وقتها صفاته الأخرى. بعد الزواج فقط جربت غيرته المجنونة من الرجال الآخرين. فرض علينا عزلة لا نزور فيها ولا نزار ولا نكاد نخرج سويًا من البيت. لكن غيرته كانت أيضًا من الكتب.

اعتاد أن يرانى أدرس مع أبى وأن يُظْهِر أمامه اهتمامًا بتشجيعى ومتابعة تقدمى فى الدراسة. وبعد الزواَج صار يكره أن يرانى أمسك كتابًا. يسخر من قراءاتى وترجماتى. ماذا سأفعل بها وأنا ليس لى عمل؟ أليس الأفضل أن أهتم بأشغال البيت؟ يرمينى طول الوقت بالجهل ويكتشف أخطاء فى قراءاتى لليونانية واللاتينية.

جربت فى البدء أن أمتدح عمله، أبدى إعجابًا مبالغًا فيه بمقالاته وبالدراسات التى أعرف أنه ينقلها عن غيره بشىء من التحوير. لا فائدة. على الأقل كان يفهم أنى أنافقه وأن إعجابى كاذب. لكنه لا يعترف بهذا بل يصر على أننى فشلت مثل غيرى من القُرّاء فى إدراك الفكرة الأساسية فى مقاله. العيب عيبى أيضًا. أنا المسئولة لأن أفكاره تستعصى علينا.

ومن بدء الزواج أيضًا اكتشفت بخله. لم يكن بخيلاً بالمال فقط. ليس ذلك عيبًا كبيرًا فى بلد فقير لا يسمح للناس بترف التبذير. لكنه كان شحيحًا فى كل شىء آخر، حتى فى مشاعره.

فى المرات القليلة التى طارحنى فيها الحب كان يتصرف كأنه يقدم لى خدمة عظيمة، خدمة يتعجل الانتهاء منها. لم أكتشف جسدى فى الحقيقة إلا مع محمود بعد المحاولات الفاشلة مع مايكل. عرفت مع محمود أن ممارسة الحب لحظة خارقة يحلق بها جسدان معًا خارج مدار العالم إلى نعيم يكون جديدًا فى كل مرة. تحلّ نعمة فذة كأن كل مرة هى أول مرة، وكأن تلك الشهقة الأخيرة هى ميلاد جديد أو بعث جديد، شىء لم أعرفه أبدًا مع مايكل، يختلف تمامًا عن لزوجة العرق والاشمئزاز وتوتر الجسد المتعطش إلى الارتواء وارتياحه مع ذلك للخلاص من عذاب الاشتباك الذى لا يفضى إلا إلى التقزز من النفس ومن شريك الفراش.

مرة سألته: لماذا تزوجتنى؟ فردّ على طريقته فى السخرية لكى أعذب نفسى. لعله كان صادقًا. لا يمكن لرجل أن يتزوج امرأة لا يحبها إلا إن كان يهوى تعذيب نفسه. ولكن لماذا؟ ظللت حتى آخر عمره أرى فى عينيه نظرة حزينة وذليلة لفيونا. فلماذا لم يتزوجها هى

واختارنى أنا؟ عرفت فى حياتى رجالاً يتجنبون الارتباط بالجميلات خوفًا من نظرات الآخرين التى تتساءل: هل يستحق هذا الرجل تلك المرأة؟ ربما كان أيضًا جبانًا إلى هذا الحد، أو ربما كان متأكدًا أنه لا يستحقها فاختار الأخت العادية التى لن يحسده عليها أحد، ليعذب نفسه كما قال وليعذبنى معه أربع سنوات كاملة.

لكنه اكتشف بعد محاولاتى الأولى لاسترضائه أنى لست من كان يظن. لست من تصبر على الإهانة. بادلته قسوة بقسوة وكرهًا بكره. عرضت عليه فى بدء زواجنا أن نقوم برحلة إلى مصر لأن مصر القديمة طالما فتنتنى ولأنى أملت لو سافرنا بعيدًا أن ننجح فى التقارب والتفاهم. قلت: إننا سنقتسم تكاليف الرحلة لأن ما تركه لى أبى كان يكفى لذلك. لكن مايكل اعتبر مجرد الفكرة دليلاً على الجنون. سفه وتبذير دون معنى. أستطيع أن أعرف عن مصر كل شىء من قراءة الكتب إن كان عقلى يستطيع أن يستوعب شيئًا. تحديته. بدأت دراسة لغة المصريين القدماء. درست بنفسى الهيروغليفية والديموطيقية. لم يرضه ذلك أيضًا. كان يخطف الكتب من يدى ويمزقها لأنى أضيع وقتى فيما لا يفيد بدل أن أعمل فى البيت. فلأحاول على الأقل إتقان اللغات التى بدأتها. كنت أقوم بكل هدوء وآخذ كتابًا من مكتبته وأشرع فى تمزيقه. يهجم علىّ ليضربنى ويمنعنى فآخذ مزيدًا من كتبه أضربه ببعضها وأمزق منها ما أستطيع. كدنا نقتل أحدنا الآخر فى تلك المعارك بالكتب والتضارب فى معارك أخرى. كان الأمر سينتهى فعلاً بجريمة أو فضيحة، لأنى فكرت كثيرًا أن أهرب من البيت ومن البلد كله لولا إشفاقى على أمى وفيونا، ولو لم يقتله فى النهاية بخله وعناده.

ظل يعتبر السعال الذى يفتك بصدره نزلة برد عادية. عالج نفسه بالأعشاب والمشروبات الساخنة وخمر الروم الدافئ والحمامات الساخنة والباردة وكل الوصفات التى جربها أو سمع بها من قبل. رأينا جسده يذوى وسعاله يتحول إلى نباح مجرد سماعه يثير الفزع. ولم ينفع إلحاحى أنا وفيونا وأمى بأن يعرض نفسه على طبيب. المسألة لا تستحق، آخر وصفة يجرّبها أو آخر شراب يتعاطاه هو العلاج المجرب والأكيد للقضاء على النزلة الموهومة. وفى النهاية، عندما بصق مع سعاله كتل الدم وذهب إلى الطبيب كان الوقت قد فات من زمن.

أرعبنى منظره على سريره فى المستشفى ووجهه بلون الطباشير وهو يلهث عاجزًا حتى عن السعال. كان الرعب موجودًا لكنى فتشت فى نفسى عن حزن حقيقى فلم أجد - حتى عندما كان ينظر نحوى بعينين مذعورتين كأنه يطلب نجدة لا أملكها. وارتعت من نفسى عندما مات لأنى وجدت داخل نفسى وبرغمى تنهيدة ارتياح تهتف: أخيرًا!

لم يكن ذلك بإرادتى. لم أقتله ولم أتمن له الموت، لكنه انتهى من تلقاء نفسه فما هو ذنبى؟ قمت مع ذلك بواجبى فى فترة الحداد وأتقنت كل المظاهر المطلوبة لكن حزن فيونا عليه كان حقيقيًا. ما يدرينى؟ لعلها كانت تحبه بالفعل وإن أنكرت. أو لعله قلبها الذى يعطف على كل الناس. ما يدرينى؟ كأن حياتى ليس فيها ما يكفى من التعقيد!

أربع سنوات مع مايكل أماتت فى نفسى أشياء كثيرة، وسنتان مع محمود بعثت فيهما من جديد. نعم، لا أقل من بعث حقيقى لامرأة أخرى. لعل الشفاء بدأ منذ رحلة الصعيد التى يسرها لى ما ورثته من مال مايكل المدخر بنسًا فوق بنس. شعرت وأنا أتحرك وسط الآثار أتأمل الصور والتماثيل، واقرأ بنفسى الكتابات المنقوشة على الأعمدة

والجدران وأدونها فى كراساتى أن تلك متعة تفوق ما كنت أحلم به، ثم قابلت محمود، أية نعمة أنه نقيض لمايكل فى كل شىء! يعطى بإسراف ولا يعرف حدودا لأى شىء، ولا حتى للتناقضات وتقلبات المزاج!

ها هو أخيراً.

أسمع وقع خطواته المألوف على السلم.

تعال يا محمود! سنرحل إلى الصحراء معًا. سنولد هناك أيضًا من جديد معًا، وفى هذا البعث لن أفرط فيك، ستكون لى.

* * *

٣ـ محمود

ها هو بستان الروح كما قال سعيد! ربما روحه هو، لا روحى أنا. لا يحرك شيئًا فى نفسى هذا البستان الأصفر. ربما الغضب.

تترامى الصحراء أمام عينى ولا شىء فيها غير الرمال والكثبان والأحجار والسراب اللامع فى الأفق. قيظ بالنهار ولسعة برد فى الليل، بين الحين والآخر سلاسل من جبال رمادية كأنها بقايا جبل واحد حولته صاعقة إلى أنقاض مهوشة.

أركب وكاثرين جملين فى المقدمة. تلبس زىّ ركوب الخيل بسرواله المنتفخ حول الفخذين وتنفرد بسرج مسقوف بقماش سميك مثل هودج مفتوح. يبدى الدليل وبدو القافلة اهتمامًا بنا. ينصبون لنا خيمة فى الليل بينما ينامون فى العراء مستترين من الرياح بجمالهم الباركة. أمّا الجنود العشرة الذين التحقوا معى بالقافلة فيركبون فى المؤخرة، باستثناء الشاويش إبراهيم جندى المراسلة الذى ألحقه الأميرالاى سعيد بخدمتى قبل السفر وأوصانى به.

كلما مرّ يوم فى الطريق خيم صمت أعمق على القافلة وكل العيون مصوبة للأمام تحدق فى الفراغ. فيم يفكر كل منهم؟ لا أعرف، ولكن

الصمت يغزونى أنا صخبًا وصورًا توقظ كل الماضى ـ كل الأحياء وكل الراحلين. ربما يكون ذلك قد بدأ حتى من قبل الرحلة. أفكر فى أشياء كثيرة لا سيما فى النهاية.

هل أخاف الموت؟ بالطبع. ومن لا يخافه؟ أسأل نفسى كيف سيباغتنى: فى الواحة برصاصة؟ أو كموت عادى بعد مرض قصير أو طويل؟ فى حادثة عابرة؟ باختناق فى الحمام أو تسمم من طعام؟ هل يأتى بدون أية مقدمات على الإطلاق؟ مئات الأشكال تختبئ فى زوايا مظلمة من الطريق لتنقضّ مرة واحدة هى نفسها النهاية. أتعمد كثيرًا أن أنسى، لكننى لا أنسى فى هذه الرحلة أمى. أراها فى انتظارى فى تلك الليلة عند عودتى إلى البيت. تجلس على مقعدها الكبير إلى جوار السرير، بينما ترقد الخادمة على الأرض مستغرقة فى النوم. كنت أعرف أن أمى لا تنام قبل أن تطمئن إلى عودتى وقبل أن تسألنى سؤالها التقليدى إن كان أخى سليمان قد كتب رسالة من الشام. فى الغالب لا تكون هناك أية رسالة ولكنى أطمئنها بأنى سمعت أنه هو وأولاده بخير. قبّلت كالعادة رأسها ويدها وسألتها إن كانت بحاجة إلى شىء. طلبت كوبًا من الماء لأن قلبها لم يطاوعها أن توقظ الخادمة. وقبل أن أصل إلى باب الغرفة نبهتنى «من القلة البنى»، ثم لاحقتنى و«فى الكوب النحاس». ذهبت إلى الصالة حيث تضع القلل. فى صينية على إفريز الشباك البحرى، ورفعت القلة التى تبخّرها دائمًا بالمستكة وتغطيها بمفرش رقيق مخرّم والتى يبرد فيها الماء بالفعل أكثر من غيرها. صببت الماء فى الكوب النحاسى المزخرف بفروع نباتات ملوّنة ورجعت إلى الغرفة وفى نيتى أن أداعبها عن هذا الكوب الذى لا تشرب إلاّ منه لأن أبى أهداه لها ذات يوم. مرت دقيقة واحدة أو دقيقتان مع هذه

الأشياء، وعندما فتحت الباب والكوب فى يدى، رأيت رأسها يميل على صدرها. اقتربت مناديًا فلم تجبنى واكتشفت أنها انتهت.

عشت شهرين عاجزًا عن فهم أى شىء. أكرر لكل من يعزّينى ما حدث ما بين لحظة خروجى من الغرفة وعودتى إليها، كأن هذه التفاصيل تنطوى على سرّ أو لغز يفسر ما حدث. وكنت أمشى مرتعش الساقين. لم أفهم ومازلت عاجزًا عن الفهم.

نعم أخاف الموت ومع ذلك كنت مستعدًا فى وقت ما أن ألقاه دون تردد. أيامها كان هناك معنى غير أنه زمن وانقضى. لم يعد يذكرنى به سوى الألم المتقطع لأثر الرصاصة التى هشمت عظام ذراعى. أما الآن فمن أجل أى شىء أموت فى هذه الواحة المنسية وسط هؤلاء البدو الذين أكرههم؟ تقول كاثرين إن سكان الواحة ليسوا بدوًا، غير أن كل أهل الصحراء بدو وقد عرفتهم بما فيه الكفاية. ستندم هى أيضًا لإصرارها على السفر. حذرتها كثيرًا فظلت تردّ دائمًا بأنه لا شىء يجعلها تندم ما دامت قد اختارت. لم أفهم مع ذلك سر تلهفها على السفر. أظن أنها مرة أخرى حكاية الآثار. أهلكتنى فى معابد الأقصر والصعيد وسقارة ودهشور، وفى النهاية اعتدت أن أتركها تذهب حيث تشاء بحراسة جندى المراسلة. والآن تتحدث بوله عن الإسكندر الأكبر وزيارته للواحة ولا تصدق نفسها أنها ذاهبة إلى حيث ذهب! تريد أن تعبر الصحراء لتتبع خطاه وتفتش عن آثاره ولا يهم أن تكون حياتها هى الثمن. امرأة شجاعة! امرأة مجنونة! بصعوبة أقنعتها أن تتخلى عن فكرتها بأن نجرب لدغ الثعابين قبل السفر لكى نكتسب مناعة من زواحف الصحراء! نصحتها بأن تأخذ رأى شيوخ الرفاعية الذين اكتفوا بإعطائها قوارير فيها سوائل لا أعرف ما نفعها. لكن ربما هذا الجنون هو ما يربطنى بها. لم تقنعنى أى امرأة عاقلة بقيد الزواج. بالطبع كانت

هناك قبلها (نعمة السمراء) لكنى أنا الذى أضعتها، ولم يخطر على بالى يومًا أن أتزوجها. كفى!

لست مسافرًا الآن من أجل كاثرين على أى حال، ولا من أجل الترقية التى ظل هارفى يلح على تذكيرى بها. ربما لولا عار المحاكمة العسكرية التى ألمح إليها سعيد، ولولا أنى لا أعرف لنفسى مهنة أخرى لرفضت الترقية والسفر معًا، كفى!، فليحدث ما يحدث. أذكر من أيام المدرسة بيتًا قديمًا من الشعر.

وأعلم علم اليوم والأمس قبله

ولكننى عن علم ما فى غد عمى

تمنيت لو كان الأمر هو العكس. لو أجهل ما حدث بالأمس وأعلم ما فى الغد، بل أوافق حتى على أن أظل أعمى عمّا يحمله الغد بشرط أن يختفى الأمس أيضًا. أوافق على ما هو أقل - أن يشرق الصبح فأعيش يومى وحده وقد غابت من ذهنى كل الذكريات. أى ترتيب مريح للحياة أن نعيش اليوم دون إزعاج الأمس والغد معًا! لكن فى هذه الصحراء لا شىء فى ذهنى غير الأمس وأنا لا أحبه.

فى النهار المشاهد المكررة نفسها، لا يكسر رتابتها إلاّ مساحات متباعدة يتغير فيها لون الرمال إلى الأحمر أو الأبيض أو ظهور كثبان تجهد الجمال عند صعودها فتبطئ حركتها. وكل يومين أو ثلاثة يزعق الدليل مبشرًا بقرب وصولنا إلى بئر أو إلى واحة صغيرة مهجورة نستريح عندها ريثما ترتوى الجمال. تمرّ عيناى على المعالم مرورًا عابرًا لكنى أختلس النظر إلى كاثرين فأراها على ظهر جملها تدير رأسها لليمين والشمال بدهشة لا تنطفئ فى عينيها. هل ترى هى أيضًا بستان الأميرالاى سعيد؟ ما الجديد الذى يجذبها هكذا طول الوقت؟ سألتها

ذات ليلة ونحن نجلس أمام الخيمة وهى تتطلع باستغراق إلى السماء المزدحمة بالنجوم، فردّت:

وكيف لا ترى أنت بنفسك؟ مثلاً هذه النجوم. أنا لم أرها أبدًا فى المدينة كثيرة لهذا الحد ولا مضيئة بهذا الشكل.

رفعت عينىّ للسماء وأنا أقول: لأن القمر مازال هلالاً.

فردّت: أعرف. لكنى أرى النجوم هنا أكبر وأقرب. أراها تومض وكأنها تتحرك نحوى باستمرار فأكاد ألمسها بيدى، كما لو كانت تسبح بسرعة فى السماء لتهبط إلى الأرض.

ضحكت ضحكة خافتة وأنا أقول أعرف أن كثيرًا من الأيرلنديين شعراء ولكن الصحراء تغيرنا بشكل مختلف.

- فكيف تغيرك أنت؟

- أنا تمتد صحراء أخرى داخل نفسى، لا شىء فيها من سكون الصحراء التى نعبرها. صحراء مليئة بالأصوات والناس والصور.

- هذا جميل أيضًا.

- يكون جميلا لولا أن تلك الصور عقيمة أيضًا كالصحراء. كلها ترتد إلى ماض ميت، لكنها تطاردنى طول الوقت.

تنهدت وهى تقول: قد لا يكون للصحراء ذنب فى هذا. ربما تكون تلك أشياء حملتها أنت معك إليها.

غمغمت وأنا أنهض: ربما.

كان حديثنا فى الطريق يختزل أيضًا يومًا بعد يوم.

* * *

لكن الصحراء ادخرت لنا مع ذلك شيئًا آخر.

فى الليلة التاسعة من رحلتنا أناخت القافلة بعيداً عن أى من واحات الطريق الصغيرة. وفى الصباح كان النور شاحبًا ولم تغمرنا أشعة الشمس. ظلت مجرد كرة برتقالية فى السماء يحجبها ضباب أو غبار كثيف. وبدا الدليل متجهمًا وعصبيًا وهو يتعجل رجاله تحميل الجمال وإحكام وثاقها عندما بدأت ريح جنوبية خفيفة يصحبها صفير خافت تثير زوابع متفرقة من تراب أبيض يتطاير فى دوامات صغيرة ثم يهبط فوق الرمل.

ونصحنا الدليل حين اقترب منا وسط هرولته بأن نلثم وجهينا جيداً لنحمى الأنف والعينين، غير أن القافلة واصلت الطريق كالعادة، بل تقدمت بسرعة أكبر. وبدا لى أن الرياح تسوق الجمال على الرمال مثل القوارب فى الماء. انتفخت جلابيب الرجال وراء ظهورهم وأحنينا جميعًا رءوسنا لتجنب الهواء والرمال. ثم بدأت الجمال تصرخ وهى تعدو تارة وتتوقف أخرى وظهرت فى الأفق البعيد سحابة بيضاوية كبيرة مثل تل حلزونى يزحف نحونا ببطء فوق الرمال. أمر الدليل بصوت صارخ كل الركب بالنزول وبأن ننيخ الجمال ونتشبث جيداً بأعنّتها. لكن الأمر جاء بعد أن نفض جملان حمولتيهما وانطلقا هائمين فى اتجاهين مختلفين. تطايرت حمولة من الأقمشة التى انتشرت أشرعة ملونة هاربة فى الفضاء، والأوانى المعدنية التى راحت ترتطم ببعضها البعض فى صليل متتابع وسط

صراخ الجمال وصياح الرجال، بينما زحف التل الحلزونى نحونا بسرعة وهو يسوق أمامه رمالاً تنفذ إلى وجوهنا الملثمة مثل السهام. ومع اقتراب السحابة تحول صفير الزوابع إلى هزيم مدوّ ولم يعد أحد يسمع ما يصرخ به الدليل. احتضنت كاثرين فى صدرى ونحن نترنح مثل الباقين نركع برغمنا فوق الأرض ونسقط ثم ننهض ونترنح من جديد وسط دائرة الجمال الباركة محاولاً أن أحميها ونفسى من وابل الحصى والحجارة الصغيرة التى ترجمنا قبل أن تطبق علينا الظلمة الكاملة ويلفّنا الهدير، فلم أعد أسمع حتى صوت كاثرين التى كانت تصرخ وهى تتشبث بى. لم يعد غير طوفان الرمال والأحجار التى تأتى من كل مكان وتتراكم فوقنا ـ كلما حاولت أن أنفضها ازداد ثقلها فوق رأسى وكتفى وقلت لنفسى إنها ستطمرنا إلى الأبد.

وفى اللحظات التى عجزت فيها عن التنفس والتى أطبق فيها ضيق هائل على صدرى تمنيت الموت من قلبى. وتسللت إلى رأسى فكرة خاطفة وأنا أحتضن جسد كاثرين المنتفض. فليأت! هو مؤلم ولكنه ليس مخيفًا. فليأت بسرعة! أود النهاية كراحة جميلة فى عبء لا يحتمل. فليأت!

لكنه لم يأت..

وإنما انتهى كل شىء فجأة.

وكما أدركتنا سحابة العاصفة وبعثرتنا فى الصحراء انحسرت بسرعة ورحلت إلى مكان مجهول. حل سكون وسطعت شمس، أمّا نحن فظللنا نسعل ونتفل رمالاً صفراء امتلأت بها حلوقنا

وأفواهنا وسمعت صوت الدليل اللاهث المتقطع يأمر رجاله بأن يلتقطوا ما يمكن جمعه من المتاع المتناثر في الصحراء. وزعق واحد من البدو . . لكنا فقدنا جملين، فردّ الدليل إن عاشا فسيرجعان، وزّعوا ما بقى من حمولتيهما على بقية الجمال. أما كاثرين التى ظلت تدفن رأسها في صدرى طول الوقت، فقد رفعت وجهًا شاحبًا ومغبراً وهى تنزع لثامها وتشهق شهقة طويلة ثم حاولت أن تبتسم.

قلت وأنا لا أزال في دهشة من نفسى: لم يكن مخيفًا جداً.

غمغمت كاثرين:

ما هو؟

الموت.

تراجعت خطوة وهى ترفع بصرها نحوى وسألتنى تقصد أنه لم يكن قريبًا جدًا؟ فكرت لحظة قبل أن أرد عليها: بالعكس، بل لأنه كان قريبًا جدًا.

لكنها لم تعد تسمعنى. راحت وسط شهقاتها وسعالها تنفض الرمال بعناية عن وجهها وثيابها، ولم أستطع أنا أن أشرح كيف أن قرب الموت هو الذى جعله أليفًا ومرغوبًا. وساعتها وجدت أمامى إبراهيم جندى المراسلة ووجهه يختفى خلف قناع من ذات صفراء متلاصقة لا يبدو منه غير العينين والشفتين.

سألنى بلهفة: سعادتك والهانم بخير؟

- نعم وأنت يا إبراهيم؟

- أنا كما ترى رجل عجوز يا سعادة المأمور. حين أطبقت علينا الظلمة تلوت الشهادتين ولكن كتب لنا عمر جديد والحمد لله.

إبراهيم هو الوحيد بين صحبتى من الجنود الذى خاض الرحلة إلى الواحة من قبل. شارك فى شبابه فى إحدى الحملات العسكرية على سيوة وزكّاه لى الأميرالاى سعيد لهذا السبب.

كانت كاثرين تتابع حديثنا فأشارت بيدها إلى إبراهيم وهى تقول أرأيت؟ لم أسألها عما تقصده ولا كان هناك وقت للسؤال. شملت الحركة القافلة كلها وبدأت الجمال الباركة تنهض استعداداً للرحيل.

* * *

عادت القافلة تسير وسط هدوء تام. اختفى صوت الرياح وصراخ الجمال والقافلة تشق طريقها فوق رمال ناعمة وساكنة كأن الصحراء لم تعرف عاصفة فى أى وقت. الجمال المتعبة تتقدم ببطء ولا يحاول الحداة استعجالها وقد ارتسم الإجهاد على وجوههم أيضًا. وفى منتصف النهار وصلنا إلى بئر صغيرة تحفها أشجار قليلة معظمها ذابلة فوجدنا أحد الجملين اللذين فقدتهما القافلة. كان باركًا وهو يئن وجسده مثخن بجراح مفتوحة مستطيلة كضربات سياط متوازية.

ربت الدليل على رقبته وهو يخاطبه: كان يجب يا صاحبى أن تسكن فى العاصفة لا أن تجرى منها إلى الهلاك. ألم تعلمك الصحراء والقوافل؟

ثم انحنى وراح يدهن جروحه بزيت يصبه من قارورة معدنية. التفت نحوى وأنا أراقب ما يفعله وقال كأنه يدافع عن نفسه: ليس هذا موعد العاصفة. أتت مبكرة شهرًا على الأقل عن موعد العواصف. صحبت هذه الصحراء عمرى كله وأعرفها مثل كف يدى. أحفظ دروبها ومواسمها ولكنها تغدر. مهما صحبتها وأمنت لها يمكن أن تخونك.

- ليس بقدر ما يخون البشر.

سألنى وهو منهمك فى تطبيب الجمل بيديه معًا: ماذا قلت سعادتك؟

- سألتك كم من الوقت سنبقى هنا.

ـ يجب أن ترتاح الجمال. سنقضى هنا بقية النهار ونبيت الليل.

أمر الدليل بأن نكون، كاثرين وأنا، أول من نستخدم البئر واحتجز عنا بقية القافلة. وبعد أن اغتسلنا وغيرنا ثيابنا التى كانت محشوة بالرمل ابتعدنا حين أقبل الرجال وهم يهللون ويقفزون فى البركة الضحلة المحيطة بالبئر. وقفنا تحت ظل نخلة تصل إلينا ضحكاتهم وصيحاتهم وهم يعبثون فى الماء وقالت كاثرين وهى تبتسم:

ـ قد يقال إن هؤلاء الرجال سعداء لنجاتهم من الموت. قد يقال إنهم وجدوه مخيفًا بالفعل.

ـ وقد يقال أيضًا إنى كنت أخافه مثلهم لكنه حين اقترب منى ولامسته وجدته ناعمًا ورقيقًا، يهمس لى تعال. كلما أتيت أسرع كلما كان أفضل. ليست أول مرة أواجه فيها الموت، أما الآن فى هذه الصحراء فهناك شىء لا أستطيع شرحه، إغواء أو نداء.

هتفت كاثرين فى غضب: كفى! أنت تعرف أنى لا أخاف الموت. سيأتى فى موعده لكنى لا أشتهيه ولا أتغزل فيه. هذه الحياة لكى نحياها فلنحاول إذن أن نجعل لها معنى. فى الحقيقة أنت الذى تخيفنى الآن.

ـ إذن لا تهتمى. ربما هى لحظة عابرة، فأنا منذ بدأت هذه الرحلة لا أكف عن التفكير فيما حدث لى فى الحياة. مسرات قليلة وأحزان ثقيلة. كأن الصحراء تسألنى إن يكن هذا هو الحال، أليس صحيحًا إذن أنه كلما كان أسرع كلما كان أفضل؟

ـ قلتُ لكَ لا ذنب للصحراء، ليست خواطرك الكئيبة عن الموت هى ما يزعجنى الآن، فهى ليست اكتشافًا يخصك وربما يفكر معظم

الناس بهذه الطريقة فى لحظات الأزمة والحزن، لكن. . هناك شيء أبعد من ذلك موجود معك من زمن ولا ذنب فيه للعواصف أو الصحراء فما هى أزمتك يا محمود؟ أنت وحدك الذى تعرف. أما ما أعرفه أنا فهو أن هذه الصحراء، ستحاربنا وكذلك الواحة وأعداء نعرفهم وآخرون نجهلهم وسنموت بالطبع فى النهاية. سنموت مثل كل الناس، ولكن يجب ألا نموت مهزومين.

- ومن قال إنى أنوى أن أنتحر؟ . .

ثم ضحكت: سيتكفل أهل الواحة بالمهمة! . . ولماذا تتصورين من الأصل أن أنتحر؟ ما الذى نملكه بالفعل غير هذه الحياة؟ يجب أن نعيشها حتى آخر لحظة.

رفعت كاثرين يديها إلى أعلى واتسعت عيناها قليلاً وهى تقول:

- كيف أنى لم أجن حتى الآن؟

وفى هذه اللحظة اقترب منا إبراهيم والماء ما زال يقطر من شعره ويتخلل غضون وجهه الأسمر.

قال: سعادة المأمور يريد أى شيء؟

ابتسمت وأنا أسأله: وما الذى يمكن أن تفعله من أجلى فى هذا المكان يا إبراهيم؟ تلفت إبراهيم فى الخلاء وأشار إلى نخلة عالية ذابلة وهو يقول نحن فى موسم البلح. لو كانت هذه النخلة تطرح بلحًا لطلعتها من أجل سعادتك. .

- كفى نفاقًا يا إبراهيم! لو طلعتها لكسرت رقبتك فماذا سأستفيد؟ وأنت تريد أن تعيش أليس كذلك؟

بسط كفيه وهو يقول: من أجل الصغار يا سعادة المأمور.

قالت كاثرين: إذن بدلاً من طلوع النخل قل شيئًا ينفعنا عن الواحة قبل وصولنا.

- لكنى حكيت لك كل ما أعرفه يا هانم. هى ليست مثل أى مكان وناسها غير بقية الناس. قولى عنهم ما شئت لكنهم أشجع من رأيت فى حياتى. عندما جئت مع الجيش قبل عشرين سنة كنا نضرب البلد بقنابل المدفعية ولم يكن معهم سلاح غير البنادق الصغيرة يطلقونها علينا من وراء الأسوار لكنهم لم يستسلموا مع كثرة قتلاهم حتى نفدت ذخيرتهم. بينهم عداوات لكنهم دائمًا يد واحدة على الأغراب. وهم.. هم أيضًا لا يسمحون للأغراب بدخول بيوتهم.

قالت كاثرين ضاحكة: ولا سيّما الكُفَّار، أليس كذلك؟

بدا الارتباك فى وجه إبراهيم وهو يغمغم: العفو يا هانم.

التفتت كاثرين نحوى وهى تقول: قرأت بالفعل أنهم يكرهون الأوروبيين بالذات وأنهم قتلوا منهم بعض الرحالة الذين ذهبوا يستكشفون الواحة.

- عندما أفكر فى كل الكوارث التى جلبها الأوروبيون على بلدنا فأنا لا ألومهم.

ولا تنسى أنى حذرتك أكثر من مرة. أنت التى صممت.

قالت بخفة: ومازلت مصممة. سترى أنى سأروضهم.

التفت إلى إبراهيم وأنا أقول: ولكنى أظن أن كرههم للحكومة أشدّ!

قال بصوت خافت: هم يكرهون دفع الضرائب. وأظن أن معهم..

ثم لزم الصمت واستأذن فى الانصراف ورجع ناحية البئر.

قلت لنفسى إذن فسيستقبلوننى بالأحضان من أول لحظة! المطلوب منى قبل كل شىء جمع الضرائب المتأخرة. أن أرسل للقاهرة فور وصولى حمولة ألفى جمل من التمر، وخمسمائة جمل من زيت الزيتون وغرامة مالية للتأخير خمسة آلاف ريال. أحسن المستر هارفى الاختيار!

كانت بقية القافلة مقبلة نحونا وبعض الرجال يعصرون ثيابهم المغسولة وتقدم أحدهم مهرولاً وهو يقول:

- غيّر الدليل رأيه. قرر أن نرتاح هنا الآن وأن نستأنف الرحلة بالليل. يقول إن الصحراء أكثر أمنًا من هذه البركة التى تقصدها الذئاب والضباع فى الظلام.

قلت وأنا أضرب بعوضة على خدى: وكيف ستكون جحافل هذا البعوض فى الليل؟



نصبوا الخيمة الوحيدة فدخلت كاثرين لتنام. هى محظوظة يأتيها النعاس سريعًا حينما تشاء. لا تخوض مثلى معركة مع النوم كل مرة. نام الرجال أيضًا ـ البدو والتجار والجنود وهجعت الجمال استعدادًا لرحلة الليل. الصحراء فى سبات تمتد حتى الأفق بحرًا ساكنًا من رمال منبسطة، لا حركة ولا صوت، هى والجمال والبشر يتعافون من العاصفة. ما أعمق هذا السكون! قال لى الأميرالاى سعيد صدقنى أنى من ناحية أحسدك لأنك ذاهب إلى الصحراء، جنة الأنبياء والشعراء. إليها يفرّ كل من يترك وراءه الدنيا لكى يجد نفسه وفيها تورق الأنفس الذابلة وتزهر الروح. ما أطيبك يا سعيد! كأن ما عاشه الإنسان عمره كله وتراكم فى الصدر يمكن أن يتبخر بمجرد النقلة من التراب إلى الرمل! أنت مثل كاثرين التى تتغزل فى الصحراء وتقول إنها تغيرها. يدهشنى هذا حقيقة، فهى ليست من أهل الطريق مثل سعيد ولا أظن أن أمور الروح تشغلها. وكيف تقول بهذه الثقة أننا سنهزم الدنيا؟ أى سلاح كان يمكننى أنا مثلاً أن أشهره فى وجه الدنيا بعد أن أغمد الجميع السلاح؟ الطيبون مثل الأميرالاى سعيد اكتفوا بأن وضعوه فى الغمد أما الباقون فأغمدوه فى صدر البلد. رأيت بعينى (الولس) الذى كسر عرابى ثم رأيت (الولس) الأكبر بعد أن كسروه. جنب بيتى بالضبط. فى الميدان الذى شهد المجد والفرح وعرابى فوق حصانه شاهرًا سيفه يعنف الخديو الذى طالما أذلّهم «لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا ووالله الذى لا إله إلا هو إننا لن نورّث ولن نُستعبد بعد اليوم» والناس يتجمعون وافدين من الشوارع والحوارى يتعانقون على غير

معرفة وفى عيونهم دموع الفرح. يوم عيد فى المحروسة! وفى المكان نفسه، بعد سنة لا غير، رأيت العربات المذهبة تجرها خيول مطهمة تتهادى واحدة بعد أخرى إلى الميدان الفسيح، تقل كبار رجال البلد، الباشوات والبكوات، نواب البرلمان الذين كانوا يلقون الخطب الملتهبة ضد الإنجليز أيام (الهوجة)، رأيتهم هم أنفسهم، يترجلون بجلال من عرباتهم، بثيابهم المطرزة ونياشينهم المذهبة لينضموا إلى الخديو فى منصته وهو يستعرض جيش الاحتلال وعلى يمينه الأميرالاى سيمور الذى دمرت مدافع أسطوله الإسكندرية وعلى يساره الجنرال ولسلى الذى أباد بمعونة الخونة جيشنا فى التل الكبير. وأقرأ بعد ذلك بأيام أن هؤلاء البكوات والباشوات جمعوا فيما بينهم مبلغًا كبيرًا من المال وقدموا به هدايا معتبرة لسيمور وولسلى، ويومها بكيت بلدى ونفسى، وتسألنى كاثرين ما هى أزمتى؟

لكن ما هى بالفعل أزمتى؟ هذا عهد قديم مضى وانقضى فما هى المشكلة الآن؟ قمت من مكانى ومشيت موليًا وراء ظهرى الخيمة والواحة المهجورة لا شىء غير الرمل وتلال بنّية بعيدة مثل تماثيل لوحوش رابضة. رأيت الرجال ينامون مبعثرين فوق الرمل يحتمى كل منهم بما يجده من ظل تحت نخلة أو شجيرة أو فى ظل جمل بارك، والبعض يغطون وجوههم بمناديل كبيرة. استطاعوا هم أيضًا أن يجدوا السلام والنعاس فى هذا القيظ. وحدى إذن أنا العاجز عن النوم. أقضى الأيام والأعوام فى تلفيق صلح مع نفسى لا يعيش طويلاً. ما إن أقول إننى عملت ما كان ينبغى عمله حتى يهزأ منى شىء فى داخلى فأجرى إلى الخمر والنساء مثلما كان حالى وأنا مراهق وشاب. لكن أين هى براءة العمر الأول عندما كانت الأشياء سهلة وبسيطة وطمأنينة النفس تأتى دون تعب ولا تعقيد؟ وما جدوى التفكير فى ذلك على أى

حال؟ لكن لا مهرب من الوجوه التى تزحم الفضاء وتفرض وجودها فجأة على غير انتظار. يطل أبى. أراه فى دكانه فى الموسكى بوجهه البشوش الواثق من نفسه فى أيام مجده ثم يهاجمنى بالوجه العجوز الكسير بعد هزيمته. يظهر أخى سليمان الذى غاب عنى من زمن فأحاول أن أسترجع ملامحه. وأرى وجه نعمة السمراء، الوحيدة التى ظللت أبحث عنها فى كل من عرفت بعدها من النساء. ويطفو وجه طلعت زميلى وصديق الشباب لكن مع ظهوره تختفى كل الوجوه الأخرى ويطن فى أذنى دوى المدافع. أنفيه عامداً وأرجع إلى نعمة. لِمَ لم أدرك قيمتها عندما كانت ملك يدى؟ لا تفلح حيلتى. طلعت هَو الذى ينفيها ويحاصرنى. سأرجع من حيث أتيت.

لا تحملنى قدماى طويلاً فى الشمس الحارقة فأعود إلى الخيمة أستجدى النوم. لا فائدة. لا نوم يقترب من جفونى ولا أستطيع حتى أن أغمض عينى. لا مهرب من وجه طلعت. أخرج من الخيمة وأجلس على الرمل فى ظلها. محفورة فى الذهن تلك الساعات والأيام مع طلعت مهمًا تعمدت أن أزيحها. أرانا نجرى أنا وهو على شاطئ البحر. نجرى من قلعة إلى أخرى مع دوريتنا الصغيرة من الجنود. ننتظر أن يتوقف ضرب المدافع فنزاحم الأهالى المندفعين نحو البحر، نحو المكان الذى دارت فيه آخر معركة. ثيابنا جميعًا ملطخة بالدم. لا وقت لنفكر فى شىء ولا حتى فيما يدور تحت أعيننا. يجب أن نسرع. قنابل الإنجليز القادمة من أماكن كثيرة من البحر تتطاير شظاياها فوق رءوسنا. نصرخ بأعلى أصواتنا ونحن نخترق الجموع المتدافعة فى شوارع الإسكندرية لكى تفسح الطريق للخيول التى تجر العربات. ننزل تارة لكى نشق الطريق بأجسادنا ثم نعود مرة أخرى لنعتلى العربات المكدّسة بجنود الطوابى المربوطين فوقها بالحبال لكى لا يسقطوا فى

الطريق ومعهم من أصيب من الأهالى الذين تطوعوا فى الطوابى . لا شىء بيدنا نفعله لنستجيب لاستغاثات الجرحى وأنينهم ولا لنوقف نهر الدم المتساقط من العربات بطول المسافة من الطابية حتى باب المستشفى فى الرمل . نتركهم فى المستشفى يفرزون الموتى من الأحياء، ونرجع مسرعين مرة أخرى بطول الساحل نبحث عن ضابط كبير أو رئيس يوجهنا لشىء مفيد نفعله . كنا مجرد ضابطين ملازمين صغيرين انتدبونا من القاهرة إلى الإسكندرية بعد المذبحة التى قتل فيها عدد من الأجانب واتخذها الإنجليز مبرراً للحرب . لكننا لا نجد أحداً من الرؤساء نسأله . وأرانى مع طلعت فوق ربوة نرقب من بعيد ما يجرى لإحدى الطوابى . يقول طلعت بصوت مختنق : هذه مجزرة وليست حربًا . وأرد : معك حق . نرى سفن الإنجليز تضرب الطابية كما لو كانت فى نزهة استعراضية تتجمع ثلاث سفن كبيرة فى نظام هندسى وتوجه مدافعها نحو الطابية ثم تنسفها بكل دقة، وترد الطابية، يرد من بقى حيًا فيها، يضربون مدافعهم العتيقة فتسقط قذائفهم بعيداً جداً عن السفن حتى القنابل التى تصل إلى الأسطول تصدها ستائر من فولاذ تحيط بالسفن فتنفجر مكان القذيفة نافورة بيضاء عملاقة فى البحر دون أن يصيب أى سفينة أذى، لكن الانتقام يأتى على الفور. تقترب البوارج المطمئنة من المنافذ التى تطل منها المدافع وتضربها بنيران الرشاشات . تحصد جنود المدفعية الذين لا تحميهم ستائر من فولاذ ولا من حجر، ولا يتوقف الضرب إلا بعد نسف الطابية وجنودها فنجرى نحوها . نتلهف على سماع صوت خيول عربات الإسعاف وأجراسها، لكن القصف يستمر حتى بعد أن رفعت الطوابى الرايات البيضاء ولم يبق فيها مدفع واحد يصلح للضرب .

وفى طريق عودتنا من المستشفى العسكرى نرى الحرائق فى المدينة،

فى المنشية وفى كوم الدكة. ونرى فى أحد الشوارع الأعراب يحطمون المتاجر المغلقة وينهبونها. يلقون المشاعل ليحرقوا ما لم تسبقهم إليه مدافع الإنجليز. نحاصرهم ونطلق عليهم نيران مسدساتنا وبنادقنا فيتحصنون خلف الجدران ويبادلوننا إطلاق النار. تسليحهم أفضل منا بكثير. غير أن كبيراً منهم يأمر رجاله بصوت عال بإيقاف الضرب ويتقدم نحونا وهو يرفع يديه. يقف فى منتصف الطريق ويسألنا بدهشة: لماذا نطلق النار؟ ألم تصلنا الأوامر؟ هم ينفذون الأوامر فلماذا نقف فى طريقهم؟ يسأله طلعت أى أوامر يا مجنون؟

أرى عينى طلعت المحمرتين والدم المتجلط فوق سترته العسكرية وفوق يديه مثلى ومثل كل جنود الدورية. منظره هو الذى ينطق بالجنون بينما يقف الأعرابى أمامنا بثيابه البيضاء الفضفاضة يخاطب طلعت بهدوء واستعلاء: أوامر سعادة الباشا المحافظ يا حضرة الملازم. هل نسيتم كيف ساعدناكم قبل شهر يوم قتل الأروام؟ ألم يأمركم عمر باشا يومها بألا تتعرضوا لنا ونحن نضرب الأجانب؟ ألم تنفذوا الأوامر لكى يسقط عرابى الذى يعصى أفندينا الخديو ويخرب البلد؟ ما الذى تغير الآن؟ لماذا تضربون علينا النار؟

بدأ طلعت يضحك ضحكات قصيرة أشبه بالشهقات وهو ينظر نحوى قائلاً: سمعت؟ هيا بنا يا محمود! فلنرجع إلى القسم! فلنرجع إلى البيت! هل نعصى أوامر رئيسنا سعادة المحافظ؟ نعصى أوامر مولانا الخديو؟ مولانا الأميرال سيمور؟ فلنرجع إلى البيت!.. ظل يضحك ضحكاته الغريبة وهو يلوح بيده الممسكة بالمسدس فشعر الأعرابى بالخطر وبدأ فى التراجع فى اتجاه رجاله المتحصنين خلف الجدران لكن طلعت صرخ وهو يصوب مسدسه نحوه: انتظر! انتظر!

خذ هذه لك! وهذه لمولانا الخديو! وهذه لـ. . ولم يستطع أن يسمى من يريد له طلقته الثالثة لأن رصاصات كثيرة انهالت نحوه من أتباع البدوى الذى جرى ليلحق برجاله. طرحت طلعت أرضًا وانبطحت بجانبه. استطعت أن أصيب البدوى فسقط على الأرض وظل يزحف حتى لحق ببقية العربان وأصابتنى أنا رصاصة فى أعلى ذراعى اليسرى عند الكتف. ولم ينقذنا غير الأهالى الذين أتوا على صوت إطلاق النار وهم يحملون البنادق والنبابيت والسكاكين، فلاذ معظم العربان بالفرار، لكنى استطعت القبض على عدد منهم. توجهنا إلى مستشفى الرهبان فى شارع السبع بنات فضمدوا جُرحى وأودعت هناك طلعت والجرحى من الجنود والأعراب ثم سقت المأسورين إلى قسم اللبان.

نظر مأمور القسم الإيطالى الجنسية إلى ذراعى المضمدة والمربوطة إلى عنقى ولم يقل شيئًا لكنه أشار إلى العربان المقبوض عليهم وسألنى - ما هذا؟ حكيت له ما حدث فظل يتطلع فى وجهى صامتًا لفترة قبل أن يشير إلى جنوده أن يودعوا الأعراب فى الحجز ثم أشار لأول مرة إلى ذراعى المربوطة إلى رقبتى وهو يقول مازالت هناك حرائق فى المنشية. إن لم يكن جرحك خطيرًا؛ فاذهب بسرعة مع الدورية وساعد فى إجلاء الأهالى. وكان هذا هو التكليف الوحيد الذى تلقيته فى ذلك اليوم. سألت المأمور عما سيفعله بالأعراب، فردّ باللغة العربية التى لا يتكلمها ولا يفهمها: «شوف شغلك»!

ولم يكن هناك شغل يمكن أن أفعله أنا أو الجنود فى المنشية أو فى أى مكان آخر من المدينة. تحولت الإسكندرية إلى شعلة من النيران بعد أن تجدد الضرب من الأسطول ولم تميز القنابل بين الحصون والبيوت ولا بين الجنود والأهالى. تدافع الآلاف رجالاً وأطفالاً ونساءً نحو باب

رشيد على مدى يومين ليفلتوا من مدينتهم المحترقة. سيل لا ينقطع من البشر جرف معه جنود الدورية فوجدت نفسى وحيداً أنتقل من مكان تقترب منه ألسنة اللهب إلى مكان آخر تدفعنى إليه الجموع التى تزحف بصوت عال الإنجليز والخديو والجيش والشرطة وأشار بعضهم نحوى وهم يقولون «خونة!». معهم حق. ففى ذلك اليوم الذى احترقت فيه مدينتهم وفقدوا أبناءهم وآباءهم من كان يستطيع أن يفرز من خان ممن لم يخن؟ الخديو انتقل من قصر إلى قصر ليحتمى بالأسطول الذى يغزو بلده، ولاذ به كثير من كبراء البلد، والجيش انسحب بعد تدمير الطوابى دون أن يشرح لهم سبب خروجه من المدينة، والشرطة تركتهم دون حماية ممن يحرقون وينهبون. طُويت وسط نيران الحرائق والفوضى الصفحة التى سطرتها شجاعة جنود الطوابى ومن حارب معهم من أهل المدينة. فكيف كان لى أن أقول لهؤلاء المهاجرين الذين يسبوننى أننى أنا، بالذات، لم أخن؟

ولا تبقى فى ذهنى غير صور مبعثرة من هذين اليومين. أرانى وسط الآلاف الذين يسدون الشوارع وعربات (الكارو) المحملة بالناس والأمتعة والمتوقفة وسط هذا السد من البشر والكل يتشاجر مع الكل، وأرى غيمة الغبار والدخان المعلقة فوق الرءوس والتى نشرت الظلمة فى عز النهار، وأشترك مع سرية من الجيش تقبض على لصوص ينهبون المتاجر المهجورة وتعدمهم فى الحال، وأرى طوابير من الجنود متجهة نحو باب رشيد للخروج من المدينة، لكنى لا أذكر هل نمت ولا أين نمت ولا ما الذى فعلته بالضبط فى هذين اليومين. ذهبت بالطبع إلى المستشفى ليغيروا ضمادات الجرح الذى كان ألمه يشتد ولكى أطمئن على طلعت. أصابته رصاصات فى بطنه وساقيه لكن حياته لم تكن فى خطر (ليتها كانت! ليته مات فى لحظة صدقه! وليتنى رحلت معه!).

ورأيت رئيسى الإيطالى حين ذهبت إلى القسم. أشار باشمئزاز إلى قذارة زيى الرسمى. لم يخرج هو أبدًا من المكتب أثناء ضرب المدينة، وكانت شارات رتبته تلمع على كتفيه وزيه الرسمى النظيف محكم على جسده الممتلىء. وأذكره وهو يسلمنى تلك الورقة الصغيرة المزدحمة بالأختام التى تلغى أمر انتدابى لأعود فورًا إلى عملى فى المحروسة دون أن يشرح السبب. لكننى اكتشفت فى القاهرة أنه أرسل برقية يتهمنى فيها بالتقصير فى أداء واجبى وأننى تغيبت عن عملى يومين متتاليين وهو يشك أننى عاونت خلال هذه الفترة العصاة الذين نشروا الفتنة فى الإسكندرية ويطلب التحقيق معى.

لم يستغرق التحقيق الذى أجراه معى اليوزباشى سعيد أفندى وقتًا. كان الحال فى القاهرة يختلف تمامًا عما تركته ورائى فى الإسكندرية. فالعصاة هناك هم الأبطال فى القاهرة المحروسة.. كلفهم مجلس تكوّن من كل طوائف أهل مصر بالدفاع عن البلد ضد الغزاة.

قلت فى التحقيق كل ما فعلته منذ بدء ضرب الطوابى، وذكرت بالذات ما سمعته من الأعرابى عن تعليمات المحافظ عمر باشا لطفى يوم المذبحة وأثناء ضرب الأسطول للمدينة، وسجّلت ما حدث منذ إطلاق النار علينا وحتى تسليم العربان المقبوض عليهم فى قسم اللبان. ولم تكن برقية المأمور الإيطالى قد أشارت بكلمة إلى هؤلاء العربان ولا إلى إطلاق النار علينا وإصابتنا. واستشهدت على كل ما حدث بالملازم طلعت الذى كان علاجه مستمرًا فى الإسكندرية.

سجل اليوزباشى سعيد أقوالى وأمر بحفظ التحقيق وعودتى للعمل. كنا، كلانا، مشغولين مع الشرطة فى حفظ الأمن بالقاهرة فى فترة الحرب. أهملت حتى علاج الجرح الغائر فى كتفى فتأخر التئامه

وشفاؤه. كنت أتابع مع الناس بفخر وحماس ما يحدث فى القتال فى كفر الدوار. صمود جيشنا وعجز الإنجليز عن كسر التحصينات هناك وانسحابهم أمام هجمات جنودنا.

لكن باب التحقيق فُتح معى من جديد بعد شهرين وكان كل شىء قد تغير.

أسأل نفسى طول الوقت عن الخيانة. سألت نفسى كثيرًا: لماذا خان الباشوات والكبار الذين يملكون كل شىء؟ ولماذا يدفع الصغار دائمًا الثمن - يموتون فى الحرب ويُسجنون فى الهزيمة بينما يظل الكبار أحرارًا وكبارًا؟ وسألت نفسى: ولماذا يخون الصغار أيضًا؟ لماذا خان الضابط يوسف خنفس جيش بلده فى التل الكبير وقاد الإنجليز ليغدروا به ويفتكوا به ليلاً؟ كيف كان يفكر وهو يرى مدافع الإنجليز تحصد إخوانه ورفاق سلاحه الذين كان يأكل معهم وينام معهم ويضحك معهم؟ وهل وقعت عيناه على زميله الضابط محمد عبيد وهو رابض على مدفعه وسط الفوضى والهزيمة يطلق النار على الإنجليز حتى صهرته حرارة مدفعه كما سمعنا؟ كم أحببته وكم أحبه الناس! لم يصدقوا أنه مات. يقولون إنه غاب فقط. يسمونه الشيخ عبيد ويقولون إنه شوهد مرة فى الشام ومرة فى الصعيد. ينتظرون رجعته ليواصل الحرب ضد الإنجليز! لكنه يظل حلمًا، أما يوسف خنفس فهو الحقيقة الباقية. لماذا يرحل عبيد فى عنفوانه مثل طير يمرق فى السماء بسرعة ويعيش خنفس دهرًا كأنه لن يموت أبدًا؟ لماذا خان؟ لماذا نخون؟ ويقول الدليل إن الصحراء تغدر لمجرد عاصفة أتت فى غير أوانها! تعال أحدثك أنا كيف يكون الغدر!

* * *

٤ ـ كاثرين

يغوص محمود داخل نفسه، أراه يغوص أكثر فأكثر، يركب الآن فوق جمله مطرق الرأس كالنائم دون أن ينظر حوله إلى شيء. توقعت أن تخرجه هذه الصحراء قليلاً من قوقعته، أن يرى كم تختلف عن أى مكان رأيناه معًا فى مصر، لكنه يسألنى فى دهشة ما الذى يعجبك فيها؟ كيف لا يرى؟ قرأت كل شىء عن هذه الصحراء وعن سيوة من قبل أن نبدأ الرحلة ـ كل ما جلبته معى من أيرلندا من كتب الرحالة والمؤرخين وكل ما استطعت أن أجده فى مكتبات القاهرة. اعتقدت أنى لن أكتشف جديدًا ولن يدهشنى شىء. درست كل المكتوب عن الطريق وعن الآبار والكثبان والعواصف، لكن الكتب لم تحدثنى عن الصحراء الحقيقية. لم أعرف منها كيف تتغير الألوان فوق بحر الرمال عبر ساعات النهار، ولا وجدت فيها كلمة عن تحرك الظلال وهى ترسم سقفًا رماديًا نحيلاً على قمة تل أصفر أو تفتح بوابة داكنة فى وسطه، ولم تعلمنى كيف تنعكس السحب العالية الصغيرة فوق الكثبان أسرابًا مسرعة من طيور رمادية، ولم تتحدث عن الفجر، بالذات الفجر، وهو يتحول من خيط رقيق أبيض فى الأفق إلى شفق أحمر يزيح الظلمة ببطء إلى أن يتوهج الرمل بحرًا ذهبيًا مع أول شعاع للشمس وساعتها

تنفذ إلى أنفى رائحة لم أعرفها فى حياتى أبدًا من اختلاط ندى الفجر بالشمس بالرمل. رائحة شهوانية لا تنفذ إلى أنفى وحده بل تتفتح لها مسام جسمى كله فأكاد لولا الخجل، لولا أصوات رجال القافلة الذين استيقظوا خارج الخيمة، أن أمسك بيد محمود وأقول تعال هنا بسرعة! فوق هذا الرمل المبتل!

وأسأل نفسى بدهشة: كيف لا يشعر هو بما أشعر به؟ لم لا يحتضننى أو يقبلنى على الأقل؟

فى كل لحظة تحمل لى هذه الصحراء جديدًا، ولكن «محمود» هو الذى يفاجئنى. يقول إن الصحراء تنتشر داخل نفسه. ليت هذا كان صحيحًا! ما أغناها هذه الصحراء! لكنى لم ألاحظ أيضًا قبل ذلك أن الطبيعة خارج الصحراء تستهويه. لم يتوقف أبدًا أمام أشجار أو زهور. لم يقل مرة إن البحر يفتنه أو النهر. وعند زيارة الآثار يستبد به الملل بعد خمس دقائق، لا يتأمل عمارة بناء ولا لوحة على جدار.

لا أريد أن أقول إنى أذكى منه أو أنى أرى ما يعجز هو عن رؤيته. ربما أنا التى أعجز عن فهم ما يهتم به لكنى حاولت، أحاول، فهذا هو الرجل الذى أعشقه. شجعته على قبول المهمة على أمل أن تغيره الرحلة الطويلة وأن يبعث الخطر روحه الهامدة. لكنى لن أكون صادقة تمامًا لو قلت هذا. فأنا أيضًا أقطع هذه الصحراء، لكى أنفذ مهمة! ولكن فلننتظر الآن، لم يحن الوقت بعد حتى للتفكير فى ذلك وأنت الآن يا محمود مهمتى، أنت شغلى الحقيقى. ما الذى يجعلك تنبهر إلى هذا الحدّ بخاطر الموت فى العاصفة بدل أن يدفعك للتشبث بالحياة مثل إبراهيم ومثل كل الناس؟ وهل غيرت رأيك فجأة لكى ترضينى أم أن هذا جزء من تقلباتك التى لا أفهمها؟ وفى وسط هذه التقلبات أين

أجد «محمود» الحقيقى؟ سأكتشفك مهما طال الوقت. وربما معك أيضًا سأكتشف كاثرين حقيقة أجهلها، من يدرى؟

تشق القافلة طريقها نحو الغرب فى الصحراء فتقترب من الواحة يومًا بعد يوم. أشتاق حقًا إلى الوصول إليها. كل شىء فيها كالأساطير. المكان والناس والتاريخ والجغرافيا. هى كما قرأت جزء قديم من البحر وما زالت هناك حتى الآن فى رمالها وتلالها أصداف البحر وقواقعه. سكانها ينتمون للغرب لا للشرق، إلى قبيلة زناتة من قبائل البربر فى المغرب ويتكلمون لهجة من لغة البربر. لكنها فى الزمن القديم كانت جزءاً من مصر الفراعنة ومركزًا لعبادة إلههم الأكبر آمون. وهناك أسطورة الأربعين شخصًا الذين هجروا قرية أغورمى المليئة بآثار القدامى ليبنوا فى الغرب منها وسط الصحراء الفسيحة مدينتهم الحالية ويحيطوها بالأسوار.

أشتاق بالفعل إلى رؤية ذلك كله وفهمه ولابد أن الواحة تبادلنى شوقًا بشوق! لا أظن أن أحدًا مثلى قد أتاها. كل من جاءونا قبلى اكتفوا بوصف آثارها من الخارج، وبعضهم رسموها، ولكن من منهم كان يستطيع قراءة لغة المصريين القدامى أو لغة اليونان؟ حتى الذين نقلوا النقوش من على المعابد أخطأوا أخطاء فاحشة لأنهم نقلوا الهيروغليفية باعتبارها مجرد رسوم. استطعت بمجرد النظر إليها أن أدرك الأخطاء. أنا الوحيدة القادرة على كشف أسرارك أيتها الواحة.

قليل من التواضع يا كاثرين!

لماذا؟ أليست هذه حقيقة؟ مع ذلك فلأسكت حتى لا يصيبنى الكِبْرُ الذى رأى اليونان أنه أصل كل المآسى فى الحياة. إذن فلأتواضع. لا أحتاج إلى مآس جديدة. يكفى أن أفتح عينى على جلال هذه الصحراء.

اختفت الآن التلال والهضاب وأصبحنا نتحرك وسط رمل ناعم بامتداد الأفق، لا يبين من وسطه شيء غير التماعات السراب الزرقاء، ولكن تفاجئنا ونحن نعبر تلك المساحات المنبسطة من الرمل الأصفر بحيرات شاسعة من رمال بيضاء أو كثبان مستديرة مثل قباب صغيرة أو نهود فى صدر الصحراء. وشعرت بأن حركة الجمال تسرع فوق هذه الرمال الناعمة وأن الأرض تنحدر تحت أخفافها فتتقدم الجمال بخفة ونشاط كأنها تنزلق فوق الرمل، هل تخفق قلوبها كما يخفق قلبى مع اهتزاز الهبوط؟ أدركت أننا دخلنا أخيراً فى المنخفض الكبير المُفضى إلى الواحة الذى كان قبل قرون وقرون جزءاً من البحر الأزرق الكبير. لم تصادفنا منذ ثلاثة أيام أية خضرة فى الطريق، ولا حتى تلك الصبارات الصغيرة التى تتحدى الجفاف وتسقى نفسها من قطرات الندى. لا أثر لأية حياة. قال الدليل عند آخر بئر مررنا بها أن نأخذ كفايتنا من المياه لأننا لن نصادف بئراً أخرى حتى نصل إلى الواحة.

وفى الصباح الموعود سمعت فى القافلة صياح تهليل وهتافًا مفاجئًا من البدو والتجار. أخيراً من بعيد، بعيد جداً، تنشق الرمال عن قمم نخيل فيلوّحون جميعًا فى حماس وألوّح معهم للحياة التى ولدت فجأة من المُوات وتركض الجمال المنهكة مشاركة فى الصباح ومدركة أنها قد بلغت أخيراً نهاية السعى.

يستقبلنا حين نصل رجال قرية صغيرة على مشارف الواحة فى ساحة مكشوفة تحيطها الأسوار. أنتبه إلى أنهم لا يلبسون ثياب البدو الفضفاضة ولا جلابيب الفلاحين السابغة، لكن جلابيبهم بيضاء قصيرة كقمصان واسعة وأسفل منها سراويل طويلة ومعظمهم حفاة. طافوا بنا يقدمون فى سلال من الخوص التمر المسكر واللوز ثم سقونا بعد ذلك لبنًا فى أوان من الفخار.

كان محمود يقف إلى جوارى ومن حوله جنوده. ولاحظت أن الأهالى الذين يتبادلون الحديث والضحكات مع البدو والتجار تبرز من عيونهم نظرة عداء حين يقتربون منا، يجتهدون لإخفائها بإسبال جفونهم وإسراع خطوهم لينتهوا منا بسرعة ثم يبتعدون وهم يهمهمون فى غضب. وقال لنا الشاويش إبراهيم محرجًا إنهم فى دهشة وحيرة لأنهم يرون لأول مرة فى الواحة امرأة سافرة الوجه تلبس مثل الرجال. ابتسمت فى وجوههم ورفعت يدى بتحية، لكنهم كانوا يتجمعون بعيداً عنى فى دوائر صغيرة وهم يختلسون النظر نحوى ويهمسون إلى بدو القافلة الذين ظلوا يتجنبوننى أيضًا طول الطريق. كانوا يسألونهم عنى فى أغلب الظن ولاحظت أن قليلاً من أهل الواحة يتكلمون العربية مع البدو ولكنهم فيما بينهم يتحدثون بصوت عال لغتهم التى لانفهمها. ظلوا يدمدمون وهم يهزون رءوسهم وينقلون أنظارهم منى إلى محمود. وانتبه إلى ذلك فظل يلازمنى ممسكًا بذراعى طوال الوقت وبصحبته الجنود. أما أنا فلم أهتم.

أخذت أتحرك من مكان إلى مكان فى الساحة المزدحمة يلازمنى حرس لا مهرب منه وأنا أستفهم من إبراهيم عما يدور بين التجار ورجال القرية الذين تجمعوا حولهم. سألته: لماذا يكتفى التجار بتقديم زجاجات العطور وعقود الخرز ولا يبيعون شيئًا آخر من بضائعهم؟ فهمس لى بأنهم يرجئون عملهم الحقيقى لحين وصولهم إلى سوق البلدة الكبيرة ومقابلة تجارها. لكنهم قد يبيعون هنا أيضًا بعض الملابس للرجال والنساء، فتلك عادتهم من قديم الزمان، لا يلبسون إلاّ الثياب التى يصنعونها من أجلهم فى كرداسة وتحملها إليهم القوافل.

حل المساء وتقرر أن نقضى الليلة فى القرية لكى ترتاح الجمال

المجهدة التى ساقوها لترتوى من نبع قريب، وأمر محمود بأن ينصبوا الخيمة إياها فى هذه الساحة المحاطة بالأسوار.

سألت محمود: هل لاحظت أننا لم نر أى نساء من سكان هذه القرية؟ حتى الأطفال كانوا صبية فقط؟

ابتسم محمود: ذهنى غير مشغول الآن بالنساء.

ثم اكتسى وجهه بالجد وهو يقول: يجب أن نفكر الآن في العمل.

نادى إبراهيم وقال له: اسأل هل يوجد أى من الأجواد فى هذه القرية يمكن أن أتكلم معه.

فضحك إبراهيم وهو يقول: أى قرية يا سعادة المأمور؟ لا توجد هنا أى قرية.

سألته متحيرة - وهؤلاء الرجال الذين استقبلونا إذن، أين يسكنون؟

- هؤلاء يا هانم، فلاحون، زجالة، يعملون وينامون فى البساتين القريبة، التى تحيطها الأسوار. الأجواد والكبار الذين يملكون البساتين يسكنون فى البلدة الكبيرة التى سنقصدها فى الصباح وسنراهم هناك، لابدّ أنهم أرسلوا الآن أحد الزجالة ليبلغوهم عن وصول القافلة وعن وصول سعادة المأمور بالذات.

قال محمود: لم يخطىء الأميرالاى سعيد بك حين قال لى إنك تعرف الكثير عن أهل هذه الواحة.

- لا أحد يعرف عنهم الكثير يا سعادة المأمور. جئتها كما قلت لك فى حملة للجيش قبل عشرين سنة وبقيت فترة لم أر فيها غير الحرب والضرب..

قال محمود وهو يبتسم: فلماذا تعود إليها إذن مرة أخرى؟

ـ قلت لسعادتك أيضًا، من أجل الصغار.

كان إبراهيم عجوزًا بالفعل، وجهه يدل على أنه تجاوز الستين وإن كانت نحافته وخفة حركته توحيان بأنه أصغر سنًا، فما معنى «الصغار»؟

تدخلت فى الحديث وقلت: ولكن أولادك لابد أن يكونوا كبارًا الآن يا إبراهيم. تفادى الردّ علىّ مباشرةً وقال بعد سكتة: هم أحفادى يا هانم.

شعرت أن هناك شيئًا فى الأمر فتوقفت عن الكلام لكن «محمود» هو الذى سأل ببساطة: وأين آباؤهم؟

فرفع رأسه وقال بلهجته القروية: عجبت للزمن.. ثم سكت من جديد..

سكت محمود أيضًا لكن إبراهيم أكمل ببساطة: كما ترى سعادتك هو يختار كما يشاء. ذهب أولادى فى عز الشباب. تمنيت لو أنى فديت واحدًا منهم عندما هجمت (فرّيرة) الكوليرا على بلدتنا، لكنها حكمة المولى. تركوا لى قبيلة من الأحفاد تفادتهم الكوليرا أيضًا كما تفادتنى. ربما من أجلهم كتب الله لى هذا العمر. ومن أجلهم ساعدنى الأميرالاى سعيد بك ـ الله يستره ـ على أن أعمل معك هنا لكى أدخر لهم قرشين. ثم حاول إبراهيم أن يبتسم وهو يقول: كما ترى، نجوت من الكوليرا، ومن حرب الواحة ومن حرب الإنجليز التى يسمونها (الهوجة)، وها أنا أمام سعادتك كالحصان.

قال محمود: ربنا يعطيك طول العمر يا إبراهيم.

فردّ بضحكة صغيرة: «ثانى؟!» كل ما أطلبه من الله أن يعيدنى مرة أخرى سالمًا إلى بلدى. ثم غير الموضوع فجأة وهو يضحك: هل تعرفان؟ طلب البدو من الزجالة أن يحيوا لنا الليلة حفلة طبل. ستريان ما لم ترياه من قبل! . . بعد إذن سعادتكم أنصب الخيمة.

وحين انصرف، قال محمود بشىء من الدهشة: يقبل الحياة كما هى!

فقلت: وهل هناك حل آخر يا محمود؟

ـ لا وقت عندى الآن حتى للتفكير فى هذا. الأجواد يستعدون لى ويجب علىّ أنا أيضًا أن أستعد لهم. ثم انصرف عنى وهو يقول انتظر لحظة يا إبراهيم.

لا أحد يتعلم من أحد!

لكن ليلة الطبل كما أسماها إبراهيم علمتنى أنا شيئًا.

حضرت القافلة كلها الغناء الذى دار فى الساحة الرملية المكشوفة نفسها تحت سماء سوداء وقمر كبير يبدو الناس فى نوره كظلال متحركة. بدأ إنشاد الزجالة الجالسين فى دائرة على الأرض تحيط بهم مشاعل عالية قليلة وسط حماس وتهليل من البدو الذين أعتقد أنهم كانوا مثلى لا يفهمون أيًا من كلمات الأغانى وإنما يأسرهم كما يأسرنى ذلك الإنشاد الذى بدأ بنعومة قريبة من همس أنثوى ممطوط الآهات وانتقل دون فاصل إلى خشونة صارخة على إيقاع طبل سريع كدوى الرصاص ومزامير بدائية تطلق هى أيضًا أنّات وصرخات، قبل أن ينهض المغنون وينضم إليهم بقية الرجال لتصفق عشرات الأيدى على الإيقاع السريع وتعلو الآهات المنغمة فتبدو آتية من كل مكان فى الفضاء، وذلك أيضًا قبل أن يكوِّن المنشدون دائرة يمسك فيها كل منهم

بوسط زميله ويدورون فى حلقة تتدافع وتتطوح فيها الأجساد الراقصة على وقع الغناء الشبقى الذى يتصاعد إلى هدير صاخب. وشعرت بقلبى يدق بسرعة كأنه سينفجر مع تلك الإيقاعات المدوية فاختلست نظرة حولى، ووجدت «محمود» نفسه منجذبًا إلى هذه الدوامة مثل البدو الصامتين فاغرى الأفواه.

وفى تلك الليلة، فى الخيمة، ضاجعنى محمود أو ضاجعته أنا بحرارة ولهفة، نشبع جسدين من مجاعة طالت، حريصين مع ذلك ألا نصدر أى صوت، لكن الأصوات التى نكتمها تزيد من توتر الجسدين واندفاعنا مشدودين ليغوص كل منا فى جلد الآخر ينشد الخلاص ولنغوص معًا فى مهد الرمل الناعم.

بداية لا بأس بها فى الواحة!

* * *

مع مطلع الشمس عادت القافلة تكمل طريقها إلى البلدة الكبيرة. كانت الجمال التى مجّت مياه الآبار المالحة فى الصحراء قد ارتوت من مياه عذبة، فبدت منتعشة وراضية وكنت أنا منتعشة مفتحة العينين لكل جديد يصادفنا. ما زالت هى الرمال فى معظم الطريق وتلال أو جبال صغيرة بنية اللون بعيدة جهة اليمين، لكننا نمر بين حين وآخر بآبار وبحيرات تتفرع منها قنوات تمتد إلى الأراضى المزروعة المحاطة بالأسوار والتى لا يبين من ورائها سوى سعف النخيل العالى يحتضن سباطات بعضها ما زال بلحها أخضر، لكنى أشم أيضًا رائحة التين النفاذة وفواكه أخرى، وأنتبه إلى تلك الأغانى التى لا تنقطع من وراء الأسوار.

أدرك أنها أناشيد العمل للزجالة التى سمعت عنها، أغان لكل نوع من الزرع والحصاد، كلما توقف منشد عن الغناء، سمعت آخر يكمل الأغنية من الحديقة نفسها أو من وراء أسوار أخرى. وكان تواتر الغناء بامتداد الطريق يكمل سحر أمسية الليلة التى انقضت. لكنى تذكرت أيضًا أنه فى تنافس عشيرتى الواحة على حق الانفراد بتلك الأغانى، قامت بينهم من قبل معارك. فهل وصلوا إلى حل يجعل الأغانى مشاعة للجميع؟

ومررنا فى طريقنا ببحيرة واسعة تلمع وسط الرمل بزرقة السماء تترجرج فيها أمواج صغيرة، لابد أنها بحيرة مالحة.

ولا تستغرق القافلة فى الطريق أكثر من ساعتين قبل أن نصل إلى قلب الواحة.

لم نصادف فى الطريق شيئًا من المبانى غير أسوار البساتين التى لا يرى ما بداخلها أحد، ولفت نظرى منذ دخلنا الواحة كثرة النخيل قرب عيون الماء، بل ورأيت نخيلاً غائصًا فى البحيرات لا تطفو سوى قممه، ولكن الآن، فجأة، بعد أن ارتقينا ربوة، اخضر الأفق كله أمام عينى، غابة لا يحدها البصر من سعف متشابك فى الفضاء. بحر أخضر داكن كثيف ومتموج تنهض فوقه البلدة مثل جزيرة بأسوارها الرمادية ومساكنها الصفراء المبنية فوق هضبة هرمية.

حاذانى محمود بجمله ووقف يتطلع مثلى إلى البلدة فى صمت، فقلت له مأخوذة بما تراه عينى دون أن أحول بصرى: لم أر فى حياتى مثل هذا المنظر، بركان رمادى يبرز من موج أخضر.

قال محمود: أو هرم مدرج لم يفكر أحد من الأسلاف أن يبنى مثله. هرم قاعدته مستديرة.

معه حق، فالبيوت الصفراء الرمادية المتلاصقة تتدرج متناقصة حتى أعلى التل فلا يبين من بعدها شىء غير زرقة السماء.

لم أرفع عينى عن البلدة عندما عادت القافلة تتحرك نحوها وفاجأنى محمود حين كرر: نعم، هرم كبير يا كاثرين- وفيم كان أسلافنا يستخدمون الأهرام؟

* * *

٥ـ الشيخ يحيى

أحب بكرة الصباح. تصحو روحى كل يوم فى هذه الرحلة التى تسبق الشروق متوجهًا من بيتى فى أغورمى إلى مجلس الأجواد. لم تعد عينى الكليلة قادرة على تمييز الصور. كنت مولعًا من قبل بأن أتابع انسحاب الظلام وانبلاج صور الأشياء فى النور الأزرق الوانى كأنما هى النقلة إلى الخلق من العدم. يرتجف قلبى حين تبين مع الأشعة البازغة خضرة الأشجار فى البساتين وحين تلمع مرايا كثيرة فى ماء النبع وتطفو من الظلمة الجبال والتلال. الآن أرى ذلك بقلبى أكثر مما أراه بعينى. حتى هذه النظارة التى عاشت معى زمنًا لم تعد تظهر غير ظلال وأشباح. يعذبنى أن أثبت حول أذنى هذه الدوبارة التى حلت محل ذراعها المكسورة ولكن أنفى مازال يعوضنى، يشم رائحة الندى فى الرمل والزرع ويميّز رائحة السعف، يعرف أنواع البلح فى النخيل الذى نمر به فى الطريق، يفرز رائحة الصبار الأخضر من الجاف، ويشم رائحة الماء الصافى فى النبع ويفرق بينه وبين الماء المختلط بطين الأرض فى القنوات.

لكن أنفى يشم قبل كل شىء فى هذا الصباح رائحة الحرب. فليكذِّب الله ظنى.. ألم تشبع هذه الأرض بعد من الدم؟

أسير فى الطريق وحمارى ورائى لا ينهق ولا يكاد يصدر صوتًا. مازال يغالب النعاس ويعديه الصمت المحيط بنا فى الطريق.

يعيدنى أنا ذلك الصمت إلى سنواتى البعيدة فى الصحراء عندما هجرت كل شىء ورائى مغاضبًا قومى دون أن أعرف لنفسى هدفًا ولا مستقرًا. كم شهرًا بقيت فى الفلاة أو كم سنة؟ كثيرًا ما أجهدت ذهنى لأحصى تلك الشهور أو السنين فلم أفز بشىء. كما لو كان كل ذلك الهيام فى الصحراء يومًا واحدًا من عناء لا ينقطع بحثًا عن الطعام والماء وبحثًا عن المأوى، هروبًا من الشمس ومن الوحش ومن البرد. ما الذى تعلمته من ذلك اليوم بلا نهاية؟ لا أدرى.

مازلت أصر على أن أقطع المشوار إلى شالى مشيًا لكنى مطمئن إلى أن حمارى يتبعنى لأركبه حين ترتعش ساقى وتكل قدمى. أصبحت عجوزًا يا يحيى ولكنك لم تفقد بعد غضبك. ما زالوا يحملون لهذا الغضب همًا فى مجلس الأجواد مع أنك لا تملك لهم ضرًا ولا نفعًا. لم تكن كلمتك مسموعة من قبل ولا هى مسموعة اليوم، فما جدوى الغضب؟ سأتمالك اليوم نفسى.

تحيرنى الدعوة التى أرسلها الشيخ صابر بالأمس بأن يكون اجتماع الأجواد اليوم فى بيته بدلاً من مجلسنا اليومى فى السقيفة عند مدخل شالى. أنا لا أشك فى صابر لكونه كبير عشيرة الشرقيين. يعلم الله أنى لا أفرّق بين غربى وشرقى، وكلهم يعرفون حكايتى. كان من حقى أن أرأس مجلس الأجواد لأنى أكبرهم سنًا لكنى تنازلت راضيًا وإن أغضب هذا قومى من الغربيين. فليهنأ صابر بالرئاسة لكنى آخذ حذرى منه.

لماذا يجمعنا فى بيته، أهو مجلس حرب؟ لا أرتاح له أبدًا. لا يصل إلى مقصده صراحة، بل يظل يلف ويدور، لا يقول لى يا يحيى أنا أعلم منك، ولكنه يفخر دائمًا بأنه تعلم فى جامع الزيتونة فى تونس، ويكرر أنه كان هناك يفهمهم ويفهمونه لأنهم يتكلمون لغتنا. يريد أن يقول إنهم ليسوا كالمصريين الذين يجهلون لغتنا والذين تعلمت أنا عندهم عندما جاورت سنين قليلة من عمرى فى مسجد إبراهيم ومسجد أبى العباس فى الإسكندرية. ينظر لى وهو يتكلم كأنى أنا المسئول عن جهل المصريين بلغة سيوة، فأبتسم فى سرى. أودّ أن أقول له أنهنا من هذه الحكاية يا صابر! صدّعت رءوسنا بحكاية تونس والزيتونة! أنت عالم وأنا جاهل هل ارتحت؟ ولعلى أكون قد قلت له هذا بالفعل. لا أذكر.

لكن أظن أنى ناقشته فى مسألة النبوءات. يحفظ كتابًا يضم نبوءات لا أعلم من أين أتى به يكررها كلما ضمنا مجلس. يتلو هذه النبوءات وكأنه يرتلها ترتيلاً: مكتوب أيتها الأرض أن يأتى عليك وقت تكونين فيه أرملة منكسة الرأس تحثو فوق رأسها التراب. مكتوب أنه سيمشى فى طرقاتك الغرباء فى زهو ويمشى أهلك مطرقين رءوسهم، مكتوب أنه سيعلو صوت السفهاء ويتكلم الحكيم فى كمّه. يقلب بصره بين سامعيه بعد هذه النبوءات الكئيبة. ويقول كأنما فى تشفّ: اقتربت ساعة النبوءة والحساب.. لم لا، وأنتم تشربون الخمر جهاراً، وتأتون الفواحش ما ظهر منها وما بطن وتقتلون أنفسكم بأيديكم؟ لم لا يحق عليكم العذاب؟

حين أسمعه يقول ذلك أزجره وأنا أصرخ داعيًا أن تسبق رحمة ربنا بنا غضبه علينا، وأن يرحمنا قبل كل شىء من نعيق الغربان. وبصعوبة

أردّ نفسى عن أن أسأله : أتلك هى كل المعاصى يا شيخ؟ أليس تمنى الخراب هو أيضًا معصية من المعاصى؟ وأنت، ألا يتملكك الكبر وتسكن نفسك الكراهية؟ تكرهنا معشر الغربيين وتخفى كراهيتك وراء نبوءاتك المزعومة كأنك تتمنى لو تنزل مصائبها بنا نحن اليوم قبل الغد. ولماذا يا شيخ صابر تخفى ما بنفسك ولا تبديه؟ احترس يا يحيى. ها أنت تفكر مثلهم. تنظر بعين الغربيين مهما حاولت.

مع ذلك فأنا لا أذكر هذه النبوءات الكئيبة إلا وأبتسم حين أذكر (مليكة). كانت صغيرة. ربما فى الرابعة من عمرها، بالكاد تعلمت الكلام لكنها تقلد الرجال والنساء فتضحك كل من يسمعها - إلا أمها! تسبل عينيها أو تفتحهما على سعتهما، تمط شفتيها أو تشفط خديها فتغير من ملامح وجهها الجميل وتحاول أيضًا أن تغيّر صوتها الطفولى ليطابق من تقلده. وكانت أختى خديجة تعتبر ما تفعله مليكة فضيحة، وتضربها بيديها وقدميها لتكف عن الكلام، فتجرى منها لتحتمى وراء ظهرى وهى تصيح : إنجدنى يا خالى. أزجر أختى بالفعل لكنى أحاول أيضًا إسكات مليكة دون فائدة، بالذات حين تقلد صابر. كانت تدير حدقتيها إلى طرفى عينيها وتكرر بصوت تحاول أن تجعله خشنًا نبوءات الشيخ الشنيعة التى لا تفهم معنى كلمة منها، فأضع يدى على فمها لكى لا تكرر أمام الأطفال والنساء ما لا يصح سماعه، لكنى لا أستطيع مع ذلك أن أمنع الضحك، فتعاتبنى خديجة لأنى أشجّع ابنتها على قلة الحياء كما تقول. ومن كان يستطيع أن يمنع مليكة؟ لا الضرب يصلح معها ولا الملاينة. لا وهى طفلة ولا وهى كبيرة.. حظك يا مليكة!

* * *

عندما وصلت إلى مجلس الأجواد فى بيت الشيخ صابر ورأيتهم متحلقين هناك شممت مرةأخرى رائحة الحرب وانقبض قلبى. رأيت واحداً من زجالتنا الغربيين يجلس مقرفصاً على الأرض بعيداً عن حلقة الشيوخ. لم يبلغنى أى من أجواد عشيرتنا أنه سيحضر، فهل له علاقة بهذا المجلس السرى؟ الزجالة هم أيضًا جند الأجواد فى ساحة القتال ولهم رأى فى الحرب والسلم. فليخيّب الله ظنى.

لا أحد يتكلم. طال الصمت وهم يجلسون فى دائرة على الحشايا يتجنب كل منهم النظر فى عينى أخيه. يهربون من الكلام بالتقاط البلح من السلال الموضوعة أمامهم والانهماك فى مضغه دهراً. ماذا ينتظرون؟

أخيراً تنحنح الشيخ صابر وقال: دعانى المأمور لمقابلته..

ارتفعت نحوه الأبصار فأكمل ببطء: وأبلغنى المأمور أنه بعث رسالة جديدة إلى القاهرة وينتظر الردّ فى القافلة المقبلة.

عاد إلى السكوت، فنفد صبرى وقلت: وبعدها يا شيخ صابر؟ ما الذى كتبه فى رسالته وما هو الردّ الذى ينتظره؟ لم لا تتكلم بسرعة وتخلصنّا؟

بعد لأى فهمنا من صابر أن المأمور أرسل يطلب مرة أخرى تخفيض الميرى وأن يكون خراج الواحة فى السنة حمولة ألف جمل من البلح بدلاً من ألفين، ومائتى جمل من زيت الزيتون بدلاً من خمسمائة كما طلب الإعفاء من الغرامة.

علا اللغط من أجواد الشرقيين والغربيين معًا. كنا قد اتفقنا على طلب تخفيض الميرى إلى حمولة خمسمائة للبلح ومائة للزيتون فلماذا لم يرسل المأمور ما اتفقنا عليه؟

قال صابر إن المأمور أبلغه أن الأوامر التى جاء بها هى زيادة الخراج لا إنقاصه وإنهم لو وافقوا فى القاهرة على طلبه فعلينا أن نحمد الله.

استمرت دمدمة الغضب من الأجواد وقال الشيخ عبدالماجد من أجواد الشرقيين: عن نفسى أن لن أسدد شيئًا وليفعلوا ما يشاءون.

ورد عليه شيخ آخر من الشرقيين لم أتبينه، قال بصوت خفيض بعد أن هدأ اللغط: فى كل مرة نقول هذا ونمنع الخراج ثم نسدده فى النهاية وفوقه الغرامات بعد أن تأتى الجيوش والمدافع.

حلّ الصمت من جديد فقال الشيخ صابر صدقت (ثم أكمل كالمغلوب على أمره) ونسيت أن أقول لكم أن المأمور أخبرنى إنه لن يتعامل فى جمع الخراج مع العائلات كما كان الحال، بل سيحاسبنى أنا ويعتبرنى مسئولاً عن محاسبة الأجواد عن أسرهم وجمع الخراج كله حسب ما يأمرون به فى القاهرة.

آه! لن يرضينا ذلك معشر الغربيين يا شيخ صابر حتى ولو لم ينطق أحد ولكن هنا ارتفع صوت الزجال الجالس فى طرف الحجرة وقال بصوت حاد:

لعنة الله على هذا المأمور وعلى اليوم الذى حل فيه بأرضنا. فلنتخلص منه ومن امرأته!

لكن الشيخ إدريس، من أجواد عشيرتى الغربيين، ارتفع صوته فى غضب قائلاً:

تحشم يا ولد يا مبروك . نحن دعوناك إلى مجلسنا لنسمع ما عندك ، لا لكى تشير على شيوخك ، فلا تنس مكانك .

انكمش مبروك فى مجلسه ، فسأله الشيخ صابر فى هدوء :

ولأى سبب نتخلص منه ومن امرأته؟

ردّ مبروك مندفعًا : هذه المرأة دخلت بيوتنا وكشفت عورات نسائنا . فى الجمعة الماضية صعدت إلى خرائب أغورمى وداست بيوت أهلنا هناك . . منذ متى يا شيخ صابر نسمح للكفار بتدنيس بيوتنا؟

تركتهم يتجادلون ورحت أفكر ، ما الجديد فى ذلك كله الذى يدعو الشيخ صابر إلى نقل مجلس الأجواد من السقيفة إلى بيته؟ ما من غريب يجرؤ على التطفل على مجلسنا عند مدخل البلدة . ثم إنه لو جاء المأمور بنفسه وانضم إلينا هناك لما فهم أى شىء مما يدور لأنه يجهل اللغة ، ولا جديد فى حديثه عن الخراج . كل الناس استوعبوا الدرس الذى قاله الشيخ - سننتهى بأن نسدد الخراج راضين أو مكرهين . سيرفض الغربيون بالطبع أن تكون الملتزم بجمع حصتهم وأنت تعرف ذلك مثلما أعرفه ، فلماذا قلته؟ سيبين الآن ما ترمى إليه .

انتبهت إليه يقول :

ولكنى سمعت يا شيخ إدريس أن المرأة لم تقصد بيوتنا بل كانت تريد أن ترى خرائب الملوك هناك ، فمرت فى طريقها على البيوت . هل اشتكت أى من نسائنا أنها تلصصت على خفايا البيوت وكشفت عوراتها كما تقول؟ أظن أنها لم تدخل أى بيت .

قال الشيخ إدريس : إن لم تكن قد كشفت عوراتها فى هذه المرة فستكشفها فى مرة أخرى يا شيخ صابر . هذه المرأة لا تهدأ ولا تستكين . علمت ، أنها ستذهب اليوم مع رجلها إلى خرائب أم عبيدة .

ردّ صابر :

الحمد لله أنه ليست هناك بيوت فى أم عبيدة تكشف عوراتها . .

ولكن مرة أخرى ارتفع صوت مبروك الزجال :

يا شيخ صابر ، هذه المرأة جاءت ومعها كتب الكفار الأجانب التى تعلم السحر لتكشف كنزنا المخبوء فى باطن الأرض ، وربما تفعل مثل من جاءوا قبلها فتخرج جثث المساخيط وتستخدمها فى السحر .

ابتسمت لنفسى ـ مرة أخرى ذلك الكنز؟ فتشتم عنه أنتم والأجداد وأجداد الأجداد ، ومن أجله حفرتم فى كل الخرائب التى خلّفها الملوك ونبشتم باطن الأرض وحفرتم الجبل ولم تيأسوا بعد؟ هبكم وجدتموه الآن فى التو ، فماذا أنتم فاعلون به؟

لكن صابر أدهشنى حين قال بلهجة رزينة : اعلم يا مبروك أننا لسنا نحن الذين نحرس الكنز وإنما هو الذى يحرسنا . كنزنا عليه رصد من قديم الزمان . منذ دفنه ملكنا (خورابيش) عليه رحمة الله وبيّت عليه الرصد المكين . لو اقتربت منه المرأة فسيهلكها كما أهلك كل من قبلها . لن يعود الكنز إلا لنا كما قالت النبوءات فى الموعد الذى لا يعلمه إلا الله ولكن بعد أن نتوب عن المعاصى . لا تشغل بالك بالكنز ولكن قل لى ، ما الذى جرى لنا يا مبروك عندما قتلنا المأمور الذى قبله؟

ردّ مبروك فى عناد : جاءنا هذا المأمور الملعون ومعه زوجته التى تدنس بيوتنا وتفتش عن كنزنا .

قال الشيخ صابر : أرأيت هذه المصيبة؟ لم يفدنا إذن قتل المأمور الذى قبله . وماذا عن الذين ماتوا بسبب غزوة جنود الجيش الذين جاء بهم ماهر بك؟ ماذا عن الذين أخذوهم معهم إلى مصر وشنقوهم هناك ، غير أبنائنا الذين ما زالوا هناك فى الحبوس؟

سكت الجميع ولكن صوت الشيخ إدريس ارتفع من جديد وهو يقول فى قهر:

يعنى يا شيخ صابر نسكت على هذا المأمور وامرأته ونرضى بالعار؟

مرة أخرى علت همهمة شيوخ الغربيين مؤيدة لإدريس ولكن صابر وجّه له سؤالاً كنت أنتظر سماعه منذ مدة:

هل رأيت أنت يا شيخ إدريس من المأمور محمود نفسه ما يستوجب أن نخلص منه؟ أنا لم أسمع أنه منذ جاء إلى الواحة قد نهب شيئا أو جلد أحداً على عادة من جاءونا قبله، بل إنه يدفع حتى إيجار الحمير التى يركبها هو وامرأته ويمشى فى الطرق وحده ـ لا يحيطه الحرس الذين اعتاد أسلافه أن يرهبونا بهم، على العكس، جنوده يحرسون البلد من لصوص البدو ويخرج هو على رأس الجند بحصانه فى الليل ليطاردهم فى الجبل.

بالرغم منى هتفت متحيراً: وهذا والله هو ما يخيفنى منه يا شيخ صابر! لماذا يفعل ذلك كله؟ هو لا يحبنا.

ضحك صابر ضحكته الخشنة وهو يقول: وأى مأمور جاء قبله كان يحبنا يا شيخ يحيى؟ كانوا يدفعوننا بأفعالهم إلى أن نقاتلهم، أما هذا فبأى ذنب نستحل دمه ونجلب على أنفسنا الخراب من جديد؟

قلت لنفسى: فى هذا معك حق يا شيخ صابر، ومع ذلك فهذا المأمور يخيفنى أكثر من سواه. أنا لا أبالى كثيراً بمن يجلدون ويشتمون ويرهبون الناس بالجند فى مواكبهم. هؤلاء مثلهم مثل مبروك. رأيتهم وخبرتهم فى كل الحروب. هم يشعلون النار ويكونون أول من يجرى عندما يشب الحريق، لكنى أخاف هذا المأمور الصامت الذى يمشى فى

طرقاتنا وحده. أعلم أن من لا يخاف على حياته لا تهمه حياة غيره. تلفحنى كراهيته كالنار فى صمته وتكوى أكثر من بذاءة غيره. ما الذى ينتظر بلدنا على يديه؟ وماذا عندك عنه فى نبوءاتك يا شيخ صابر؟

هل نطقت بالفعل بهذا السؤال أم أن صابر كان يرد على أحد غيرى؟ سمعته يقول:

أنا لم أجد شيئا عنه ولا عن امرأته فى النبوءات. قرأتها مرتين منذ حل بنا هو وزوجته فلم أجد لهما إشارة. أو لعل الإشارة موجودة لكنى لم أفهمها. ربما يكونان النذير بكل كوارث النبوءات. رحمتك يا رب.

تكلم الشيخ إدريس فقال بلهجة من تحيّر فى أمره:

إذن فهل سنسكت عن الرجل والمرأة يا شيخ صابر؟ إن كنا لا نستطيع أن نعيش فى بلدنا دون أن يدوس الأغراب والكفار على رءوسنا ويدنسوا بيوتنا فخير لنا أن نترك الديار ونهج فى الصحراء مثل البدو.

قال صابر وفى صوته رنة حزن: بالله عليك لا تتعجل الخروج إلى الصحراء يا شيخ إدريس. لو جاءنا الإنجليز الذين يحكمون مصر الآن وأعجبتهم بلدتنا فقد يأخذونها لأنفسهم ويرموننا بالفعل فى الصحراء. فعلوا ذلك فى بلاد أخرى.

هززت رأسى مؤمّنًا: معك حق يا شيخ صابر. فعلوا هذا فى بلاد الأمريكان وغيرها من بلاد الله.

كنت واثقًا أن بقية الأجواد لا يعرفون الأمريكان ولا الإنجليز ولا يدركون شيئًا مما يقوله صابر. وبالفعل قاطعنى أحدهم:

لكن من يأتون بلدنا جنود من المصريين لا من الإنجليز.

قلت: فلنحمد الله على ذلك. المصريون يأتون فيقتلون منا ونقتل منهم ولكنهم يتركوننا فى أرضنا..

فاستمر مخاطبًا الشيخ صابر: ولماذا يأتى هؤلاء الإنجليز إلى بلدنا؟ نحن لم نحاربهم ولا نعرفهم..

رد الشيخ صابر: لكن زوجة المأمور من الإنجليز. لو قتلناها فربما يأتينا جنودهم بدلاً من المصريين ليثأروا لها. يجدونها حجة كعادتهم ليأخذوا أرضنا وساعتها لن ينفعنا أحد.

لزم الأجواد الصمت لحظة يتدبرون ما قيل ثم تدافعوا مرة واحدة للكلام وتداخلت أسئلتهم، لكن صابر تجاوزهم جميعًا موجهًا حديثه بحسم إلى مبروك الذى ارتفع صوته محاولاً الكلام:

- يا مبروك! ارجع إلى إخوانك وقل لهم ألا يمسوا هذه المرأة أو زوجها بسوء. قل لهم إن شيوخكم الأجواد يفكرون ويتشاورون قبل أن يخطوا أى خطوة.

ثم التفت عنه وقال مخاطبًا الجمع: وعلى ذكر الشورى يا أجواد. ما رأيكم أن نبعث رسولاً إلى مولانا المهدى فى جغبوب نحكى له ما يحدث ونطلب رأيه؟

قلت لنفسى: هل أكون قد أخطأت فى حقك يا صابر؟ أنت فعلت اليوم كل ما تستطيع لتصرف الزجالة والأجواد عن فكرة القتل وعن الحرب، خوفتهم من عواقب لم يعرفوها من قبل حين حدثتهم عن الإنجليز، وزجرت الزجالة الذين يمكن أن يؤلبوا شيوخهم أو أن يؤلبهم الشيوخ على الفتنة. واشتريت رضا الغربيين الذين يثقون فى المهدى

السنوسى ويطيعون أمره واستطعت أن تهدئ من ثورة غضبهم لانتهاك امرأة المأمور لحرمة أغورمى. كسبت وقتًا إلى أن يأتى ردّ السنوسى من جغبوب، ولن يكون الردّ كعادته إلاّ نصحًا بالتزام الهدوء. فهل أخطأ ظنى حين تصورتك قد دعوت إلى مجلس حرب؟ الحمد لله أنه أخطأ هذه المرة.

كان مبروك قد غادر الجمع فاقتصرت الجلسة على الأجواد وبدأت ثرثرة أغلقت عنها أذنى ولكنى سمعت اسمى فجأة على لسان صابر وهو يقول:

لماذا تسكت يا شيخ يحيى؟ نحتاج رأيك، أليست هى ابنتك؟

قلت وقد باغتنى السؤال: عمن تتكلم يا شيخ صابر؟

- عن مليكة بالطبع. صحيح هى ابنتنا جميعًا شرقيين وغربيين، ولكن أنت خالها فمن يكون أقدر منك على أن يردّ لها عقلها؟

كنت أستجمع فكرى وأقاوم انفجار الغضب. إذن فلقد أدخلت مليكة يا صابر بسؤال عابر فى أتون الشرقيين والغربيين؟ لم تعد مجرد زوجة غاضبة من زوجها وإنما مشكلة للبلد كله؟

قلت وصوتى يكاد يختنق: مثلما قلت أنت هى ابنتكم جميعًا فانظروا ما ترون.

كان الانقسام قد بدأ بالفعل وراح شيوخ الشرقيين يرفعون أصواتهم شيئًا فشيئًا وأجواد الغربيين يبادلونهم الصراخ. وأرغمت نفسى على السكوت حتى لا تزيد النار اشتعالاً. صممت أذنى عنهم وهربت منهم إلى نفسى.

قلت إن هذا حظك يا مليكة! هى ابنتى نعم! أحبها أكثر من أى من بنات صلبى أو أى من حفيداتى، لكن مليكة التى لم أعرف فى بلدتنا مثل جمالها وذكائها زوّجتها أختى لمعبد العجوز الفانى الذى يصلح جداً لها. اسكت يا يحيى! كم واحدة تزوجت أنت فى حياتك وكنت تصلح جداً لها؟ ولكنى لم أكن معبداً! منذ سنين طويلة توقفت عن الزواج وطلقت من كنّ تحتى من النساء منذ عرفت أن أمرى معهن قد انتهى. لكن معبد اختار مليكة قبل أن تبلغ الخامسة عشرة. اختاروا المسكينة دون غيرها للتجربة. أمها مثل بقية قومى من الغربيين تؤمن بكل ما يقوله مولانا المهدى السنوسى. قال فليتزاوج الشرقيون والغربيون ليصبحوا عشيرة واحدة فتتوقف بينهم الحروب. ومن كل البنات اختار معبد الهالك مليكة اليتيمة ووافقت أمها عليه. حاولت ما استطعت لكن أختى ركبت رأسها. أعرف أن زواج العجوز من الصغيرة فى بلدنا لا يهم ما دام الزوج غنياً وقادراً، ولكنى أعرف مليكة أيضاً، وما انتظرته قد حدث. فرت مليكة من بيت زوجها فى شالى ورجعت إلى أمها فى أغورمى تطلب الطلاق، والآن أيضاً كل ما توقعت - معبد يرفض الطلاق ويطلب أن تعود مليكة إلى بيت زوجها. لم يحضر مجلس الأجواد لمرضه ولكن كل أجواد الشرقيين ينوبون عنه وهم أشدّ منه غضباً. لا تهمهم مليكة ولكن ما معنى أن ترفض غربية واحداً من مشايخ الشرقيين؟ إمّا أن تعود وإمّا. .

لكنى أعرف أن مليكة لن تعود، وأعرف أن فكرة المهدى لوقف الحروب لن تفيد. لن يتغير شىء لو تزوج كل الشرقيين من الغربيات أو العكس. . لن ينزع التزاوج تلك البذرة الكامنة فى النفوس. وها هو زواج غربية واحدة من شرقى ينذر بالشر، ولأسباب أقل من هذا النزاع بكثير قامت بينكم الحروب. لو أنى أعرف لهذا الحقد المميت سبباً! لو

أعرف ما الذى يستأصله؟ لكن ها هم يتشاورون. يتظاهرون بأنهم يتشاورون.

يقول الأجواد من الغربيين: تردّ المهر ويسرحها.

فيرد الشرقيون لا.. ترجع إلى بيت زوجها أولاً. إن شاء أن يطلقها برغبته فهو حر، لكن ترجع أولاً.

- يسرحها ونزوجه بدلاً منها أشرف بنات الغربيين.

يتدخل الشيخ صابر كأنه يريد أن يحل النزاع ولكنه يصب الزيت على النار. يقول بلهجة متعقلة: أو يسرحها ونزوجه بدلاً منها أشرف بنات الشرقيين إن كان قد زهد فى الغربيات أو زهدن فيه.

ترتفع همهمات الغضب من الغربيين والشرقيين معًا ويرتفع صوت واحد من الشرقيين محتداً:

زوجاته، غيرها، من أشرف بنات الشرقيين يا شيخ صابر. هو لا يريد زوجة جديدة بل يريد شرع الله. ألا يستطيعون أن يحكموا ابنتهم؟

يشعر أجواد الغربيين بالإهانة فينهض بعضهم ويلوحون بأيديهم مهددين فى اتجاه شيوخ الشرقيين وأنهض أنا أيضًا وأنفجر صارخًا مرة واحدة: الآن تذكرون شرع الله؟ لا شىء عندكم ولا عندنا أسهل من الطلاق. فى كل بيت من بيوت البلد مطلقة أو أكثر. هناك من طُلقن حتى قبل أن يعرف الزوج بالطلاق لأن أمه كرهت البنت فأبرمت هى الطلاق. فلماذا تتشبثون الآن بمليكة؟

قال صابر: اهدأ يا شيخ يحيى. نحن نتشاور وسنجد حلاً - إن شاء الله!

لكنى لم أكن أملك نفسى فأكملت وأنا أنهض بدورى:

ولو تشاورتم حتى الغد! لا أنتم ولا هم تريدون حلاً. أنتم تتلهفون على رفع البنادق من جديد لكى تحصدوا بعضكم بعضًا. كفاكم كذبًا. كَبرتم أيها الأجواد وشابت رءوسكم، ألم يعلمكم الشيب شيئًا؟

قال صابر وفى صوته رنة غضب: لو قالها غيرك يا شيخ يحيى! وأنت ألم يعلمك الشيب شيئًا من الصبر؟ من تكلم الآن عن رفع البنادق؟ الأجواد يتشاورون. كما قلت. .

- أعرف تشاوركم يا شيخ صابر. أعرفه من خمسين عامًا وأكثر. حياكم الله. .

- وإلى أين تذهب الآن يا شيخ؟ يا يحيى. . يا يحيى ابق معنا. .

- الحمد لله أنى لست معكم!

كنت أغمغم لنفسى وأنا أهبط الربوة من باب الحصن، إذن فلم يكذب ظنى. هو بالفعل مجلس حرب. ولكن لماذا يهادن صابر المصريين ويشجع الفتنة بين قومه؟ ستبدى الأيام! عفوًا يا مولانا السنوسى! فكرتك لا تصلح. لن توقف الحروب. فكرتى أنا وليسامحنى الله كانت أفضل. لو فعلوها قبل خمسين عامًا!

استغفر الله يا يحيى! لا تعد إلى تلك الذكرى.

شرعت أحل حمارى المربوط إلى جذع نخلة وأنا أدمدم، فجرى نحوى واحد من الصبية الذين يلعبون فى الساحة الرملية يسندنى لأركب. دفعته عنى برفق وأنا أقول: ما زال جدك قادرًا على أن يركب حماره وحده. استندت إلى البرذعة بكلتا يدىّ ووثبت فوق الحمار فتحرك من تلقاء نفسه متجهًا إلى الشرق نحو أغورمى. . يعرف

طريقه. ليتنى أستطيع أن أقول إن البشر يعرفون طريقهم. ليتنى أستطيع أن أقولها حتى عن نفسى!

مرة أخرى لم أستطع لك شيئًا يا مليكة. لم يستطع خالك أن يحميك طفلة ولا امرأة. صغيرة جدًا كانت وهى تشكو لى من أن الأولاد والبنات يغشون وهم يلعبون فى حديقتى وتجذبنى من يدى لأقضى بينها وبينهم. ينكر الأطفال أمامى أنهم غشوا فى اللعب ولكنها تستدرجهم وتكشف أكاذيبهم بكل سهولة. أسألها فى النهاية: ماذا تريدين يا مليكة؟ فتقول بمنتهى الجد، أريد أن تعاقب الغشاشين يا خالى. أتظاهر بأنى أزجرهم وأتركها لتلعب معهم، لكنهم فى النهاية سئموا منها ومنى وأبعدوها عن ألعابهم. وعندما كبرت قليلاً صارت تأتى إلى الحديقة لتقضى معظم وقتها معى. تصاحبنى وسط الأحواض حين أرويها أو أشذب زرعها وتسألنى لماذا تختلف النباتات التى أزرعها عما تراه فى الحدائق الأخرى من الخضروات؟ فأقول لها إن هذه النباتات أدوية وإن قليلين يزرعونها فى البلد.. تسألنى مبتسمة وهى تقلّب عينيها بين النباتات وهل من بينها دواء لى؟.. دواء لماذا يا مليكة؟.. دواء يشفى من الشيطنة! فأبتسم أنا - إلاّ دواؤك يا مليكة!.. لكن أمى تقول إن شيطانًا يركبنى، ومعها حق - لماذا أنا غير البنات؟

لم أقل لها إنها النعمة الوحيدة فى هذا البلد.

أو ربما هى غلطتها الوحيدة؟ لا أدرى..

فكر فى أى شىء آخر يا يحيى. لا تحير نفسك أكثر من حيرتها. الطريق طويل لم أقطع نصف المسافة بعد وقد بدأ العرق يغمرنى. شمس هذا الصباح الباكر حامية أكثر من وقدة الظهيرة. نزلت من فوق

الحمار عند نبع الجوية وتوجهت إليه. ظل الأشجار التى تحف به نعمة. خلعت نظارتى ونزلت بحرص الدرجات الحجرية إلى النبع ثم انحنيت على الماء أغترف منه بيدى واغتسل. من زمن بعيد لم أعد أرى وجهى فى هذا النبع الصافى كمرآة. لم أعد أرى سوى ظل على سطح الماء وأنا أنحنى فوقه. ماذا تريد يا يحيى؟ أصبحت عجوزًا جدًا. ضعف بصرك وضعف جسمك. لماذا إذن لم يضعف غضبى ولا حيرتى؟ لماذا ما زلت حتى الآن أسأل الأسئلة التى عذبتنى فى شبابى؟ اقتربت النهاية ولم أعرف طمأنينة القلب.

جلست تحت ظل نخلة إلى جوار العين ومليكة لا تفارقنى. لماذا وضعوها وسط الرحى التى تطحن الجميع بالحرب والخصام والنزاع؟ ولماذا الحرب؟ ولماذا كل الشقاء والتعب فى الأرض؟ يمكننى أن أفهم حتى نبوءات صابر التى تصب الهلاك على الناس جزاء لما يرتكبونه من المعاصى، ولكن ماذا عمن لا يرتكبونها؟ أى ذنب مثلاً جنته هذه الطفلة؟

عذبت أمك يا مليكة وعذبتك. عذبتها أولاً بجمالك الذى كسف كل جميلات الواحة، البنات اللاتى كانت أمهاتهن يعلّقن لهن الأحجبة ويبخرنهن لإبعاد الحسد. ظلت خديجة فى طفولتك تلطخ وجهك بالهباب وتلبسك أقذر الثياب لكنك ظللت مع ذلك أجمل البنات. يتوقف الكبار فى الطريق ليتطلعوا إلى ملامحك الفاتنة وهم يقولون ما شاء الله! فتزيد أمك هلعًا عليك وتحاول أن تسجنك فى البيت لا تخرجين منه، لكنك ما إن كبرت قليلاً حتى تعلمت الهرب من البيت. تلبسين جلابيب الصبيان وتخفين شعرك الناعم تحت طاقية ثم تجولين فى البلدة على راحتك. ولم يفهم أحد لماذا استهوتك خرائب الملوك التى ظل أهل البلد جيلاً بعد جيل يبحثون فيها عن الكنوز. هل كنت مثلهم تبحثين عن كنز؟ لكنك ترجعين من الخرائب

وفى يدك جعران من حجر أو شقفة من فخار عليها رسوم ملوّنة ما إن تراها أمك وتراك حتى تبدأ فى الصراخ والعويل، تحطم هذه الأشياء بسرعة وتلقى بها فى النار ثم تستدعى الشيخات الساحرات ليخرجن الشيطان من جسدك ضربًا بالعصى وهلوسة بالتعاويذ. كأن هاتفًا يقول لى إن أمك فعلتها من جديد، فأسرع أنا إلى البيت وأنهال عليهن ضربًا بعصاى صارخًا إنهن الشياطين ولا أحد غيرهن فيهربن مولولات وأمك تلطم خديها فى يأس. أجد جسدك مزرقًا ومتورمًا من الضرب لكنك تضحكين مع ذلك وأنت تتحسسين مواضع الضرب وتقولين وسط تأوهات ألمك: هذا ذنبك يا خالى! لم تجد الدواء الذى ينجينى من العقاب.

نعم، تتكلم كالكبار وتصنع ما لا يصنعه الكبار. تأتى إلى حديقتى فتغترف طينًا لينًا من الأرض تشكله على هيئة جعارين وطيور تشبه الطيور المرسومة على جدران الخرائب، ثم تعلمت أن تأتى بصلصال تصنع منه تماثيل صغيرة لا أكاد أفرّق بينها وبين تلك التماثيل الحجرية الدقيقة المتناثرة فى الخرائب. كنت أراقب فى دهشة أناملها الصغيرة وهى منهمكة فى تكوير الرؤوس وفرد الأذرع والسيقان من كرات الصلصال وأنا أسأل نفسى: من أين لها العلم بهذه الصنعة؟ لم يحاول أحد فى البلد قبلها أو بعدها أن يفعل ما فعلت. وتدرك حتى وهى طفلة من تجاربها مع أمها أن أهل البلد لا يحبون أيضًا هذه الأشياء فتعطيها لى وهى تقول كسرها أنت يا خالى. سأصنع لك غيرها غدًا. ثم تمسكنى من يدى وتقول تعال، علمنى الزرع.

لكن قلبى لا يطاوعنى على أن أحطم تماثيلها الصغيرة الجميلة. أعرف أنى لا أستطيع الاحتفاظ بها عندى حتى لا يراها كبار أو صغار، فيقولون يحيى أيضًا يلعب مع الشياطين. أبقيها لحظة أتأملها وتدهشنى

دقة صنعها ثم أحفر الأرض متحسراً بعد أن تنصرف عنى مليكة فأدفن هذه التماثيل وأسوّى فوقها التراب والطين بدل أن أحطمها أمام عينيها.

ثم لازمتنى فى الحديقة. تأتى من تلقاء نفسها أو تأتى بها أمها لتبقى معى، بدلاً من أن تهرب منها ومنى متنكرة إلى حدائق الأغراب أو إلى خرائب الملوك فى جبل الموتى الذى يخشى حتى الكبار من التجول وسط كهوفه. وكانت فرحتى الوحيدة فى هذا البلد المليء بالكآبة والأحزان. تحاورنى وتتعلم منى زرع النباتات وتساعدنى فى غرسها وفى تقليمها. لا أحتاج أن أكرر عليها شيئًا علمته لها من قبل. تعلقت بها أكثر مما تعلقت هى بى ولم أعد أحتمل أن تغيب عنى يومًا. لكن كل هذا الذكاء دفنته أمها مع معبد وانتظرا أن ترضى مليكة بهذا المصير، ولم أستطع أنا إنقاذك من أمك ولا من معبد ولا من صابر ولا من الشرقيين ولا من الغربيين. أرى الآن ما سيدبرونه لك بعد كل الضجيج والتهديد والكذب. حتى لو نشبت الحرب وأيًا كان المنتصر فسيرغمونك بعدها على الرجوع إلى الرجل الذى تكرهين.

أعرف تشاورهم وأمقته. أعرف حروبهم كيف تبدأ وكيف تنتهى. وفى شبابى كاد ذلك يدفعنى إلى الجنون. فلماذا عدت إليهم؟ صرت عجوزاً وأرهقنى التجوال والوحدة. ولكن ليس بقدر ما يرهقنى الآن القرب منهم والعيش معهم.

قمت من مكانى متثاقلاً. يجب أن أكمل طريقى. لكن قبل أن أتحرك من مكانى سمعت بوق المنادى آتيًا من ناحية شالى يعلن نغمة النعى، ترى من الذى فاضت روحه اليوم، فرحمه ربى؟

* * *

٦ـ محمـــود

صحوت من النوم قبل الفجر كالعادة، يغمرنى العرق وبقايا حلم جميل تلاشت تفاصيله سوى وجه أيقظنى مبتسمًا.

اغتسلت بسرعة وتركت كاثرين تكمل نومها ثم فتحت باب البيت برفق وجلست على أول درجة سلم. فى العادة تكون هناك نسمة هواء شمالية لكنها غائبة اليوم. مع ذلك فالجو أندى من داخل البيت.

إلى يسارى (شالى) كتلة مظلمة، هادئة ونائمة، وأمامى مباشرة التل الداكن الذى يعطونه اسمًا لطيفًا ـ جبل الموتى! ألم يجدوا له اسمًا أرحم؟ مفهوم أنهم يسمونه هكذا لأن كهوفه كلها مقابر قديمة للفراعنة وغيرهم. إذن فماذا كنت تريدهم أن يسموه؟ جبل البهجة والأفراح؟ هو اسم على مسمى فكفى تذمرًا منذ مطلع النهار! حاول أنت أن تبتهج وتفرح. صحيح أننى تلقيت فى المساء أول تهديد حقيقى منذ وصلت إلى الواحة، لكنه كان متوقعا ولا يضيف إلى علمى جديداً.

لم يحدث حتى الآن فى الواقع ما أشكوه منهم هنا، ولكن عندى كل الأسباب لأشكو من القاهرة. لا يبالون فى المحروسة بما أكتبه لهم. أبعث الرسائل فتصلنى مع القوافل نسخة جديدة من أول خطاب جاءنى. نص التكليف نفسه الذى حدثنى عنه هارفى قبل السفر دون

شرح أو تعليق، بل دون إشارة حتى إلى أنهم قد استلموا رسالتى. كل ما يصلنى هو استعجال جمع الضرائب المتأخرة وإرسالها للمحروسة. لا يسألون أنفسهم أو يدلوننى - كيف؟ فى كل مرة تأخرت الضرائب احتاج الأمر إلى جيش ومدافع، فما الذى أستطيعه أنا بحفنة الجنود الذين معى وبنادقنا القديمة؟ آخر مرة من سنتين انتظروا حتى قتلوا المأمور الذى كان قبلى ثم أرسلوا جيشًا قتل العمدة وجمع الضرائب واعتقدوا أن الأمن قد استتب.

لم يستتب يا باشوات المحروسة!

فى المساء جاءنى كبيرهم الشيخ صابر، هو الوحيد الذى يأتى من الأجواد. لا أقابل الباقين إلا فى صلاة الجمعة فى مسجد شالى. قال إن الأجواد ما زالوا يعتبرون التخفيض الذى طلبته قليلاً ويريدون المزيد. نبهته بحزم، بل انفجرت فى الواقع وأنا أفكر فى صمت القاهرة: أنا لم أعد بشىء. قلت لك ما طلبته لكن الحكومة فى مصر هى التى تقرر. قال: أفهمك يا سعادة المأمور. لكن بعض الأجواد يسألون عما يبقى لنعيش منه لو دفعنا كل ما تطلبه الحكومة.

رددت بجفاء ليست مع ذلك أول مرة تدفعون فيها الضرائب. دبروا أنفسكم.

لم يغضب صابر. لم أره غاضبًا أبدًا بل قال وكأنه يؤيد كلامى: العقلاء يعرفون ذلك. لكن ما العمل وهناك فى بعض العائلات، بل وحتى بين الأجواد، من ليسوا عقلاء؟ لا أحد يعرف ما يمكن أن يفعلوه ونسأل الله الستر.

فهمت رسالته جيدًا ورددت عليه بمثلها: فى هذه الحالة يا شيخ صابر ينبههم العقلاء إلى ما كان يحدث عندما تطيش العقول.

قال : أنا لست عمدة البلد ، ولا أملك أن أفرض عليهم شيئا .

فقلت : عند الحكومة أنت كبير الأجواد ، وهذا يكفى .

أردت أن أقول له أن يحمد الله لأنه ليس العمدة! هو نفسه الذى حكى لى قصة آخر عمدة ، صاحب البيت الذى أسكنه أنا الآن . بناه العمدة حسونة خارج سور شالى فوق ربوة ، واهتم بتحصينه ككل الأشياء الأخرى المحصنة فى هذا البلد ، ثم بنى خلفه مجموعة من الملاحق امتدت حتى السور . واستطاع بفضل الموقع المرتفع واتصال قلعته الصغيرة بالبلد أن يقاوم حملة الجيش الانتقامية الأخيرة بعد قتل المأمور . لم يسلّم رغم الحصار الذى طال أسابيع وحارب ببسالة حتى مصرعه كما سمعت فاحترمته لشجاعته .

كل ما بقى من قلعته هو هذا البيت المرتفع الذى صادرته الحكومة ومبنى آخر جنوبى السور جعلته مركزا للشرطة ثم هدمت ما بينهما ، لكن صابر روى لى حكاية العمدة حسونة دون ذرة من العطف عليه أو على مصيره . ترى هل لأنه كان من الغربيين وصابر من الشرقيين؟ أحتاج وقتًا لأفهم الناس هنا ، إذا ما سمحت الأقدار بالوقت . لا يخدعنى الهدوء الذى يحيط بى وأفهم حتى دون تلميحات صابر المبطنة بالتهديدات أنهم يتربصون بى ، لكنى أواصل العمل كأنى لا ألاحظ شيئًا . لا يجب أن يشعر صابر أو غيره بأى ضعف فى تصرفاتى هنا .

ثم إنى لا أحب هذا الشيخ صابر! يتملقنى بشكل مكشوف من أول لقاء معه ، ووجهه الجامد يشبه قناعًا لا يكشف أى تعبير . فى عينيه بالذات شىء مقلق ، يحدق فى وجهى بنظرة ثابتة لا تتغير فلا أصدق أى شىء يقوله . ما الذى يريده منى بالضبط؟ أن أرشحه ليكون عمدة؟ القاهرة صرفت النظر عن تعيين عمد من الشرقيين أو الغربيين حتى لا

تغضب أحدًا. كان يجب أن يفهم هذا بنفسه. مع ذلك فهناك شيء حقيقي في كلامه. كيف يعيش هؤلاء الناس بالفعل لو جمعت الحكومة كل ما تريده منهم؟

منذ اللحظة الأولى لدخولى الواحة أذهلنى الفقر، لا سيما فقر الزجالة، وأذهلتنى جسامة الضرائب التى تطالبنى الحكومة بجمعها منهم. كتبت إلى النظارة رأيى: إن المبالغة فى الضرائب هى السبب فى تمردهم واغتيالهم للحكام الذين تعينهم القاهرة. اقترحت تخفيض الضرائب إلى النصف.

لكن ربما أكون ساذجًا. لماذا أحاول أن أساعدهم وأنا أعرف أنهم يتمنون الخلاص منى؟ شعرت بكراهيتهم المميتة لى ولكاثرين منذ أول يوم. حاصرونا بالصمت والمقاطعة. لا علاقة بيننا من أى نوع غير نظرات الكراهية فى عيونهم، فكيف إذن أقول إنه ليس لدى ما أشكوه منهم؟ عندى ألف سبب للشكوى! هم بلوى والقاهرة بلوى وأنا فى الوسط. لكن إذا كانت القاهرة قد نسيتنى فسأنساها أنا أيضًا. هذا يؤجل لحظة الصدام هنا. سأتعامل معهم كما اعتدت منذ وصولى. أسير دائمًا دون حرس من الجنود ولكن جراب مسدسى مفتوح باستمرار. أعرف أنه احتياط لا جدوى منه، لكن أى احتياط آخر يمكن أن يفيدنى وأنا وحيد وسطهم؟

فى الصحراء فى العاصفة، بدا الأمر سهلاً. كلما كان أسرع كان أفضل كما قلت لكاثرين. ما زلت حتى الآن أتمنى النهاية سريعة ومباغتة حين تأتى. ومع ذلك فأنا أفرح فى الليل حين أنام فى فراشى. يتسلل خاطر يبهجنى. انتهى اليوم ولم تأت النهاية! أكاد أشعر بنشوة النصر على المجهول الذى غنى البدو فرحًا بالهروب منه وهم يستحمون

فى نبع الصحراء. إذن فما الذى أريده؟ ليتنى أعرف ما أريد! ليتنى أعرف من أكون!

مثلاً لماذا أنا منشرح الصدر هذا الصباح، فى هذا الحر، وبعد التهديد الذى أعرف أنه حقيقى؟ هل كل ذلك ببركة حلم؟ نعم. لا يمكن أن يكون بفضل كأسى الويسكى اللتين شربتهما فى المساء. كنت أعول على الويسكى لاحتمال الوحدة فى هذه الواحة وأحضرت معى من القاهرة ذخيرة كافية من الصناديق. لكنى الآن أشرب أقل فأقل. لماذا؟ ربما هو الحر الشديد الذى يصدنى عن الشراب، وربما هو غياب النديم. لا شراب بلا نديم وأنا لا صاحب لى فى هذا البلد أنادمه وزوجتى لا تشرب.

لكن كاثرين نفعتنى مع ذلك ونفعتها فى أيامنا وأسابيعنا الأولى فى هذا البلد. لم يكن لكل منا سوى الآخر وسط جو العداء والعزلة الذى فاجأتنا به البلدة. بعد ساعات العمل نبقى وحيدين معًا وأمامى كأسى. نثرثر فى أى موضوع لكن شيئًا يبدأ، كالعادة، فى ذهنى. أنظر إليها متأملاً جسدها الذى أعرف كل مواطن جماله، أسترجع تفاصيله وأتخيل ملمس بشرتها وعناق جسدينا فيتضرج وجهها وتبتسم وأنا أحدق فيها بتلك النظرة الطويلة التى تفهمها جيداً. واستنفدنا بالفعل خلال أسابيع كل طاقة العشق قبل أن يستبد بى السأم. لكن كاثرين استمرت تبحث فى قلق لا ينتهى عما يمكن أن يطيل ليالى عرسنا الصحراوى، فى ليال تقترب منى وأنا أشرب كأسى فى هدوء وملل لا يخفى عليها، تندسَ فى حضنى وتغمرنى بالقبلات فى وجهى وفى رقبتى بعصبية وسرعة إلى أن تستثيرنى بالفعل وتخرجنى من همودى. وفى ليال أخرى تتوسل إلىْ أن أكون ناعمًا ورقيقًا، تتحسس صدرى ببطء شديد بأصابع عمياء وتريد أن تقود هى المعاشرة فأرفض وأمارس

العشق على هواى، كما تعودت، فأخضعها تمامًا فى الفراش، وأظن رغم تذمرها أن ذلك يرضيها ويمتعها مثلما أرضاها منذ بدء علاقتنا. لكن التعود والإسراف استنزفا كل محاولاتها ومحاولاتى لابتكار متع جديدة، فاستقر الأمر على لقاءات غير مدبرة فى بعض الليالى، لا فى كل ليلة كما كان الحال.

هل هذا هو سأم الزواج الذى لم يكن أصحابى فى القاهرة يكفون عن الحديث عنه والذى كنت أهرب أنا منه إلى النساء الأخريات؟ وهل عجلت واحة الصمت بهذا السأم؟ ربما.

انتشر أول ضوء للفجر، فبدت معالم شالى.

فقدت البلدة جلالها بالاقتراب منها. لم يعد لها شكل بركان ولا هرم، بل مجرد بيوت طينية مصفرة اللون متراكبة فوق بعضها مثل كومة من تراب، تثقبها حفر من ثلاث نوافذ فى كل طابق، لكن إلى يمينى تمتد حتى بلدة أغورمى وبعدها شرقًا غابة النخيل التى يمتع مرآها العين بعد النظر إلى هذا القمع الترابى المقلوب وإلى جبل الموتى الكئيب. إذن فلأنظر فقط إلى الشرق.

غير أن أول أشعة للشمس تكوى جبهتى بالفعل وأسمع صوت كاثرين تتحرك فى البيت فأنهض من مكانى.

قابلتنى بابتسامة. تكون دائمًا أكثر جمالاً فى الصباح بعد نوم عميق وطويل. ليس من بين مشاكلها الأرق.

كانت تضع أطباق الإفطار على المائدة فى الصالة الواسعة.

وقالت ونحن نجلس إلى المائدة:

قد يقال إن أحدهم منتعش فى هذا الصباح.

- هو يوم العطلة. على الأقل لن أختنق فى هذا الحر فى زى الضابط.

- لكن زوجتك الشريرة تفسد يوم عطلتك باصطحابك إلى الآثار المرعبة.

قلت مبتسمًا: بالضبط! لولا أنه لا يوجد شىء أفضل نفعله فى العطلة أو فى غيرها.

فضحكت: بالضبط! لسنا مرهقين بالزيارات والواجبات الاجتماعية.

لكن بينما نفطر سألتها بشكل عابر: عن أى شىء تفتشين فى هذه الآثار يا كاثرين؟ تصحبين معك كتبًا فيها صور المعابد، وأراك تقرئين فيها فى البيت باهتمام، فما الذى تبحثين عنه بالضبط؟

- أبحث عن أعظم رجل فى العالم. عن الإسكندر.

- عرفت هذا من زمن. تريدين رؤية المعابد التى زارها هنا، لكن يبدو أنك تبحثين عن شىء آخر.

وضعت فنجان الشاى الذى كانت تشرب منه وقطبت جبينها قليلاً ثم قالت:

سأعترف لك بسر. أنا لا أعرف ما الذى أبحث عنه.

تابعتها بنظرة مستفهمة، فأكملت: جئت إلى الواحة مليئة بالأحلام بأنى سأكتشف شيئًا جديدًا وسط هذه الآثار، شيئًا لم يسجله المؤرخون القدامى ولا الرحالة الذين زاروا الواحة. عندى القدرة على ذلك لأنى أعرف لغات لم يكن لهم علم بها، لكنى لا أجد الكثير. زرت بصحبة

إبراهيم المقابر الموجودة فى جبل الموتى كلها مع الأسف منهوبة. المومياوات والتوابيت وكل آثار أخرى يمكن أن تفيد فى أى بحث. .

ثم تنهدت وقالت: وأنت تعرف ما حدث فى الجمعة الماضية عندما زرت، أو حاولت أن أزور المعبد الكبير، معبد الوحى.

ـ أتمنى أن يكون الحظ اليوم أفضل، لكن هل تعرفين ماذا يظن أهل الواحة؟

ردت بلا مبالاة: إننى أفتش عن الكنز الذى نقبوا عنه وسط كل المعابد وحفروا حولها وتحتها حتى خربوها؟

ـ نعم، حذرنى إبراهيم ونصحنى بأن أحذرك.

ـ كل زياراتى تتم بالنهار وتحت أعينهم، فليتفضلوا ويأخذوا الكنز حين أجده.

ثم سكتت لحظة ونظرت فى عينى مباشرة وهى تقول: لكن أنت لا تصدق بالطبع هذا الهراء؟

ـ بصراحة أنا أتمنى أن تجدى كنزًا وأن نفر به إلى مكان مجهول!

ضحكت: إذن فسيطول انتظارك! ولكنى سعيدة لأن مزاجك رائق هذا الصباح. ما السبب يا ترى؟ لو كنا فى مكان آخر لقلت إنك وقعت فى غرام جديد. . أما هنا فمن سوء حظك لا توجد أى نساء! لا يراهن أحد أبدًا.

ـ كما لو كنا نرى الرجال!

ثم قلت وأنا أنهض: هيا يجب أن نخرج مبكرًا قبل أن تشتد حرارة الشمس. تعرفين أننا يجب أن نرجع قبل الظهر.

* * *

قلت لنفسى حين انصرفت لتغير ثيابها لكنك لم تخطئى يا كاثرين. امرأة بالفعل هى السبب! امرأة لم تفارقنى عمرى كله. زارتنى نعمة هذا المساء أو هذا الصباح وغمرتنى بالفرح. لا أذكر من الحلم سوى وجهها الجميل الذى ردنى إلى زمن البراءة وأيام الأعياد.

«نعمة السمراء» التى اكتسبت اسمها من لون بشرتها الناعمة الخمرى الرائق كلون النيل أيام الفيضان. لم يعرفوا وصفًا أصح لهذا اللون الفريد ولا أظن أن أحدًا كان يعرف اسم أبيها أو أمها، ربما ولا حتى هى. اشتراها أبى من «سوق الجلابين» طفلة صغيرة لتساعد أمى فى عمل البيت ثم وهبها لى عندما كبرت، تربينا معًا ولعبنا معًا ونحن صغيران وكانت صاحبتى وأقرب إلىّ من أخى سليمان. لعلى كنت ألمسها أو أقبلها أثناء اللعب على عادة الأطفال، لكن ما كان يفتننى فيها فى هذه السن الحكايات التى كنت أسمعها منها. من أين تعلمتها؟ من أمها التى ماتت عنها طفلة؟ من الجوارى الأخريات فى البيت أو خارجه؟ لا أدرى. لكن حكاياتها كانت مليئة بالملوك الطيبين والملوك الأشرار، وتغير فى الحكاية الواحدة كل مرة فأسمعها كما لو كانت جديدة دائمًا وهى ترويها كأشياء حدثت للتو. يتهدج صوتها وهى تحكى كيف سحر الشرير ملكًا طيبًا واغتصب عرشه بعد أن حوله قردًا وكيف يرى الملك المسحور ابنته السجينة فى القصر ويريدها أن تتعرف عليه بالصرخات والإشارات الخرساء فلا يفلح، وتغرورق عينا نعمة بالدموع وهم يسوقون الأميرة السجينة لتزويجها من الملك الشرير، ثم يتهلل وجهها بالفرح حين يأتى الأمير الجميل، دائمًا ما يأتى ذلك الأمير

الجميل، فيخلصها من الأسر ومن الزواج البغيض ثم يفك السحر عن الملك الطيب الذى يكافئه بالزواج من الأميرة. سمعت وأنا صغير حكايات من أمى ومن الجوارى والخادمات الأخريات فى البيت. لكن حكايات نعمة وحدها هى التى عاشت معى ووجهها وهى تحكى وصحبة طفولتنا وأسرارنا المتبادلة.

كبرنا معًا، وبقيت نعمة فى البيت حتى بعد إفلاس أبى.

سرّح هو معظم الخدم والجوارى، وفرّ الباقون ولم يبق بعد موته سواها والخادم العجوز التى لازمت أمى عمرها كله.

كنت أول رجالها ولم تكن هى أول نسائى، لكن ما يرجع إلى ذهنى دائمًا ليس هو بدء علاقتنا وإنما ذكرى تلك السنة المحمومة التى سبقت ندبى إلى الإسكندرية. ذكرى الضابط الشاب، الممتلئ حماسًا فى بلد يغمره طوفان من الحماس. كنت أعمل طول النهار ومعظم الليل مع زميلى طلعت ورئيسنا سعيد، نحرس الاجتماعات السياسية وحفلات الخطابة التى لا تنتهى ونصبح دون أن ندرى جزءًا من الجمهور الذى يفترض أننا نراقبه ـ تجرفنا النشوة مع خطب عبد الله النديم وهو يهاجم الخديو والإنجليز والفرنسيين وترن فى أذنى حتى الآن مقاطع من خطبه المسجوعة. كنت أرجع إلى البيت متعبًا ومكدودًا تمامًا فى آخر الليل لكنى أجد نعمة فى انتظارى. أعدت العشاء وكئوس الخمر والماء المثلج. تسقينى كأسًا وتصر على أن آكل مهما احتججت أنى شبعان وكل ما أريده هو أن أنام. تطعمنى بيدها وأنا أحكى لها ما حدث لى فى يومى وليلتى وتشاركنى الحماس أو الغضب لكنها تقترب منى فأشم رائحة عطر ياسمين بلدى نفاذ كأنه ينبع من مسام جلدها نفسه. جلبابها القطنى الرخيص الذى تلبسه على اللحم تكشف فتحة صدره بشرتها

الخمرية الملساء التى لم أعرف مثل ملمسها، فيطير من عينى كل نعاس وأتعجل الانتهاء من الوجبة ثم أقودها كأنى أخطفها خطفًا إلى غرفتى ويستمر العرس إلى أن يقترب الفجر، إلى أن أضع رأسى أخيرًا فوق فخذها لتحكى كما اعتادت منذ الصغر إلى أن يحل النوم. لا أكاد أنام ساعتين قبل أن أصحو لأعود من جديد إلى العمل والاجتماعات والخطب. كنت شابًا أحتمل ذلك وأريده أيضًا، لم أعرف فى حياتى تلك المتعة مع أى من الجوارى أو الحرائر. معظمهن كن جشعات يردن أن يأخذن فحسب أو يمثلن أدوارًا لإرضائى. أما نعمة فكانت تستمتع بالفعل بالحب وتريدنى أن أستمتع معها ليكون العشق كاملاً.

كانت صاحبتى وكانت تردنى بحكاياتها طفلاً وتستردنى بالعشق رجلاً. أحببتها كما لم أحب سواها لكنى لم أدرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، إن كان الحب هو تلك الحمى وذلك الجنون الذى أصابنى بعد أن هربت نعمة من البيت. قضيت أيامًا وأسابيع أبحث عنها فى المستشفيات وأقسام الشرطة والسجون وحتى فى بيوت البغاء. ثم شكوت همى لزميلى وصديقى طلعت فقال ببساطة: اشتر جارية أخرى! لا تصدق ما تكتبه الصحف عن منع الرقيق. سوق الجلابين قائمة ومنصوبة تحت سمع وبصر شرطتنا الخديوية السنية وجيوبها الواسعة. اشتر جارية تركية، ثم ضحك وهو يقول ولكن أنت نشأت غنيًا وعرفت التركيات واللحم الأبيض، والآن تفقد عقلك من أجل جارية تقول إنها سمراء؟ هذا بطر! اترك هذا لأمثالنا! لم يفهم طلعت شيئًا. وكيف كان له أن يفهم وأنا نفسى لم أفهم. هل كنت سأجد الجرأة مثلاً على أن أتزوجها لو عثرت عليها أو لو رجعت هى إلىّ؟ الضابط المحترم يتزوج جارية مجهولة النسب؟ أى عار!

سألتنى وهى تستلقى بجانبى على الفراش : سيدى محمود هل تحبنى؟ زجرتها : ما هذا الكلام الفارغ يا بنت؟ لو عدت إلى هذا الكلام سأرميك فى الشارع! فضحكت وهى تقول معك حق ياسيدى . كلام فارغ . وأخفت رأسها فى صدرى وهى تكرر وسط ضحكاتها : أما كلام فارغ!

لكنها بعد ذلك خرجت بنفسها إلى الشارع واختفت . وكان من حظى أو من سوء حظى أنى انشغلت بعد ذلك بما حدث فى الإسكندرية وخلال الحرب وخلال التحقيقات .

مازالت نعمة تعيد لى حتى الآن الطفل والرجل، الفرحة والندم، أقول لنفسى هى خيانة أخرى ولكنى أسأل ـ ومن الذى خان يا حضرة الصاغ شهريار؟

* * *

ظهرت كاثرين وقد ارتدت ثيابها وقالت وهى تمر أمامى فى الصالة وتحدق فى وجهى: هل مازال مزاجنا رائقًا أم أننا تغيرنا قليلاً؟

لم أرد فقالت بابتسامة: نعم، قليلاً! أرى أننا تغيرنا قليلاً!

- ربما. سأنتظرك فى الخارج وأرجو أن تسرعى.

فتحت الباب فلكمتنى الشمس وأغمضت عينى من الوهج. وضعت على الفور قبعة الفلّين البيضاء الصلبة المكورة فوق رأسى. هدية الإنجليز المشبوهة! تحمى من الشمس لكنها تحبس الهواء فى تجويفها الغائر فيغلى الدم فى الرأس. قد تكون العمامة ذات الشال الأبيض العريض التى يلبسونها هنا أفضل، لكنى لا أستطيع أن أفعل مثلهم - ضد التعليمات وضد الهيبة؟

نظرت فى الساعة: هى السابعة إلا عشر دقائق. إن بدأت الشمس بهذه القسوة من الآن فكيف سيكون الحال فى الظهيرة؟ وهذا كله من أجل كاثرين وفراعنتها! ما الذى يعنينى من تاريخهم أو من تاريخ الإسكندر ونحن مدفونان فى هذه الصحراء النائية؟ كانت تشاركنى همى فيما حدث فى الماضى القريب قبل أن يتجدد هوسها بالآثار. كنا نتكلم عن بلدها التعيس وبلدى الأتعس. لا أعرف فى الواقع أينا الأتعس. حكت لى عن مآس كنت أجهلها تمامًا عما فعله الإنجليز ببلدها منذ أن غزوه. كيف انتزعوا أفضل الأراضى والمزارع وأعطوها للمستعمرين الإنجليز الذين استولوا على ثلاثة أرباع الجزيرة... منعوا السكان الكاثوليك من تملك الأراضى ومن تولى الوظائف وجعلوها حكرًا على المستوطنين الإنجليز البروتستانت.. فى بعض الفترات منعوا

الأيرلنديين حتى من ممارسة العبادة، وكلما ثاروا على الظلم قمعوا ثوراتهم بوحشة، ثم شتتوهم فى الأرض حتى أصبح المهاجرون منهم أكثر ممن بقى فى البلد. وذات مرة ساقوا منهم ستين ألفًا من الرجال والنساء والأطفال وباعوهم عبيدًا فى جزر الهند الغربية. قلت لنفسى على الأقل لم يبعنا الإنجليز عبيدًا خارج مصر. اكتفوا باستعبادنا فى أرضنا!

نبهنى نهيق مفاجئ وحين التفت وجدت صبيا يسحب حمارين من لجاميهما ويتقدم من الجانب الذى يغمره الظل ليقف أسفل السلم موليًا ظهره للبيت. وصل فى الموعد لكنه لم ينطق كلمة ولم ينظر ناحيتى. يحافظ مثل غيره هنا على قانون الابتعاد والصمت.

هتفت وأنا أنزل السلم محاذرًا فى خطواتى: ياولد!

التفت نحوى برأسه دون أن يحرك جسمه. اقتربت أسأله: ما اسمك؟

ـ محمـــود.

يسخر منى أو هذا هو اسمه بالفعل؟

ـ أنت الذى كنت معنا فى الجمعة الماضية؟

ابتسم ولم يتكلم، بالطبع! هو لا يفهم العربية أو يتظاهر أنه يجهلها وأنا لا أفهم لغته فما معنى السؤال؟ لكن كل الأولاد هنا يتشابهون بوجوههم القمحية وملامحهم الدقيقة وطواقيهم التى لا تبرز منها غير خصلة واحدة من الشعر يتعرفون من شكلها المختلف عن الأسرة التى ينتمى إليها الطفل. وربما لون الطاقية أيضًا يختلف. لكن إن كانت الطاقية تحمى رأسه من الشمس فماذا عن قدميه الحافيتين فوق الرمل

الملتهب؟ أى بؤس هذا! هل ينفعه واحد من أحذيتى القديمة؟ لن يكون مقاس القدم مناسبًا. إذن ربما (شبشب)؟

-اسمع يا ولد. هل تريد. . .

أشرت إلى حذائى وإلى قدميه الحافيتين وإلى حركة لبس الحذاء وأنا أرفع قدمى، فظل يبتسم ولكنه فهم لأنه هز رأسه لليمين واليسار.

لماذا يرفض؟ . . هو حر!

أخيرًا جاء الصوت عاليًا من على رأس السلم: يومًا ما ستكسر رقبة أحدهم وهو ينزل هذا السلم.

رددت عليها بصوت عال أيضًا: لا يوجد فى هذا المنزل غيرى وغيرك، فأينا ستكسر رقبته؟

أتعجب دائمًا لاستخدامها صيغة المبنى للمجهول مع أن كل شىء معلوم! هل هى أيضًا نكبة نكب بها الإنجليز لغة قومها؟ هم يحبون جدًا المبنى للمجهول!

كانت تهبط السلم فى حركات حلزونية لتتفادى المواضع المهشمة التى تتفتت تحت الأقدام. سمعت أن الطوب الأصفر الذى يبنون به البيوت هنا مختلط بملح يذيبه الحر ولهذا يتفتت الطوب بمرور الزمن. وكانت كاثرين ترفع ذيل ثوبها الرمادى الطويل بيد تعلق فى مرفقها حقيبة من الخوص، وتمسك بيدها الأخرى مظلة بيضاء مغلقة تتحسس بطرفها كل درجة قبل أن تطأها بقدمها، وحواف قبعتها العريضة تخفى وجهها وحين تعتدل تلمع عيناها الزرقاوان فى النور.

فى الحقيقة يا كاثرين أنت الجمال الوحيد فى هذا المكان. لولا وجودك لنسيت فى هذه الواحة معنى النساء.

تنهدت وهى تقف إلى جوارى وقد تضرج وجهها بحمرة مفاجئة

فى الوجنتين البارزتين المكورتين بمجرد أن ضربتها الشمس، وأملت أن تغير رأيها وتعدل عن الزيارة. لكنها قالت: لا يوجد يا محمود ما يدعو للمزاح فى هذه المسألة. لابد من عمل شىء لإصلاح هذه الدرجات أو لتغييرها. أنت الرئيس هنا.

فضحكت: رئيس فعلاً! رئيس تأتيه التعليمات من القاهرة كل عدة أسابيع مع قوافل الجمال، ولا يردّ على رسائله أو طلباته أحد! سلالم قسم الشرطة حالتها أسوأ. كاد بعض الجنود أن تكسر رقابهم فعلاً وهم يسقطون منها.

تنهدت كاثرين قائلة: مع ذلك يجب عمل شىء ثم تقدمت من الصبى وأمسكت برقبة حمار بإحدى يديها واستندت بالأخرى إلى برذعته المنحولة وقفزت على ظهره مدلية ساقيها من ناحية واحدة وهى تقول للصبى بمرح (سيجا)! إلى الأمام!

تعرف بعض الكلمات بلهجة ليبية وتعتقد أنهم يفهمونها هنا. لكن محمود الصغير لم يرد عليها، وظل ينظر نحوى إلى أن ركبت ثم تنحى خلف الحمارين ونخس كلا منهما بعصاه الرفيعة وعندما تحركا بدأ يهرول خلفنا.

قالت كاثرين: ألا يمكن أن نعفى هذا الولد من الجرى فى الحر؟ الطريق معروف.

- استأجرنا الحمارين وهو المسئول عنهما، لكن لو تعرفين كيف تقولين له أن ينتظر هنا فلا مانع عندى.

أشارت بيدها للصبى عدة مرات أن يرجع فلم يتوقف ولم يعد ينظر نحوها. فراحت هى تدير قبعتها فوق رأسها لتحمى وجهها من الشمس ثم استغرقت فى النظر إلى الطريق.

* * *

مازالت البلدة خالية من الحركة والصوت. لم يظهر الأجواد بعد فوق مصطبتهم الحجرية المسقوفة بجريد النخل أمام باب البلدة ولم يخرج الأطفال ليلعبوا فى الساحة الرملية الكبيرة أمام بيتى. لكنى كنت واثقًا أن عيونًا كثيرة تراقبنا من خلف النوافذ المعتمة التى انطلقت منها الرصاصة التى أودت بحياة سلفى واستدعت مجيء حملة الجيش.

لم تعين القاهرة مأموراً بعده. نجح كل من له واسطة أو ظهر فى الإفلات من المهمة إلى أن وقعوا علىّ أنا.

لكن الحكومة فعلت شيئًا جديدًا لتثبت هيبتها قبل أن تسحب جنود الحملة. تركت مدفعا كبيراً فى مدخل مركز الشرطة الذى أقامته فى ممتلكات العمدة القتيل. أشك أن المدفع يعمل أو أن أحدا من جنودى يعرف كيفية إطلاقه. لكن الهيبة مهمة على كل حال، مع أن المدفع لن يوقف الرصاصة حين يأتى أوانها. غير أنى أفكر الآن فى كاثرين. ماذا لو أصابتها هى الرصاصة؟ ماذا لو سقطت بدلاً منى؟ ولكن من أنا لأحدد للقدر من يصيبه ومن يعفيه؟

إذا كنت لا أفهم نفسى فكيف أفهم القدر؟ فليكن ما يكون!

يجب مع ذلك أن نعود قبل الظهر. أحرص دائمًا على أن أصلى معهم الجمعة فى المسجد الكبير خلف باب شالى. أصطحب معى بعض الجنود لكنى لا أفهم سوى القليل من الخطبة التى تتخللها بعض عبارات عربية وآيات قرآنية.

اشتكى الجنود أيضًا من أنهم لا يفهمون شيئًا فأقمت لهم مصلى فى

مركز الشرطة، يؤمهم فيه الشاويش إبراهيم معظم الوقت وأصلى معهم أحيانًا، لكنى أذهب دائمًا يوم الجمعة ومعى جنديان أو ثلاثة ونصافح الأجواد والمصلين القريبين منا. يتمتمون بأدعية خافتة نرد عليهم بمثلها وتنتهى كل علاقة بيننا حتى الجمعة التالية.

لم يزرنى أحد منهم ولم يدعنى أحد لزيارة بيته أو بستانه، غير أنهم يرسلون إلى المركز بين الحين والآخر بعض الفاكهة وبعض الأطعمة ويحرصون دائمًا على ذكر اسم الأسرة التى أرسلت الهدية. أوزع هداياهم على الجنود وأرد بكلمة شكر.

حتى لو استمرت هذه الهدنة الباردة فلا بأس، ولكن ماذا عن الضرائب؟ ماذا حين يأتى موعد الجد؟

تركنا مشارف شالى التى يحمينا فيها ظل البيوت واتجهنا شرقًا فى طريق يخترق أسوار البساتين لكن الأشجار لم تلطف من حرارة الشمس.

بدأ العرق يسيل على عينى فلا أكاد أرى شيئًا. عابدين الآن حلم بعيد، جميل ومستحيل. بلاط الصالة المرشوش بالماء ونسيم الشباك البحرى المفتوح، ونداءات الباعة التى توقظنا فى الصباح وتستمر طول النهار، والهتافات المنغمة لبائعى الصحف، «المؤيد» التى أحرص على قراءتها، و«المقطم» التى أحرص على أن ألعنها هى وكتابها المدافعين عن الاحتلال، وفى المساء النزهة على شاطئ النهر، عبور كوبرى قصر النيل والسهرات فى حدائق الجزيرة مع من بقى على العهد من أصدقاء الزمن القديم. كفى نفاقًا! من الذى بقى على العهد؟ هل بقيت أنا نفسى على العهد؟

يحسن ألا نفكر فى ذلك الآن. دعنى أكمل يومًا دون أن تطاردنى الأسئلة التى أعرف إلى أين تفضى. فلأتشبث بابتسامة الصباح التى أهدتها لى نعمة دون أن أستحقها.

لكن لماذا، مهما حاولت، يشحب تأثير البسمة شيئًا فشيئًا كما لاحظت كاثرين؟ لماذا ينقبض قلبى وتحدثنى نفسى أن شيئًا سيحدث؟ الشىء الذى أستحقه بالفعل من نعمة ولعله ما أستحقه من الدنيا.

* * *

٧- كاثرين

هى محاولة أخرى فى هذا اليوم الحار.

كل ما فزت به من الزيارة الأولى كلمة واحدة، اسم واحد- مليكة، ولقاء مبتور لكنى لا أنساه.

لم أتوقع أبدًا هذا الحصار بالصمت. قلت لنفسى هى فترة ثم تمر وأنجح فى الاقتراب منهم. حاولت ما استطعت. أردت بعد وصولنا أن أصعد إلى شالى وألتقى بالناس هناك.. رأيت فى وجه إبراهيم فزعًا حين طلبت منه أن يصحبنى لزيارة سوق البلد. قال يا هانم ما تريدينه أشتريه لك. لكن ما أريده يا إبراهيم هو أن أدخل البلد لأراه! ردّ أنه هو نفسه لا يستطيع أن يدخل ليرى. ما أحتاجه من هناك سيطلب من أحد الأولاد شراءه. ألا أذكر أنهم لا يحبون أن يدخل غريب إلى بلدهم ويتجول وسط بيوتهم؟

كان يجب أن أفهم ذلك دون مساعدة إبراهيم. منذ وصلت لم يكلمنى أحد. حين أخرج من البيت وأتجول حوله بمفردى أو بصحبة محمود يبتعد الأولاد والبنات الذين يلعبون فى الساحة الرملية. إذا اقتربت منهم وأنا أبتسم يفرون فى اتجاه البلد. لم أصادف هذا فى أى

مكان آخر. حتى الناس فى القرى الصغيرة التى زرتها فى الصعيد والدلتا، حتى البدو فى الصحراء فى مناطق الآثار كانوا يقتربون ويحيطون بى فى فضول. ومن قبل أن أتعلم العربية كانوا يحاولون التفاهم بالابتسامات وإشارات الأيدى. فلماذا هم هنا هكذا؟ لماذا أعجز عن كسب ودهم أو مجرد معرفتهم؟ أسوار حول البساتين وحصن حول البلدة وسور حول الحصن - كيف جرحهم العالم حتى تقوقعوا داخل كل هذه الأصداف؟ هذا لغز آخر يجب أن أحله وأنا أبحث ألغاز الإسكندر. يجب أن أصل إليهم قبل أن أصل إليه. أحتاج مساعدتهم أولاً لأصل إلى أى شيء.

ثم إنه يجب كسر هذه العزلة قبل أن يصيبنى الاكتئاب. لو لم تكن لدىّ الكتب والقراءة وفكرة البحث لتبلدت تمامًا خلال هذه الأسابيع. حتى محمود معى وليس معى. يذهب إلى مركز الشرطة فى الصباح ويعود إلى البيت بعد الظهر ليأكل وينام ساعة أو ساعتين، وفى معظم الأمسيات يرجع أيضًا إلى المركز، وأحيانًا يركب حصانه ويخرج مع خيالة من جنوده فى جولة فى الصحراء ويظل إلى ما بعد منتصف الليل. لا أستطيع أن ألومه على شيء. لكنى رجوت أن تزيدنا رحلة الصحراء والحياة هنا قربًا من بعضنا. وفى البدء تفاءلت. لم يكن سوانا وكان العشق تسليتنا الوحيدة، ثم تسرب إليه الملل، ولم أعد أنا أيضًا أجد المتعة نفسها التى اعتدت عليها منذ بدء علاقتنا. لكن فلنؤجل التفكير فى ذلك. أشكره لأنه يعطينى يوم عطلته كله. نسير معًا أو نستأجر حمارين ونتجول بين البساتين المغلقة وحول البحيرات ونتوغل أحيانًا فى الصحراء. فى الجمعة الماضية صحبنى عندما قررت أن أبدأ بزيارة معبد آمون، معبد الوحى الذى صنع قصة الإسكندر كلها.

ظل ينتظرنى فى أسفل الهضبة التى يعلوها ما بقى من هيكل المعبد. قال إنه لا يمكن أن يتجول وسط بيوت تسكنها أسر ونساء. يمكننى أن أفعل ذلك كامرأة، أما هو فلا يستطيع بسبب عاداتهم وتقاليدهم. لم يكن يدرى أن ذلك مستحيل حتى بالنسبة لامرأة.

عرفت بالطبع من قبل أن أذهب أنى سأمر أثناء صعودى إلى المعبد على بيوت مبنية فى التل يسكنها بعض أهالى أغورمى، وتمنيت أن تحدث معجزة تكسر الصمت حين ألتقى بالناس وجهًا لوجه. ولكن بينما كنت أصعد بصعوبة الدرجات القلقة المهشمة، رأيت النسوة يغلقن الأبواب كلما اقتربت من أحد البيوت. لم تنفع ابتسامات التودد، ولا عبارة «إصباح الخير» التى تعلمت نطقها بلهجتهم من الأطفال الذين يلعبون أمام البيت. كانت ردودهن دمدمات غاضبة وهن يصفقن الأبواب بعنف.

وبعد كل تعب الصعود وخيبة الأمل لم أر من المعبد غير الأطلال التى كانت معالمها أكثر وضوحًا من أسفل التل.

أذهلنى ما رأيت. قاعات المعبد ذات المداخل الحجرية مسدودة أيضًا بالطوب الأصفر وقد أصبحت بيوتًا لها أبواب خشبية. لم أجد سوى بهو واحد مفتوح يفضى إليه ممر ورأيت بقايا نقوش على مدخله وعلى جدرانه، لكنى لم أستطع أن أتبين أيًا من النقوش أو أقرأ الكتابات المحفورة على الجدران. كان يطمسها سواد دخان كثيف، وأدركت حين رأيت المواقد الحجرية البدائية المتناثرة فى المكان أنهن يتخذن من القاعة مطبخًا جماعيًا هجرنه حين عرفن أنه هدفى. حاولت بحرص أن أمسح بكف يدى السناج الذى يخفى بقايا رسم للإله آمون، فتلوثت راحتى وطمس السواد ما كان ظاهرًا من الرسم، فتوقفت عن المحاولة.

أيمكن أن تكون هذه القاعة هى قدس الأقداس للمعبد الذى تلقى فيه الإسكندر الوحى من آمون؟ كيف أعرف وأنا لم أر بقية المعبد؟ لو كنت من النساء اللائى يبكين لطفرت من عينى دموع وأنا أقارن بين ما قرأته عن موكب الإسكندر في هذا المكان وهو يمر وسط الزينات والغناء تحف به بهجة الصور الملونة على الجانبين وبين ما آل إليه الحال هنا. مطبخ؟ قدس الأقداس مطبخ؟!

نزلت تملؤنى الحسرة والغضب. لم أبال هذه المرة بعودة النساء إلى إغلاق الأبواب المفتوحة وأنا أتحسس طريقى على الدرجات. لكن فى إحدى حنيات السلم المعتم ووسط كل الأبواب المغلقة فوجئت بباب واحد يفتح ببطء وحرص وهمس نداء خافت. ظهرت فى مدخل الباب فتاة، ظهر وجه بهرنى جماله كنور وسط العتمة المحيطة بنا، ابتسمت لى وراحت تهمس كلامًا باللغة المجهولة، أشرت إليها بما يعنى أنى لا أفهم. فمدت يدًا إلى صدرى وأشارت بالأخرى إلى صدرها وقالت هامسة أيضًا «مليكة»، وظلت تتطلع إلىّ مستفهمة، لكن بينما أهمس بدورى «كاثرين» امتدت يد نسوية عجفاء جذبت مليكة وأغلقت الباب بهدوء. ظللت واقفة مكانى فترة. من أين يأتى جمال هذا الوجه؟ بشرة ناعمة بيضاء وملامح دقيقة متسقة - عينان رماديتان وشفتان ورديتان ممتلئتان. شعر كستنائى تتدلى منه خصلة غزيرة بعرض الجبين ثم ينسدل على الجانبين فى مئات الضفائر الرفيعة المزينة بحلىّ من الفضة كإطار يبرز ذلك الوجه الصبوح. ربما تكون ملامحها مألوفة فى الوجوه الجميلة. فلماذا تسمرت فى مكانى مأخوذة بهذا الوجه؟ هل هى مفاجأة الود وسط كل هذا العداء غير المفهوم؟ ربما.

فلأنس ذلك أيضًا ولأفكر فيما ينتظرنى اليوم. أرجو مع محمود أن

يكون الحظ أفضل ونحن نزور المعبد الذى يسمونه هنا أم معبد أو أم عبيدة. هو أيضًا معبد لآمون وعمارته تدل على أنه بنى فى عصر الصحوة المصرية التى سبقت غزو الفرس. رأيته مرات من الخارج أثناء تجولنا فى الواحة وأرجو أن يكون قد سلم من العبث بالنقوش والكتابات التى سجل صورها الرحالة الألمانى «فون مينوتولى» فى بداية القرن والتى أدركت من مجرد النظر إلى الصور أنه ارتكب أخطاء واضحة وهو ينقل الكتابات الهيروغليفية كما لو كانت مجرد رسوم. معى الكتاب، وإن تكن النقوش قد ظلت سليمة فسأحاول تصحيح هذه الأخطاء.

الحر اليوم أقسى من المعتاد رغم أننا فى نهاية الخريف تقريبًا. رائحة زهر الليمون تتسرب من الحدائق، لكننا لا نرى من وراء الأسوار غير مراوح سعف النخل الذى تلمع أطرافه المدببة فى الشمس كالسهام.

كان محمود يركب حماره وهو يحنى رأسه ويغلق عينيه. ما زال مزاجه أفضل من أيام كثيرة. أرجو أن يصمد وألا يتغير فجأة كعادته.

هتفت: لماذا تسكت يا محمود؟

رفع رأسه نحوى وضحك بعصبية وهو يشير إلى ساقيه ـ وما الذى يمكن أن أقوله وأنا فى هذه الحال؟

معه حق. لا يجلس مرتاحا فوق حماره. تكاد قدماه تلامسان الأرض فيثنى ساقيه الطويلتين. يخجل أن يمتطى الحمار مريحًا ساقيه على جانبى الحمار منذ قيل لنا إنهم لا يقبلون هذه الطريقة هنا سوى من النساء. لماذا؟ مع أن العكس هو المنطقى! كما لو كان هذا هو الشىء الوحيد الذى لا أفهمه هنا!

صحت ونحن نمر بالقرب من عين الجوبة :

وصلنا تقريبًا . من هنا مر الإسكندر الكبير وحاشيته وفتنهم هذا النبع . عرفوه باسم عين الشمس . ربما لأن شموسًا كثيرة تتوالد على سطحه كما ترى .

فصاح محمود بدوره : مررت عليه ورأيته كثيراً من قبل . أما الآن فأنا لا أرى شيئًا . تعمينى هذه الشمس .

لزمنا الصمت حتى وصلنا إلى المعبد، وتقدم منا إبراهيم الذى سبقنا إلى هناك فصاح به محمود وهو يترجل عن حماره ويساعدنى على النزول .

ـ بسرعة يا إبراهيم . أحضر ماء لنشرب . فجرى إبراهيم فى اتجاه النبع .

وتابعت بعينى الصبى الذى كان يجرى خلفنا فوجدته يمسك بلجامى الحمارين متقدمًا من أقرب نخلة تواجه المعبد .

خلع محمود خوذته المكورة وراح يجفف العرق من وجهه ورأسه بمنديل كبير وجال ببصره فى المعبد الذى تتكدس وسط أطلاله حجارة كبيرة سقطت فى زلزال فى بداية القرن كما قرأت فى الكتب وقال بابتسامة واهنة :

ـ ها هى الآثار كلها مكشوفة أمامك . حاولى أن تعوضى ما فاتك فى الجمعة الماضية .

لكنه لم يستطع الانتظار . قال : عن إذنك، وجرى هو أيضًا فى الاتجاه الذى سبقه إليه إبراهيم .

رفعت المظلة فوق رأسى ووقفت أتأمل المعبد الصغير، أو ما ظل باقيًا منه. هناك المدخل الحجرى أو البوابة الخارجية التى شطرها الزلزال إلى نصفين ما زالت تربط بينهما حجارة السقف الذى انهار معظمه أيضًا. وفى الداخل بقايا جدران تقسم المعبد إلى قاعات لم يبق ما يدل عليها سوى أطلال أعمدة والأرضية المرصوفة بالحجارة البيضاء التى نبتت وسطها الحشائش.

مهما يكن الدمار الذى أصاب المعبد فحاله أفضل بكثير من معبد الوحى الذى تحول إلى مساكن ومطابخ. مازالت الرسوم والكتابات الهيروغليفية واضحة على الجدران.

لم تفدنى المظلة بشىء فدخلت المعبد وجلست على أحد الأحجار فى ظل البوابة المرتفعة. لا داعى للمكابرة. الحر اليوم لا يطاق، ولكن ما العمل ومحمود يصر على ألا أتجول وسط الواحة وحدى وعلى أن تكون جولاتى الصباحية معه فى يوم عطلته؟ يمكن أن أبدأ اليوم بقراءة النقوش المكتوبة على الأحجار الساقطة، فلا توجد وسيلة أصل بها إلى قراءة ما هو مكتوب فى أعلى البوابة. لكن كيف يفيدنى هذا الأثر القديم فى بحثى عن شىء حدث بعد بنائه بقرون؟ أعلق أملى على عادة المصريين التى قلدهم فيها اليونان فى إضافة البناء إلى معابد الأسلاف وأهم من ذلك إضافة الكتابات والنقوش. وأعتمد أكثر من ذلك على أن يساعدنى الحظ.

لو يدلنى أحد على شىء، أى شىء! من؟ مثلاً هذا الصبى الذى يجلس قبالتى تحت ظل نخلة يحرس الحمارين. كان يمكن أن أعلمه وأصاحبه فيقودنى إلى أماكن أجهلها. عيناه اللامعتان تنطقان بالذكاء أما هو فلا ينطق كلمة. وهذا الصبى الآخر الملثم الوجه الذى يحوم

بحماره حول المعبد، يقترب قليلاً كأنه يتأملنى ثم يبتعد. حين حاذى بوابة المعبد لوحت له بيدى لكنه لوى رقبة حماره وأسرع كأنه يفر فى اتجاه أغورمى. لماذا اقترب ولماذا فرّ؟ ما الذى يخيفهم منى؟

لابد أن أحاول شيئًا!

أشرت للصبى الذى يجلس تحت النخلة وناديت بصوت مرتفع: يا ولد! نهض من مكانه وراح ينظر حواليه ثم تقدم منى مترددًا. عندما وقف أمامى لاحظت عرقًا غزيرًا يتفصد من جبهته ورأيت فى وجهه الشحوب والإعياء. بالطبع! كيف احتمل الجرى طول الطريق فى هذا الحر الذى لم نحتمله أنا ومحمود راكبين؟ لكنه هو الذى أصرّ.

قلت له: إصباح الخير. فرد بابتسامة مغتصبة: الخير. لا بأس. حتى لو كان يسخر منى فقد كسرنا حاجزًا. والآن كيف يمكن أن أواصل؟

لوحت بيدى بحركة دائرية مشيرة إلى بقايا المعبد وسألته بالعربية: دخلت هنا؟ ظل يتطلع فى وجهى بدهشة وعدم فهم فقمت من مكانى وقدته حتى جدار مازال محتفظًا بنقوش جميلة للآلهة القدامى. أشرت إلى صورة بديعة التكوين للإلهة إيزيس ملونة بالأزرق والأحمر وسألته بأبسط عربية ممكنة: كويس؟ اكفهر وجهه وهو ينتزع يده من يدى بعنف ثم بصق على الصورة وهو يقول فى غضب: كفار! واستدار مسرعًا وجرى كأنه يترنح مبتعدًا عن المعبد ليجلس فى مكانه السابق.

ظللت واقفة يغمرنى الإحباط والخجل من نفسى لكننى مع ذلك سجلت فى ذهنى: إذن فكلمة «كفار» مشتركة أيضًا بين اللغتين!

عدت أنا أيضًا أجلس مكانى فى ظل البوابة.

لا فائدة. لن يمد لى أحد يده. معذرة يا عزيزتى إيزيس لهذه الإهانة. معذرة أيها الإسكندر. لا أعرف من أين أبدأ ولا كيف أبدأ.

فقدت كل حماسى للعمل والبحث وللزيارة نفسها. سيسعد محمود أن نرجع للبيت، بسرعة، فلم لا؟

- ألم تبدئى جولتك بعد؟

فوجئت بمحمود أمامى ومعه إبراهيم يمد لى يده بإناء من الفخار مترع بالماء فشربته كله. كان هو قد غسل وجهه ووضع فوق رأسه منديله الأبيض الكبير بعد أن غمره بالماء.

التفت يخاطب إبراهيم: ارجع أنت واجلس فى الظل.

فقال إبراهيم ناظراً نحوى والعرق يجرى فى تجاعيد وجهه الأسمر المتغضن: ربما تحتاجنى فى شيء سعادتك أو الهانم.

قلت: شكراً يا إبراهيم، لو احتجتك سأطلبك. ثم أشرت إلى الصبى المقرفص قبالتى تحت النخلة يراقبنا - وقل لهذا الولد أيضًا أن يذهب معك ليرتاح هناك. لا أريده أمام عينى!

رأيت إبراهيم ينحنى على الولد يكلمه، لكن الصبى هز رأسه ولم يقم معه، بل تمدد على الأرض ورقد على جنبه واضعًا يده تحت رأسه، فرجع إبراهيم وحيداً فى اتجاه العين.

قال محمود: الجو ألطف بكثير هناك قرب الماء وتحت ظل الأشجار.

وراح يفتش بعينيه عن مكان فى الظل فوجده عند حجر أسفل جدار قائم بالقرب منى، جلس مسنداً ظهره وكرر سؤاله.

متى ستبدئين عملك يا كاثرين لنرجع إلى البيت قبل . .

ـ قبل موعدك مع الصلاة . أعرف .

أخذت نفسًا عميقًا وتمالكت نفسى ثم قلت : أنا أعمل الآن بالفعل . أفكر وأسترجع معلوماتى قبل أن أرى هذه الأطلال التى دمرها الزمن والزلازل والبحث عن الكنوز .

ثم أكملت وأنا أخرج الكتب من حقيبتى : لكن ألا تريد أن تسمع أولاً ما قاله هيرودوت عن عين الشمس التى يعجبك الجو عندها؟ هل تعرف هيرودوت؟

ـ بالطبع . علمونا أنه قال إن مصر هبة النيل .

ـ نعم ، هو أول من كتب التاريخ فى العالم وزار مصر قبل أن يؤلف كتابه . يصفونه بأنه أبو التاريخ

ـ وهل ذكر فى كتابه بالفعل هذه العين الصغيرة؟

قلت مبتسمة : وأى ذكر! يقول يا عزيزى إن ماء هذه العين يكون دافئًا فى الصباح ثم يبرد بالتدريج وتشتد برودته فى الظهر فى وقت رى البساتين ثم تتلاشى البرودة أثناء النهار ويسخن شيئًا فشيئًا كلما انتشر الظلام وعند منتصف الليل يغلى الماء فى العين غليانًا رهيبًا قبل أن تنعكس الآية ليبرد من جديد شيئًا فشيئًا حتى مطلع الفجر .

كان محمود ينظر نحوى ودهشة متزايدة تطل من عينيه ثم أطلق ضحكة عالية وهو يقول : هل كتب هذا حقًا؟

لوحت بالكتاب فى يدى : تحب أن أقرأ لك؟

رد وهو مستمر فى الضحك ـ لا . أنا أصدقك . هذا حقًا هو العلم

والتاريخ! مررت بهذه العين فى الليل والفجر والظهر والعصر وشربت من البئر واغتسلت فيها فلم أر أى ماء يغلى غليانًا رهيبًا أو رقيقًا فى أى وقت.

قلت لأشاكسه: ربما كان هذا هو الحال أيام هيرودوت!

فواصل كأنه لم يسمعنى: أبو التاريخ حقًا! ولم لا ما دامت حتى الأشياء التى رأيتها بعينى قبل سنين قليلة يروونها الآن فى الكتب معكوسة تمامًا! أبو التاريخ! يبدو أن التاريخ لقيط فعلاً!

نظرت إليه وهو يحنى رأسه وقطرات الماء تتساقط من منديله الذى يغطى وجهه. لهجته حزينة. تعكر مزاجه كما كنت أخشى.

جلت ببصرى فى المعبد ونظرت إلى الولد الراقد على الأرض فى مواجهتى والذى بصق على صورة إيزيس وقلت لمحمود بضحكة صغيرة.

مسكين التاريخ! ليس له أصدقاء اليوم.

وفكرت ربما تكون هناك أكاذيب. بالقطع هناك أكاذيب. ولكن ما هى الطريقة لمعرفة الحقيقة غير البحث عنها؟

سمعنا فجأة لغطًا عاليًا وصياحًا ناحية النبع ثم ظهر إبراهيم مسرعًا كعادته وانحنى على محمود وقال له شيئًا بصوت خافت فرد عليه بسؤال: بعد صلاة الجمعة؟ سنكون هناك.

ثم تأهب للانصراف بصحبة إبراهيم وهو يقول: أتركك لتسرعى قليلاً فى عملك وسأرجع أنا إلى الظل عند الماء الذى يغلى. يقول إبراهيم إننا يجب أن نعزى الأجواد لأن واحدًا منهم مات.

فأكمل إبراهيم: الشيخ معبد. رحمة الله عليه وعلى موتانا. لكن موته أنقذ الواحة من حرب كانت على الأبواب بين الشرقيين والغربيين. ربنا سبحانه له حكمة.

انصرفا معًا، فأخرجت ما لدىّ من صور قديمة وقارنتها بما أراه حولى. صور الجدار القريب وكتاباته لا تعنينى. معظمها طقوس للمتوفى لينطق بالحقيقة فى يوم الحساب يسميها البعض كتاب الموتى. توجد عادة فى المقابر لكنها نادراً ما تظهر فى المعابد. على أى حال هى دليل على أن هذا معبد جنائزى لتأبين وتخليد ملك أو شخص عظيم يعبد الإله آمون. لا علاقة لهذا بأى بحث عن الإسكندر الذى شيدوا المعبد قبل زيارته. لكن ما دمنا هنا فلنعمل. سأبدأ بنقل ما هو موجود على الجدران وأصوب الأخطاء الموجودة فى الكتب، وقد يصادفنى الحظ فأجد نصًا أحدث. لم لا؟

حكم خلفاء الإسكندر، من البطالمة اليونان، مصر قرونًا وسكن كثير من أشرافهم واحة آمون ودفنوا فيها، فهل يعقل أنهم لم يتركوا أى أثر يفيدنى؟ معبد صغير، أو نصب، أو حتى لوحة تذكارية داخل معبد تتحدث عن معبودهم الإسكندر وتضيف إلى معلوماتنا عنه.

لو تساعدنى روح الإسكندر! معى ذلك الكتاب عن تحضير الأرواح فهل أستخدمه؟ لكنى لا أومن بتحضير الأرواح، وعندى أسئلة حتى عن الأرواح نفسها. كفى عبثًا. إلى العمل!

تقدمت من الجدار، ثم توقفت فجأة.

انتظرى يا كاثرين! ما معنى كل هذه الإشارات الآن؟..

تحضير الأرواح ومعبد جنائزى وكتاب الموتى على الجدار! ألا

تقودك إلى شىء ما؟ فكرى قليلاً. ربما ما يجب أن تبحثى عنه هو موت الإسكندر لا حياته! . . شىء له علاقة بموته. نعم!

الوحيد الذى كان يمكن أن يفهمنى فى هذه اللحظة هو أبى. كان يمكن أيضًا أن يساعدنى.

لكنه يساعدنى بالفعل!

كل ما يحيط بى يعيد إلى ذهنى حوارًا دار بيننا انتهى بجملة عابرة كأنها الآن رسالة. كأنى أحوم طول الوقت حول هذه الرسالة دون أن أدرى. كان ليلتها يحدثنى عن الإسكندر ويقرأ لى من كتاب (بلوتارك) عن أيامه الأخيرة، فقاطعته أسأله بشىء من الحيرة: أليس غريبًا أن كل حديث عن ضريح الإسكندر فى الإسكندرية والذى كان أشهر معالمها ومقصد زوارها قد انقطع فجأة بعد القرن الرابع؟ فرد أبى نعم، كثيرًا ما حيرتنى أنا أيضًا هذه المسألة. ما الذى يمكن أن يكون قد حدث؟ هل غرق هذا الضريح فى البحر؟ هل تهدم فى زلزال؟ هل دمره الرومان مثلما دمروا آثارًا وثنية كثيرة بعد أن اعتنقوا المسيحية؟ ثم سكت لحظة وقال متفكرًا أو هل نقل بعضهم الضريح إلى مكان آخر؟ هل ظلت عبادة الإسكندر موجودة وبقى له عباد أوفياء يفكرون فى إنقاذ رفات معبودهم؟

لم لا؟ لو كان أبى حيًا لأقنعته أنه إذا صح ظنه فلا يوجد مكان أنسب من واحة آمون لنقل الجثمان المحنط والضريح إليه. ألم تكن وصية الإسكندر الأخيرة هى أن يدفن هنا، فى هذه الواحة، إلى جوار أبيه آمون؟

«لو» صح الظن و«لو» صح تفسيرى. مجرد تخمينات. فلا توجد فى التاريخ أى إشارة إلى نقل الضريح. لا دليل ولا مجرد إشارة.

هى فكرة مجنونة . حدس مجنون . لكن كل كشف فى الدنيا بدأ بمثل هذا الجنون ، أليس كذلك؟ فلا صمت إذن ، وليكن هدفى أن أثبت هذا الحدس ، أن أعثر على دليل . مجرد دليل يقود غيرى إلى البحث والتنقيب ثم إلى أعظم كشف فى تاريخ العالم يكون لى أنا الفضل فيه .

لو نجحت فسيعوض هذا كل ما أحتمله فى هذه الواحة . سيعطى لحياتى المعنى الذى أبحث عنه . لكن المهم هو الصبر .

أمامى الآن أقل من ثلاث ساعات فى المعبد فلأحاول أن أعمل شيئًا مفيدًا .



مر الوقت بسرعة، وأنسانى العمل حتى هذا الحر.

قلت لنفسى وأنا أجمع أوراقى وكتبى: حصيلة لا بأس بها. صححت بعض أخطاء الكتب، ونقلت بنفسى صلاة لآمون باللغة المصرية المتأخرة، لكن لم تتحقق معجزة العثور على نص مكتوب باليونانية يقودنى إلى الإسكندر حيًا أو ميتًا. لا بأس. تحدثنا عن الصبر.

انتهيت فى الوقت المناسب. سمعت صوت محمود مقبلاً ومعه إبراهيم ورأيتهما يقتربان.

ثم، فجأة، هزة خفيفة تحت قدمى سمعت معها فى الوقت نفسه صوت أحجار تتكسر. رفعت رأسى بشكل غريزى فرأيت حجارة السقف الذى يربط جانبى البوابة المشطورة يتفكك فى بطء، ثم رأيته يطير فصرخت وجريت أبتعد.

كان حجر كبير يطير من سقف المعبد متجهًا كالقذيفة نحو الولد النائم تحت النخلة.

جريت نحوه وأنا أصرخ فانتفض فى مكانه وجلس ينظر للحجر المنقض.

لن أدركه. هى ثوان!

رأيت محمود وإبراهيم وهما يصيحان ويتدافعان نحو الصبى الجالس مشلولاً يحملق إلى أعلى.

ثم رأيتهم الثلاثة ينبطحون أرضًا، لكنى لم أعرف من منهم أصابه الحجر الذى بدأ يتدحرج بالقرب منهم.

ظللت أجرى نحوهم وكانت الأرض تنشق عن أطفال وكبار، كلهم يصرخون وكلهم يندفعون نحو الثلاثة المكومين على الأرض.

* * *

٨- الإسكندر الأكبر

لدغ الثعبان أمى لدغة الحب فجئت أنا؛ أتاها الإله الكبش ثعبانًا فكنت ثمرة الحمل المقدس. كان أبى الأرضى (فيليب) ملك مقدونيا يهم بالدخول على أمى (أوليمبياس) حين شهد من الباب الموارب مضاجعتها مع الإله الزاحف. رأى الثعبان الأسود الضخم يزحف فوق بطنها الأبيض المرمرى وهى تعانقه فى عشق ورآه يتخللها، فتراجع مغلقًا وراءه الباب فى ورع ورهبة ثم أرسل قربانا إلى معبد آمون - زيوس، الإله الثعبان - الكبش - الصقر الخفى الأسماء.

هذا أنا وهذا نسبى ، فمن أنت أيها الشخص الغريب عن بلدى وعن بلد آمون؟ هل أنت رجل أو امرأة؟ لا علم لى لكنى أظنك امرأة . سأعتبرك امرأة ، ذلك الإلحاح الذى لا ينقطع عرفته منذ صباى من أمى ثم من كل امرأة بعدها . فلماذا تقلقين روحى التى اختارت هذه الأرض الموحشة لتهيم فيها؟ تلحين بالنداء على من دنياكم وتطلبين شيئًا لا أعرف ما هو .

تحسبين أنى أعلم أكثر مما تعلمين . لا . . أرواحنا بعد الموت تجوس فى الظلمة . وأنا الآن مثل سمكة عمياء لا تدرك من المحيط الواسع

سوى أنها تسبح وسط ماء أسود يليه ماء مثله. هكذا أتخبط فى ظلمة من بعدها ظلمة. فهل هذا هو جحيم (هاديس) الذى جعله اليونان مستقرًا للأشرار، بينما تسبح الأرواح الطيبة فى النور مع الأرباب؟ أم هو فناء العدم للخاطئين كما وصفه كهنة المصريين؟ لا أعلم. لا أدرى. منذ غادرت الحياة كنت أستطيع أن أراكم أربعين يومًا لا غير، ثم أطبقت الظلمة من بعدها زمنا لا أستطيع حسابه - أهو يوم أو دهر؟

لا أرى أحدا من عالمكم. لا أسمع صوتا ولا أتكلم، لا ألتقى أرواحا أخرى طيبة أو شريرة ولا أظن أنى أصل إليك أو أوحى لك شيئا. لكن بين الحين والحين يأتى مثلك من ينادينى فيوقظ روحى دون أن أفهم ماذا يريد. لا أعرف شيئًا هنا غير ما عرفته على الأرض. أجتره مرة بعد مرة فأرى صورة حياتى فى كل مرة تنقض ما رأيته منها من قبل.

هل هو برزخ سينجلى أخيرًا عن رحمة ونعمة أو عن عذاب جديد؟ لا أعلم. لا أدرى.

لا أعرف حتى كينونة آمون الذى ألوذ به. هل كان ربًا أو وهمًا؟

وهل كان الكاهن الذى نقل لى الوحى مرشدًا يخترق حجب الغيب أو دجالاً يلفق الأكاذيب؟ غير أن روحى تابعت جثمانى لأسابيع وسارعت لكى أصل هنا قبل الأربعين وأرى معبد آمون لآخر مرة، أريد أن يكون هو أول ما أرى حين يشرق النور من جديد، إن كان سيشرق لكى أعرف الحقيقة.

زرعت أمى فى نفسى اليقين بأنى ابن الإله منذ وعيت على الدنيا. وكيف كان لى أن أكذب أوليمبياس وهى التى نشأت كاهنة فى معابد

الآلهة؟ دلفت إلى عوالم الأسرار الخفية ورأيتها فى طفولتى تنفذ إلى تلك العوالم التى يجهلها البشر. يشتعل فى عينيها الخضراوين بريق آسر ثم تغيم النظرة فى العينين شيئًا فشيئًا وهى تنظر إلى مالا نراه قبل أن يتخشب جسدها وتنطرح أرضًا وتتكلم لغة غير ما نعرفه من لغات الأرض ثم تعود إلينا بعد حين بنظرة صافية فى العينين الساحرتين ووجه رائق جميل. تتلقى وحى الأسرار من وسوسة أوراق الشجر ومن همس النسيم وغناء الطير ووميض النجوم ومن غيب لا نعرفه ثم تبوح لنا بعدها بما خلا وبما هو آت.

وفى العاشرة من عمرى، فى قصر أخيها الملكى أفاقت من إحدى رحلاتها للمجهول وقالت فى بشْر ويقين: رأيتك نسرًا أبيض تحلق فى السماء بأجنحة فضية تمتد وتكبرً حتى تنشر ظلها على العالم كله، تصبح أنت الظل وأنت النور وأنت الشمس وأنت كل ما هو كائن وما سوف يكون. ستسود الأرض ولن يقهرك إنسان وستنعم بخلود الآلهة.

كنت أيامها طفلا حزينا وغاضبًا لأن أبى تزوج من امرأة أخرى وطلق أمى فصحبتنى إلى قصر أخيها الملك بعيدًا عن فيليب ومقدونيا. قالت لى لا تحزن. فيليب ليس أباك. أنت ابن آمون ـ زيوس. لكننا سنرجع مع ذلك إلى مقدونيا قبل أن تمر شهور. ستقضى مع أبيك الأرضى عشر سنين قبل أن ترث منه العرش ثم تحكم من بعدها الدنيا ومن عليها. لم تكذب أى من نبوءاتها الأرضية، فكيف كان لى أن أكذب أنى ابن للإله؟ وكيف يكون لى أبوان، فيليب على الأرض وآمون فى السماء؟ من أكون وما المطلوب منى فى هذه الدنيا؟

ما كان بوسع أحد أن يساعدنى على حل الألغاز أكثر من أرسطو،

أعظم فلاسفة اليونان، استدعاه فيليب ليعلمنى منذ كنت صبيًا ووليًا لعهده، لكنه لم يرشدنى بسهولة إلى الأجوبة. اعتاد أن يدلى بحكمته فى عبارات قصيرة غامضة. كان يبجل آلهة اليونان أو يتظاهر بتبجيلها ولم يقل شيئًا أبدًا عن آلهة المصريين. خاف بالتأكيد من مصير سلفه سقراط الذى أفرط فى الحديث عن الآلهة فعاقبته أثينا، اعتبرته مجدفًا وكافرًا وأرغمته على تجرع السم. أما أنا فكنت متعطشًا للحقيقة ولفهم الغرائب التى غلفت حياتى منذ مولدى. أرادنى أرسطو للفلسفة والسياسة ولكنى كنت مهيئًا لدروس أخرى.

فى بعض الأحيان، فى أحيان نادرة، نجحت فى تطبيق أهم دروس معلمى، أى أن أكبح جماح النفس وأحكم العقل، ولكن أعظم عطاياه لى هى الشعر والموسيقى. قرأت عليه (الإلياذة) ملحمة (هو ميروس) ولازمتنى نسختها التى نقحها بنفسه طول حياتى. ظلت دائمًا تحت وسادتى فى السلم والحرب. وبقيت فى ذهنى إحدى عباراته المحيرة عن أن شعر المآسى يحقق لنا التطهير بما يثيره من مشاعر الشفقة والخوف.

علمتنى معنى العبارة تجربة الحياة ذاتها، وأنا أقرأ الشعر أو أسمع الموسيقى. كم مرة فى حياتى أخذتنى نشوة الشعر إلى عوالم تتجاوز كل ما هو محسوس ومرئى حتى شعرت بأن الحجب بينى وبين المجهول توشك أن تسقط، وأن روحى ستحلق خارج جسدى لتخترق سدود العالم البارد والأصم إلى دنيا الأسرار الأزلية المتلألئة بأنوار الحقائق الخالدة، كم مرة كنت أصحو فى الليل، حتى وسط معارك الحروب التى لا تنقطع لكى أقرأ فى الإلياذة واستنطق شاعرها أن يفجر فى نفسى ذلك النبع الذى ارتوى منه هو! فى مرات كثيرة كان النداء يستمر أيامًا

وليالى بأكملها لا ينقطع فيها إنشاد الشعر وألحان الموسيقى فى البلاط حتى يظن جنودى أن قائدهم قد جُنّ، لعلى كنت أشتاق بالفعل أن يحل بى الجنون، فوسط هذه النشوة كنت أنسى أرسطو وأذكر أمى التى علمتنى أن أحدًا لا يدخل مملكة الأسرار القدسية إلا فى غمار نشوة تهتك المألوف لتلج إلى المجهول.

قلت لنفسى ولكن حتى ولو لم أبلغ ذلك فما أقل الأفراح فى الدنيا!

حاولت أن أطيل هذا الفرح. أنتزعه من الدنيا لكى يدوم، ولكن كان هناك دائمًا إسكندر آخر هو الذى ينتزعنى من الفرح. إسكندر الدم الذى يطرد إسكندر النغم. ظل هناك دائما طوال عمرى القصير إسكندر ضد إسكندر.

لكن الأنغام تقترن فى ذهنى أيضًا بلقائى بآمون فى واحته. دخلت مصر فاتحًا واستقبلنى المصريون كمحرر ومنقذ لأنى خلصتهم من احتلال الفرس الذين أذلوهم وخربوا معابد آلهتهم.

غمرت كهنتهم بالهدايا وقدمت للآلهة القرابين فأحبونى. لم أكن أعبد هذه الآلهة أو أعرفها ونفرت فى البدء من صورها المخيفة. أى شبه بين صور أرباب اليونان بوجوههم البشرية الجميلة النبيلة وبين الوجوه الحيوانية المتجهمة لهذه الآلهة المصرية التى تبعث على الرعب؟ لا مقارنة. أرباب اليونان تصحب العابد إلى ذُرى الأوليمب مأوى الأرباب ليشارك الإنسان الآلهة السمو والفرح. أما آلهة المصريين فأخافتنى وأوحت لى بأن الإنسان غريب عنها وأنه ضئيل فى دنيا تحكمها هذه الآلهة المخيفة. لكنها أيضا قذفت فى نفسى حيرة جديدة. خلقت إسكندر ثالثًا يتساءل: أيهما الأصلح لحياة الإنسان على

الأرض ـ البهجة أو الخوف؟ أيهما أدعى للاستقامة والخير؟ ولم أصل فى أعماقى إلى جواب لكنى حاولت فرض الجواب.

مع ذلك أبديت لهذه الآلهة كل الاحترام، ولم يكن هذا كله نفاقا. كان أيضًا تقربًا مع كبيرهم آمون الذى أملت أن يبوح لى بسر مولدى ومصيرى. سمعت منذ شبابى أن على من يطلب العلم أن يقصد مصر وأن «أفلاطون» معلم أستاذى أرسطو قال إن اليونانيين على كل ما يزهون به من عمل وفلسفة هم مجرد أطفال إذا ما قورنوا بالمصريين، فهل يحقق وحى آمون أملى؟ ذاع صيته فى اليونان منذ عهد بعيد حتى وحدوا بينه وبين زيوس كبير آلهتهم. وقيل إن كل نبوءات وحى آمون فى واحته تتحقق، فأتاه كثير من اليونانيين لاستشارته.

ولكن هل كنت أنا أصدق ذلك؟ نعم.. إسكندر صدق وإسكندر أنكر وأملت فى معجزة على يد آمون تجعل الاثنين واحدًا.

وقتها كانا اثنين فقط.

وضعت أساس مدينتى الإسكندرية على شاطئ البحر ثم قررت أن أتخذ طريقى إلى الواحة. اضطربت الحاشية. خوفونى من الصحراء التى أهلكت جيش قمبيز الفارسى، وكنا وقتها فى عز الشتاء موسم العواصف. وسمعت تهامس الحاشية بأنى ذاهب إلى هناك لأحصل من الكهنة على لقب ابن الإله، مع أن اليونانيين والمقدونيين يكرهون هذه العقائد الشرقية. غاية ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى عقيدتنا أن يصبح بطلاً مثل هرقل، أى «خالدًا» ولكن دون مرتبة الآلهة، ما من إنسان تتبناه الآلهة ويصبح واحدًا منها إلا فى مصر التى تؤله ملوكها. وقال رجال فى الحاشية هى نزوة أخرى من نزوات الإسكندر يريد أن يتحدى بها من فشلوا قبله فى قطع هذه الصحراء المتاهة.

سمعت ذلك كله فلم أقل شيئًا، وقدت حصانى على شاطئ البحر غربًا. وخطر لى أننى مثلما روضت هذا الحصان الأسود الجامح عندما كنت صبيا، بعد أن عجز كل فرسان مقدونيا عن إخضاعه، فسوف أروض بالفعل هذه الصحراء.

يممت جنوبًا نحو الواحة ومعى قلة من الجند والأصدقاء. وفى الطريق صادفتنا بالفعل كل المهالك. نفد الماء المخزون فى أوعية جلدية بعد يومين من رحلتنا، تسرب فى الرمل أو تبخر فى الهواء. واستبد بالقافلة الهلع. لكن فجأة نزلت أمطار من السماء فأعادوا ملء الأوعية وقال واحد من الجنود فى حماس هذه عناية الآلهة تكلأ الإسكندر، وهمس آخر بل هو موسم الأمطار ولا معجزة هناك. فابتسمت لنفسى: أيهما على حق؟ ثم إن العاصفة العاتية هبت بعد ذلك وطوحت الرياح والرمال ركْبَنا شرقا وغربًا، وحين سكنت الريح وانجلت زوابع الرمال كنا قد فقدنا الطريق وأنهكنا الإعياء، فلم نعد نعرف أى اتجاه نسلك.

وقرأت بعد ذلك فى حياتى لمن كتب إن سربا من الغربان هو الذى أنقذ القافلة وأعادها إلى وجهتها. قالوا إن هذا السرب ظَلّ يحلق أمامنا بالنهار ويدلنا نعيقه بالليل حتى نهاية الرحلة. وكتب غيرهم يقولون بل ظهر أمام القافلة ثعبان الكوبرا المصرى المقدس وقادنا حتى واحة آمون.

وماذا لو كانت النجوم هى التى هدَت الركب؟ لكن الأحياء تفتنهم أساطير الغربان والثعبان، ولم يختلف اليونان عن ذلك، ولا اختلفت أنا رغم كل تعاليم أرسطو، لكم تمنيت أن أختلف!

وصلت واحة آمون فى صباح مبكر بعد أسبوع وكانت شمس ذهبية كبيرة تغمر معبد وحى الإله. رأيت موكب الحجاج السائرين على

أقدامهم يصعد التل، لكنى وجهت حصانى فى وثبات سريعة إلى أعلى الهضبة فوصلت قبل الجميع. خفق قلبى وأنا أنظر حولى. كل شىء جديد وغير مألوف لعينى. رأيت تحتى وسط الصحراء بحرًا أخضر من النخيل وشمسًا كبيرة أخرى كشمس السماء بالضبط، تبزغ من نبع أسفل المعبد وشموسًا كثيرة أخرى تترجرج وسط البحيرات الزرقاء التى تتخلل الرمال. وأمام مدخل المعبد المزين برسوم زاهية الألوان رأيت كاهنات آمون، يحرك الهواء ثيابهن الشفافة فتتموج أجنحة بيضاء حول أجسادهن الممشوقة الراقصة كأنهن على وشك أن يحلقن بعيدًا وعاليًا نحو تلك الشمس التى يلوحن لها بأذرع ضارعة. كن يغنين غناء خافتًا لم أفهم كلماته ولكن أصواتهن المتهدجة فى ذلك الإنشاد لم ترن فى أذنى كضراعة صلاة بل كمناجاة عشق. عشق لمن؟ للآلهة؟ لآمون وحده؟ لى أنا؟

ترجلت عن حصانى وقلبى مازال يضرب فى صدرى لما أراه وأسمعه ولكل ما ينتظرنى فى هذا المكان، لكنى تحركت مع ذلك بوقار ملك متوجهًا نحو الكاهن الأكبر الذى برز من وسط الكاهنات المنشدات ثم تقدم يستقبلنى. كان حليق الرأس تمامًا، يلبس هو أيضا ثوبًا سابغًا أبيض. انحنى أمامى طويلاً ثم مد نحوى يده ورحب بى متكلمًا باليونانية: إنه كان فى انتظار ابن الإله وسيد العالمين.

أشرت للحاشية التى تبعتنى، فقدمت له الهدايا والقرابين. تقبلها ثم قادنى صوب مدخل المعبد وهمَ صحبى أن يدخلوا معى فأوقفهم بإشارة من يده. لم يكن مسموحًا لغيرى بالولوج إلى الحرم. تقدمنا معًا من باب قدس الأقداس فتوقف الغناء والرقص فى الفناء الخارجى. حلَّ فجأة صمت كثيف وهبت من داخل المعبد سحابة بيضاء من بخور

لم أتنسم فى حياتى مثل شذاه. واجتاحتنى رهبة لم أعرفها فى معارك الحروب التى واجهت فيها الموت.

دخلت حيث يجلس تمثال الإله على عرشه الذهبى ليعلن لكاهنه الوحى فلا ينطق الكاهن عن هوى. وفى قدس الأقداس المعتم ووسط غيمة البخور جاء الصوت عميقا، هادئًا وبطيئًا، نافذًا عبر الجدران من لا مكان ومن كل مكان.

باح آمون أخيرًا بما أراد هو أن أسمعه وترك لى أن أفهمه.

خرجت من المعبد بصحبة الكاهن من جديد فرفع يديه ليصمت الجميع. خشيت أن يعلن شيئا من وحى الإله أمام الجموع، لكنه اكتفى بأن قال إن الآلهة اختارتنى فرعون مصر وإن إلههم (حورس) قد حل فى بدنى منذ اللحظة حلولاً. وما إن أعلنها حتى راحت جموع الكهنة والكاهنات والحجيج من المصريين تهلل وتلوح فى حماس وتشنج وهى تهتف باسم الفرعون الجديد. تهدجت أصوات نساء ورجال ببكاء الفرح.

التف حولى صحبى وجندى يستفهمون بعيونهم عما دار فى لقائى بالإله فاكتفيت بالابتسام. لكن «فيلوتاس» المحارب الشجاع وصديقى الحميم سألنى بما يشبه التأنيب: إذن فأنت إله؟ وحين لم يسمع منى ردًا غمغم وهو يتطلع حوله فى أسف «كنا سعداء بأن بطلاً فحسب هو الذى يقودنا إلى النصر!

فهمت مغزى كلامه وإن غطى عليه هتاف الجموع الهادر الذى لا ينقطع لحظة باسم الفرعون المحبوب، باسمى أنا، الإسكندر فرعون مصر الإله، وسألت نفسى لحظتها عما فعله اليونان بحريتهم التى

يفخرون بها، لم يتوقفوا عن الانقسام والاقتتال حتى كانت مدنهم تبيد بعضها بعضًا، لولا أن وحّدهم أبى فيليب أخيرًا بقوة السيف تحت إمرة مقدونيا. لكن ها هم المصريون - دامت دولتهم آلاف السنين مستقرة بسطوة الأرباب والفراعنة والكهنة، بفضل الطغيان الذى يكرهه هؤلاء اليونان، فلماذا لا أتعلم من مصر دروسى؟ ولم لا أحاول الجمع بينها وبين دروس أرسطو؟

كنت أفكر وأنا أنظر نحو «هيفايستون» أعز الأصدقاء. لم أر فى عينيه الصافيتين تأنيبًا ولا تكذيبًا. كان يصدق. ثم رجعت ببصرى إلى «فيلوتاس» الغاضب. لا يهم. سأقتله بعد حين.

فيما بعد قلت للجميع إنى لن أبوح بشىء مما دار فى قدس الأقداس بين آمون وبينى إلا لأمى «أوليمبياس» حين ألقاها. غير أن العمر انقضى قبل أن نلتقى فمات معى سر اللقاء.

تريدين أن أبوح بالسر لك أنت الآن أيتها المرأة التى تنادينى وتقلق روحى؟

لكنك لست «أوليمبياس»!

* * *

منحتني زيارة آمون فترة من سلام النفس الذى قضيت عمرى كله أبحث عنه مزقًا بين صرامة أبى فيليب، وشطحات أمى، وحكمة أرسطو، ووجدت هذا السلام فى الحرب، كنت قد طردت الفرس من الأناضول وسوريا وفلسطين ومصر. هزمت ملكهم «داريوس» فى كل المعارك التى خاضها ضدى. لكنى بعد لقاء آمون لم أواصل الحرب مع الفرس باعتبارهم أعداء أنافسهم على احتلال البلدان. لا، بل هى الآن حربى باعتبارى إلهًا للعدل أبسطه فى الكون. لم تعد معركة أخرى مثلما ظن ملكهم المسكين، بل هى الحرب حتى النهاية. حرب لإنهاء كل الحروب، حرب الأخيار ضد الأشرار ليستتب على الأرض السلام إلى الأبد.

أعد داريوس نفسه جيدًا خلال إقامتى فى مصر. جمع مما بقى من إمبراطوريته جيشًا يفوق فى العدد جنودى عشر مرات. لم يفهم أبدًا أن العدد لا يعنى شيئًا وهذا درس تعلمته من فيليب أبى: يمكن أن تحكم الناس بالقمع والخوف لكن الخائفين لا يمكن أن ينتصروا فى حرب. فى ساحة القتال يجب أن يكونوا أحرارًا، يجب أن يقهروا خوفهم بإرادتهم لا بأوامر قادتهم. تعلمت أن الشجاعة ليست غريزة بل هى بالضبط قهر الخوف القابع فى كل نفس، فضربت لجنودى المثل. لا أصدر الأوامر بل أقف فى المقدمة فى كل المعارك مشهرًا سيفى، أطعن وأتلقى الطعنات ويسيل الدم من كل مكان من جسدى لكنى واثق من النصر. يعدى الإقدام والطعن والدم جنودى فيندفعون ورائى للنصر أو للموت لا يهم. عرفت كيف أُلهِم الجنود أن يسكروا بنشوة الحرب، فينسوا

أنفسهم وهكذا صنعت منهم جيشًا. ولم يفلح «داريوس» فى ذلك أبدًا. مع أنى فى السلم كنت أحكمهم بقبضة من حديد تفوق قبضته، قبضة فرعون إله.

مرة أخرى هزمته فى معركتين كبيرتين، ففر جنوده وهو من ورائهم، بعث رسلاً يعرض أن نقتسم العالم معًا وأن يعطينى من كنوزه وثروات إمبراطوريته المكدسة كل ما أطلب. ولكن لماذا أقبل نصف العالم وأنا أثق أنه كامل فى قبضة يمينى؟ وكيف تغرينى ثرواته التى ستكون فى كل الأحوال غنيمة لى أوزعها على جنودى؟ أضحكنى أيضًا عرضه أن يزوجنى ابنته التى كانت أسيرة فى معسكرى مع أمه ونساء أسرته منذ أول معاركى معه. رددت على عرضه بأن أطلقت سراح السبايا بمن فيهن أمه وأنزلتهن مكرمات فى واحد من قصوره التى استوليت عليها فى زحفى. غير أنه لم يفهم رسالتى وانتظرنى من جديد بجيش ضخم فى عاصمة ملكه المنهار - «برسيبوليس» مجد الإمبراطورية وموطئ عرش ملك الملوك وصولجانه. وللمرة الثالثة والأخيرة كانت هزيمته وفراره ليجمع جيشًا جديدًا. لكنى أدركت كما أدرك جندى أن تلك هى نهاية الحرب مع الفرس ونهاية دولتهم.

وكان عدلاً بعد ذلك أن أدمر تلك العاصمة وأن أحرقها. ألم يحرق الفرس أثينا الجميلة درة اليونان قبل قرنين من الزمان؟ لم أصغ لنصائح قواد جندى ورجال بلاطى الذين اعترضوا من تدمير «برسيبوليس». سألونى لماذا صفحت عن المدن الفارسية الأخرى التى استوليت عليها ورممت معابدها وكسبت قلوب سكانها؟ لماذا أدمر العاصمة وقد أصبحت بكل قصورها وثرواتها ملكى؟ تركتهم يتكلمون ثم رفعت شعلة قذفت بها قصر ملك الملوك وأشرت للجنود أن يفعلوا مثلى

فتأججت النيران فى القصر حتى صار كرة من الدخان واللهب. أضخم من أى نار أخرى أشعلها الفرس لمعبودهم. ثم ماذا عن قربان أكبر؟ ماذا عن العاصمة بأكملها قربانًا مشتعلاً؟

لم يكن ذلك عدل إله وإنما انتقام إنسان تسكنه الكراهية، كان أزيز الحرائق وفحيحها يغمرنى بنشوة كنشوة الخمر، فارتعت من نفسى. وتساءلت من جديد: من أكون حقًا؟ من أنا؟ وسأسأل هذا السؤال كثيرًا فيما بعد: لماذا أفعل الشىء ونقيضه؟

غير أنى لم أدمر مدنا أخرى بعد «برسيبوليس»، بل شيدت مدنًا جديدة. إسكندريات أخرى. عفوت عن القادة المهزومين فى الأرض التى حررتها وجعلتهم حكامًا على الولايات التى كانت تحت سلطانهم بشرط أن يدينوا لى بالولاء ويصبحوا حكام مقاطعات من إمبراطوريتى المقدونية. ألفت بين قلوبهم ورممت معابد آلهتهم، غير أنى أقمت معابد لإله جديد يجب أن يعرفوه جيدًا ويقدموا له القرابين أيضًا، اسمه الإله الإسكندر بن آمون.

لم أهتم بتململ جندى من اليونان والمقدونيين. عليهم أيضًا أن يعبدوا الإله الذى قادهم إلى نصر لم يحرزه من قبل بشر ولن يحلم به من بعده إنسان. كيف كان ذلك الفتح ممكنًا إلا لإله؟

دانت لى الأض. ضممت إمبراطورية فارس كلها إلى مقدونيا ثم انطلقت بجيشى فغزوت كل الأرض شرقًا. اجتحت الوديان والصحارى واخترقت الجبال الوعرة التى هلك كل من حاول عبورها حتى بلغت قارة الهند نفسهافأخضعتها. غزوت آسيا حتى أقصى برها وبحرها وتحققت نبوءة أوليمبياس وآمون لى بأنى المنتصر أينما حللت، فأصبح علىّ الآن أن أعود لأفتح الغرب بعد أن فتحت الشرق.

لكن ليس قبل أن أنجح فيما لم ينجح فيه قبلى إنسان ولا إله سأصنع عالمًا جديدا على غير مثال. عالم تتحد فيه أجناس البشر، وتتكلم لغة واحدة هى اليونانية أرقى اللغات، لغة الإلياذة، وتتزاوج الشعوب فيما بينها فلا يبقى إلا جنس واحد يعمر الأرض.

ألحقت الفرس الذين هزمتهم بجيشى وحاولت المؤاخاة بينهم وبين جندى. غير أن المقدونيين واليونانيين اشمأزوا من اعتبار أعداء الأمس، البرابرة، أندادًا لهم فى رفقة السلاح، فلم يثننى ذلك عن خطتى. تزوجت من ابنة داريوس التى كانت أسيرتى منذ بدأت الحرب. وفى ليلة عرسى عليها زوجت ثمانين من قادة جيشى من نبيلات فارسيات، وشجعت جندى من المقدونيين على أن يفعلوا مثلى، فكانت آلاف من هذه الزيجات.

حلمت أن أملأ الأرض بنسل جديد من سلالة الأوروبيين والآسيويات فلا تكون بينهم بعد ذلك ضغينة ولا حروب. أراد الإسكندر أن يحقق ما عجز عنه غيره من الآلهة ـ أن يخلق عالمًا لا يكون فيه أشقر وأسمر ولا فرق فيه بين من يعبد زيوس أو نار الفرس أو آلهة الهند.

وتساءل إسكندر: هل كان لابد من أجل هذا الحلم أن أخوض بحرًا من الدماء، دماء المهزومين ودماء جنودى؟

ورد إسكندر آخر. نعم، ما دام ذلك فى النهاية من أجل خيرهم. لا يفهم أحد حكمة الآلهة، فلماذا يتعين أن يفهموا حكمتى أنا؟

وتهامست الحاشية أن الإسكندر أصبح طاغية مثل طغاة الشرق. يلبس ثياب الفرس الأعاجم ويجلس على عرش «داريوس» ممسكًا

بصولجانه. لعله نسى حرية اليونانيين فلم يعد يقبل أن يناقشه أحد ويريد أن يجعل العالم كله رعية له.

وأراد بعض جنودى العودة إلى الديار بعد أن انتهت مهمتنا فى آسيا، فسرحت من الجيش من أراد العودة إلى اليونان، وبقى معى الخلصاء من القادة وعلى رأسهم «هيفايستون» صديق عمرى وجنود قومى المقدونيين الذين توحدوا بجيش لم يهزم أبدًا.

لم يعد بوسعهم بعد أن أدمنوا خمر النصر أن يتراجعوا حتى لو حدثتهم أنفسهم بالاستجابة لنداء العقل أو الأسرة أو الأبناء.

ومع ذلك لم تتوقف المؤامرات على حياتى ممن بقى من جندى، وأثار ذلك غضبى وحزنى فازددت إقبالاً على الشراب. أقمت ولائم وسهرات تراق فيها دنان النبيذ دون حساب. لم يكن أحد يجارينى فى الشراب، ولعلى كنت أشرب أكثر من غيرى لأنى أكثر حاجة من الجميع إلى الخمر التى تجمع فى غيبوبتها شظايا الإسكندر المبعثرة لتجعل منه واحداً. أو لعلها على العكس تمامًا كنت تنثر تلك الشظايا فأرى أشلائى وأنطق بما لا أبوح به فى صحوى.

عندها لم أتردد فى قتل من يريد إفاقتى لأصبح الإسكندر الذى يريده هو.

وأى من آثامى يفوق ما فعلته فى إحدى تلك الولائم بالجندى الشجاع الذى أنقذ حياتى؟ «كليتوس» الذى ألقى بنفسه فوقى عندما سقطت من فوق حصانى جريحًا فى بدء معاركى مع الفرس وتلقى فى جسده السهام بدلاً منى. لكن الإسكندر فى تلك الوليمة كان يصفى حسابًا مع فيليب أبيه الأرضى.

كنت أفخر أمام جنودى بأن كل حروب فيليب وانتصاراته فى أرض اليونان لا تساوى شيئًا بجانب ما حققته أنا فى آسيا. بل إن فيليب ما كان له أن يحرز انتصاراته اليونانية لو لم أكن أنا القائد الحقيقى لجيوشه فى الحروب التى خاضها. لماذا تدخل «كليتوس» فى هذا الشأن بينى وبين فيليب؟ جرؤ على القول إنه لولا انتصارات أبى فى أرض اليونان لما فعلت أنا أى شىء، وأن فيليب كان يحارب هنا رجالاً بحق بينما حاربت أنا نساء فى آسيا. أنسيت ساعتها كل شىء. لم أر أمامى كليتوس الذى أدين له بحياتى، بل عدواً ينتصر لفيليب كى يهزم الإسكندر. ثم إنه ارتكب الخطيئة العظمى ـ أنكر بنوتى للإله الأعظم! قال متهكمًا إن مصارحته هذه لى أصدق من نبوءات أبى. فى جنون اختطفت رمحًا من أحد حراسى ثم طعنته فى جنبه وأنا أصرخ فى وجهه فليرجل عنى إذن ليلقى فيليب الذى يحبه!

غير أن نافورة الدم التى انبثقت من جرحه أمام عينى ولطختنى أرجعت الإسكندر الذى بعثرته الخمر كثيرا من الناس والآلهة ليصبح إسكندر واحدا.. إسكندر ضائعا مرعوبًا. ظللت لحظة أحدق فى جثة كليتوس تنزف دمها والرمح مرشوق فيها. أفكر هذا صديقى.. نديم لهوى وفى القتال أشجع رجالى.. لولاه لما كنت الآن حيا.. هو الذى يرقد الآن قتيلا.. صرعته بيدى.. وبصرخة باكية انتزعت الرمح من جسده ووجهته نحو صدرى.

لو أن يدى المخمورة بلغت قلبى لحظتها بالطعنة التى أردتها لوفرت على نفسى أيامًا وسنين لم تضف سوى المزيد من الحيرة. غير أن الحراس كانوا أسرع منى فانتزعوا من يدى الرمح وسقطت على الأرض برغمى. قضيت الليل كله ممدداً إلى جوار الجثة أبكى كليتوس وأبكى مرتاعًا من الوحش الذى يسكن تحت جلدى الإلهى.

لم يهبنى آمون الحق فى قرابين من البشر، وإنما كان ذلك من وحى أمى أوليمبياس التى لم تتورع أبدًا عن القتل ولم تعرف الندم. أما أنا فعندما جاء الحراس ليأخذوا الجثمان من خيمتى، فقد أمرت ألا يدخل علىّ بعد ذلك أحد. تمددت مكان الجثمان ثلاثة أيام لم أذق فيها الطعام ولم أبرح مكانى. ظللت مثبتًا نظرى فى السماء أضرع إلى آمون والآلهة أن يجمعوا أشلائى مرة واحدة.. ولو فى جثة.

أدرك حراسى وحاشيتى أنى أسلمت نفسى للموت، فاقتحموا خيمتى وراحوا يتوسلون إلى أن أنهض وأعيش وطاوعتهم لأنى كنت أريد أن أطاوعهم. لأن لحظة الاشتهاء الحقيقى للموت لم تكن قد حانت بعد.

وكان من بينهم فى ذلك اليوم «كاليستنيس» زميل دراستى على يد أرسطو وابن أخت معلمى الفيلسوف. كان مؤرخ حملاتى الذى خلّد أمجادى الحربية. تضرع إلىّ أن أعيش، لا لنفسى وإنما لمجد مقدونيا كى لا يضيع.

لم يدر ساعتها أنه يطلب الحياة لجلاده. توسل إلى أن أعيش فعشت وإنما لكى أقتله بعد شهور. قبضوا عليه متهمًا فى مؤامرة لاغتيالى ودافع عن نفسه دفاعًا بليغًا، كعادته وكما تعلم من خاله، لكى ينفى عن نفسه التهمة. لكن بلاغته هى التى أكدت شكوكى. فالحقيقة بسيطة لا تحتاج إلى زخرفة الكلام. وعليه فقد أمرت بقتله مع بقية المتهمين بعد تعذيبهم. ثم إنى ندمت من جديد بعد موته وسجنت نفسى مرة أخرى أبكيه وأبكى نفسى. وخطر لى فى وحدتى أنى حين قتلته كنت أقتل أيضًا. إلى الأبد، أرسطو فى داخلى وصدى دروسه عن السعادة التى تأتى من الحكمة والتعقل.

فكرت أن كل تجربتى فى الحياة مضت على عكس ما علمنى إياه. هو يريد دولة وسطًا لا هى بالكبيرة ولا بالصغيرة ليسهل حكمها، أما أنا فبنيت إمبراطورية بامتداد العالم. وكان يريد حكومة وسطًا لا هى من الأثرياء ولا من العامة وإنما من أوساط الناس الحكماء فكيف كان سيرى حكم البطل الإله الذى يوحد العالم كله تحت سلطانه؟ ويريد السعادة الوسط بين الإفراط والتفريط والتى يتحكم العقل فى معرفة حدودها. وكنت أتساءل فى أى مكان من الدنيا يا معلمى القديم يمكن أن توجد هذه الحياة المحكمة إلا فى حديقة أكاديميتك تستمتع بالحديث عنها مع تلاميذك وأنتم تمشون فى ظلال الأشجار جيئة وذهابًا؟

كل تلك الدروس اكتسحتها زيارتى لآمون ولقائى بكهنة المصريين المتحدثين باسم الأرباب.

هناك تعلمت أن الخوف لا الحكمة هو أساس الملك. تعلمت أنه لابد من إخافة العامة دائما بالعقاب والعذاب على الأرض وفى السماء لكى يعرفوا الطاعة والاستقامة، تعلمت أنه يجب على الحاكم ألا يسمح للعامة بالحرية أو بالمتعة بل عليه أن يعلمهم أن يجدوا المتعة فى الخوف. يجب أن يعبدونى فى الخوف وبالخوف. هذا هو أثمن درس تعلمته من آمون والمصريين. طَبقته فنجح، لا فى مصر وحدها بل فى كل مكان. كنت أسمع صدى هتاف المصريين الجنونى المتهدج بالبكاء لفرعونهم الإسكندر فى هتافات أخرى فى أرجاء آسيا للإله الفاتح الجديد.

ووجدت بالطبع دائمًا أولئك القلائل من المتمردين الذين يحلمون بالحرية، وهؤلاء غالبًا ما كان يتكفل بهم العامة أنفسهم قبل أن أتكفل بهم أنا، يكشفون مؤامراتهم ويفرحون لسقوطهم لأن أولئك الحالمين يريدون أن يسلبوا من العامة نعمة الطمأنينة فى الخوف.

لم أنس أبدًا واحدًا من هؤلاء المتمردين، غلامًا فى السادسة عشرة من عمره، واحدًا من أبناء النبلاء المقدونيين الذين يحرسون خيمتى هم آخر من توقعت خيانتهم لكنهم فعلوها. وشى بهم واحد منهم بأنهم يتآمرون على حياتى فأمرت بالقبض على الجميع.

وجرؤ زعيمهم الصبى أن يقف فى وجهى ويتحدانى وأنا أحقق معه.

قال: «تسأل كأنك لا تعرف! نعم، تآمرنا عليك لأنك لم تعد تتصرف كملك مع رعاياه الذين ولدوا أحرارًا، بل كطاغية مع عبيده. تريد من المقدونيين أن يركعوا أمامك ويعبدوك كإله وتتنكر لأبيك فيليب نفسه فهل يدهشك أننا لا نحتمل غرورك؟».

كأن ذلك الطفل سيعلمنى! كيف لصبى مثله أن يدرك خطتى الإلهية لمجد مقدونيا ولسلام العالم؟ ربما اعتقد أنه سيؤثر فى نفسى حين قال: خذنا الآن إلى ساحة الإعدام لنكسب بموتنا ما كنا نسعى إلى كسبه بموتك.

حكمت بالطبع بقتله هو وبقية زملائه المتآمرين بتعذيبهم على عجلة عصر العظام وتكسيرها.

ثم جاء كالعادة بعد الإعدام العزلة والندم. اختفى الإسكندر الإمبراطور الإله وظهر إسكندر مسكين.

لم تفارقنى فى عزلتى صورة ذلك الغلام الشجاع. أدركت أنه إنما بالحق نطق. نعم بالطبع أنا طاغية مهما سقت لطغيانى الأسباب. حكمت الرعية بالخوف فأفرخ الخوف الطاعة كما أردت لكنه أفرخ معها الخيانة. خاننى أقرب الناس إلىّ وتآمروا علىّ مرة بعد مرة. لم يجد أى منهم شجاعة ذلك الصبى ليواجهنى بما قاله. ربما لأنهم لم يخونوا مثله

من أجل مبدأ وإنما طمعًا فى أن يرثوا سلطانى، ولكن لماذا خان هذا الصبى زميلُه ووشى به وببقية زملائه وهو يعرف أنه يدفع بهم إلى التعذيب والموت، هل هو أيضًا الخوف أو الطمع؟

فكرت طويلاً فلم أعرف أين نقطة البدء فى سلسلة الطغيان والخوف والخيانة، أيها يلد الآخر؟ وهل كنت أنا بالفعل صانعها أو واحدًا من ضحاياها؟

فى العزلة التى رافقتنى فيها صورة الغلام القتيل اختفت صور الإسكندر الكثيرة ولم يبق غير إسكندر واحد يدرك أنه بلغ نهاية طريق. جربت كل شىء - النصر والمجد اللذين لم يواتيا أحدًا قبلى، ولذة الحكم والسلطان، أعفو كإله وأقتل كإله، وجربت نشوة الشعر والموسيقى، ومتعة النساء والخمر، فلماذا لم أصبح سعيدًا؟

حاولت فيما بقى من عمر أن أعيش سعادة الإنسان لا سعادة الآلهة. عرفت فى حياتى نساء وأحببتهن، وكانت روكسانا زوجتى الفارسية أقربهن إلى قلبى. لم أعش معها الحب الخارق الذى يضحى الإنسان من أجله بالدنيا كلها مثل حب باريس وهيلينا فى الإلياذة الذى أشعل حرب طروادة، لكن حبى لروكسانا كان هادئا وعميقا. وعشت أيضا الصداقة الحقة مع هيفايستون وكانت عزائى فيما قدر لى من العمر. صداقة كانت تعنى أن كلينا واحد. ذات مرة أخطأت أم داريوس بعد أن أسرناها وخرت راكعة أمامه، تتضرع إليه أن يبقى على حياتها لظنها أنه هو الملك، وعندما أشاروا لها نحوى لتوجه كلامها قلت لها ألا تجزع فهو أيضا الإسكندر.

ولم أكن أكذب. كنت أشعر بالفعل أن هيفايستون هو الإسكندر الأفضل وسط الأشخاص الكثيرة التى تعيش داخلى. كان يمكن أن

يعجب أرسطو. عاش هادئًا معتدلاً ولم يكن يثور أو يعرف الجنون الذى ظل يطاردنى العمر كله. غير أنه استطاع أن يفهم هذا الجنون وأن يصفح. كنت أعرف عندما أنظر إلى عينيه أنه يفهم كل أفعالى المتناقضة ويفهم الحيرة التى تدفعنى إليها والتى لم أفهمها أنا أبدًا.

لكنه رحل قبل الأوان. انتابه المرض عندما بدأت مسيرة العودة من آسيا غربًا وتوقف ركبنا فى مدينة بابل، وهناك قضى نحبه.

تيقنت مع موته أن الإسكندر الإنسان قد رحل، وأن الشظايا الأخرى التى تزدحم فى داخلى ويرعبنى وجودها تنتظر دورها. وقررت ألا أعيش مع هذه الكائنات المشوهة بعد أن أخذ هيفا يستون معه السلام الذى كان يعدينى به فتتوحد تلك الأشلاء بشرًا سويًا. حاولت أن يكون الأمر بيدى فأردت إغراق نفسى فى النهر، لكن روكسانا الوفية أنقذتنى.

وجدت نفسى وحيدًا تمامًا، لكن كان علىّ وأنا فى بابل أن أشرف على آخر حملاتى قبل الرجعة إلى أوروبا، اعتزمت أن أستكشف آخر أرض مجهولة فى آسيا، تلك الصحراء الشاسعة التى يسكنها العرب. جهزت الأسطول الذى سيكتشف جزيرتهم، لكن هاجسًا فى نفسى حدثنى بأنى لن أنهى حتى هذه المهمة الأخيرة فى آسيا. كنت أتأمل بعد موت هيفايستون معنى الأشياء التى رسمت حياتى.

ضمنى آمون إلى زمرة الآلهة الخالدة وآمنت بذلك فتصرفت كإله وأردت إعادة خلق الأرض والبشر، أذكر أحيانًا دروس أرسطو فيجتاحنى الشك فى نفسى وفيما أفعل. فالآلهة الخالدة لا تنزف جروحها الدم ولا تعرف الألم ولا تقدم على الانتحار ندمًا أو يأسًا. وقد حاولت أنا أن أنهى حياتى مرتين على الأقل.

ولعل تلك كانت المرة الثالثة، عندما أسرفت فى الشراب فى وليمة أقامها صاحب مهذار فى بابل. ظلّ يحثنى على أن أواصل الشرب حتى بعد أن استبد بى الإعياء والمرض، لماذا طاوعته لو لم أكن أريد فى أعماقى أن أنتهى؟ فمن بعد الوليمة أصابتنى الحمى التى قضت على حياتى فى أيام.

استغرقت كل مغامرتى فى آسيا سبع سنين وكل حياتى على الأرض ثلاثًا وثلاثين سنة. لم أعرف فيها أبدًا طمأنينة النفس.

فما الذى فهمته أنت يا من تنادينني لتوقظى روحى؟ هل تسمعينني؟ وهل ازددت علمًا؟

هنا، فى عالم الموت أعرف عن يقين أنى لست إلهًا. خلود الآلهة لا يكون فى عماء الظلمة والعجز. أثق الآن أنى لم أفهم وحى آمون إن كان وحيه صدقًا وإن كان آمون إلهًا. فلماذا ابتليت بهذه النقمة؟

الشيء الوحيد الذى صدقت فيه نبوءات كهنة المصريين هى نبوءتهم عما بعد الموت. عرفت منهم أن الروح تحوم حول الجسد وتعيش بعد رحيله أربعين يومًا. ترى كل ما كانت تراه قبل أن تفارق صاحبها. وبالفعل كان هناك إسكندر آخر، إسكندر أخير، يزفر زفرة كتنهيدة ارتياح من زوال تعب لا يطاق وهو يرتفع بخفة، مثل ريشة فى الفضاء ليرقب نفسه. يرقب جسده المسجى ميتًا.

وما رأته روحى بعدها جعلنى لا آسف كثيرًا على فراق الدنيا.

نسوا جثمانى على سرير الموت فى القصر سبعة أيام كاملة ظل فيها خلصائى وقادة جندى يتجادلون حول من يرث ملكى، استبعدوا الجنين الذى كانت تحمله روكسانا وولدًا آخر لى قالوا إنه ابن غير شرعى

فلا يحق له أن يرث عرشًا . ولم تكن كل الحجج إلا وسيلة للوصول إلى ما يسعى إليه الجميع دون أن يبوحوا به . أخيرًا عينوا أخى غير الشقيق نصف الأبله ملكًا لكى يقتسم قادة جيشى الإمبراطورية فيما بينهم .

بعدها فقط تذكروا الإسكندر فحنطونى وطيبونى . وقرروا أن يبنوا عربة تنقلنى إلى واحة آمون التى أوصيت بها مكانًا لدفنى . وما كان لى أن أرى تلك العربة الأعجوبة التى سمعتهم يسهبون فى وصفها وأنها معبد ضخم على جانبيه التماثيل والصور ويضم رفاتى فى نعش من ذهب .

ورأيت أيضا من بكانى .

بكتنى روكسانا وغيرها من نسائى . لكنني الوحيدة التى هدها الحزن هى أم «داريوس» ألد خصومى ، أسيرتى منذ سنين والتى كثيرًا ما أهنتها فى لحظات غضبى . لم تذكر بعد الموت إساءتى لها وإنما تذكرت فقط أنى عفوت عنها حين كنت قادرًا على قتلها وأنى أحببتها بالفعل وقلت لها ذات مرة إنها أمى الثانية .

هى وحدها التى بكتنى حتى الموت . وحدها التى قالت إنها لا تستطيع الحياة بعدى ، فامتنعت عن الطعام والشراب حتى ماتت بعدى بخمسة أيام حين كان أقرب صحبى يتصارعون على ملكى .

كيف فاتنى طول حياتى أن أدرك عمق ذلك الحب؟ وما الذى فاتنى فى الدنيا غيره؟

كانت روحى تراها وترافقها وتصرخ لتحدثها ولكن دون صوت .

كانت تصرخ لها ألا تموت من أجلى ، لأنى فى الواقع لا أستحق .

* * *


Twitter: @ketab_n

القسم الثانى



٩ـ محمـــود

أزمتى؟ تسألنى كاثرين عن أزمتى؟ أسأل أنا نفسى؟

ها هى أزمتى. فى لحظة واحدة بانت أزمة محمود عبد الظاهر الحقيقية.

فى ثوان معدودة سقطت صورة ماض كاذب رسمته لنفسى وسقطت معها كل أفكارى المنافقة عن الحياة والموت.

أتباهى أمام نفسى بماض بطولى وأتعمد نسيان لحظة الخزى. أعتبر نفسى فى الشرطة مظلومًا وشهيدًا ولعلى أسوأ الجميع. الضابط المتمرد! المغضوب عليه بسبب ماضيه الوطنى أيام الثورة! أعجبنى الدور فصدقت نفسى. لعلى تعمدت أيضًا أن أنقل هذه الأسطورة لكاثرين من أول أيام علاقتنا وأحاديثنا العاطفية الممتزجة بالشجن عما فعله الإنجليز بأيرلندا ومصر وعما أصابنى أنا بالذات من الإنجليز.

لكن تعال الآن! انتهى وقت الخداع. ما الذى فعلته أنا بالضبط فى الثورة؟ كنت أجرى من شاطئ البحر إلى المستشفى لأنقل الجرحى والقتلى؟ رجال من أبناء البلد يلبسون الجلابيب، لا الزى العسكرى، صعدوا إلى الحصون وأطلقوا المدافع مع الطوبجية، حملوا على

أكتافهم الجرحى والقتلى من الجنود ومن إخوانهم الذين سقطوا فى القتال لينقلوهم إلى العربات التى كان دورك أن تجرى أمامها. نساء من الإسكندرية أيضًا فعلن ذلك وصعدن إلى الطوابى وجرحن ولم يعتبرن أنفسهن بطلات ولا شهيدات. عشن فى صمت ومتن فى صمت. فما الذى فعلته أنت بالضبط؟

أطلقت النار على البدو بعد أن أطلقوا هم عليك النار؟ ما الذى كان يمكن لأى إنسان آخر أن يفعله غير ذلك ليدافع عن نفسه؟ أصابتك الحرب التى مات فيها الآلاف برصاصة فى كتفك لم تقضِ على حياتك ولا هددتك بالموت؟ لم تأتك الرصاصة حتى وأنت تحاربَ العدو الذى يغزو بلدك. بل هى رصاصة مثل جرح حادثة عابرة فى الطريق، ولكنك عشت عمرك تعتبر جرحها وسامًا تحت الجلد وشارة مجد. . الآن انتهى ذلك كله فما الذى بقى من صورتك؟

بقيت خيانة طلعت زميلك وصديقك القديم، التى ظللت أيضًا تحملها فى داخلك شارة على أن العالم خذلك وخانك. يومها استدعيت أمام قومسيون التحقيق فى النظارة، وهم يحققون مع الضباط المتهمين بأنهم خدموا الثورة أو تعاطفوا مع الثوار. وجدوا ضدى تلك الشكوى القديمة من المأمور الإيطالى ففتحوا التحقيق من جديد.

فرحت حين رأيت طلعت فى القومسيون. أردت أن أسأله عن صحته وعن حالة جروحه لكنى اكتفيت بالابتسام وهز رأسى محييًا فهز رأسه أيضًا لكنه حوّل نظره عنى. ثم بدأ رئيس القومسيون الشركسى تحقيقه معى فوجه إلىّ أسئلة لم أفهمها ووجدتها مضحكة:

هل حصل أمامك كسر اللوحة المصور فيها الحضرة الخديوية أمام قرة قول اللبان؟ لا . لم يحدث .

وهل رأيت أثناء حريق الإسكندرية أفرادًا من الجهادية يوزعون نبابيت على الأهالى ويحرضونهم على كسر المحلات ونهبها؟ لا . بل حدث العكس كما ذكرته فى التحقيق الأول . رأيت جنود الجهادية يقبضون على من ينهبون المحلات ويعدمونهم .

هل يفهم من هذه الإفادة أنى أدافع عن أفعال العصاة فى الإسكندرية؟ ـ لا .

تركنى رئيس القومسيون والتفت إلى طلعت ، يقرأ عليه تقرير المأمور الإيطالى فى الإسكندرية ويسأله عن شهادته ، فأخرسنى ما قاله .

أيّد أمامي ودون أى تردد كل كلمة كتبها المأمور : أنا الذى بدأت بإطلاق النار على العربان دون سبب وحاول هو أن يمنعنى . أصيب بالرصاص بسبب تهورى فى استفزاز البدو ولكنه لا يذكر أننى زرته بعد إصابته فى المستشفى .

وكان هذا كافيًا ليؤيد اتهام المأمور لى بالتغيب عن العمل دون عذر أثناء الحريق . وعندما سأله المحقق إن كان قد سمع ما يدل على تأييدى للعصاة العُرابيين أراد أن يبدو صادقًا : لا ـ لم يسمع منى ما يدل على موافقتى على أفعال العصاة ولكنه أيضًا لم يسمع منى ما يدل على تأييدى للحضرة الخديوية!

لم أصدق لحظتها أنه يقول ذلك كله فى مواجهتى . قلت لنفسى مهما يكن فإن للكذب حدودًا . ليس وهو ينظر فى عينى! لكنه فعلها

وصدقوا كلامه وكذبوا كل ما قلته فى التحقيق الأول، أدركت أنه عقد صفقة مع المأمور الإيطالى ومع رؤسائه فى الإسكندرية.

لا أستطيع أن أغفر له ولم أفهم سر انقلابه علىّ إلا بعد أن شرحه لى اليوزباشى سعيد فيما بعد همسًا وسرًا. ولكننى أفكر الآن حتى ولو لم أغفر له فلماذا ألومه؟ كل إنسان أيامها كان يبحث عما ينقذ به نفسه من السجن أو الطرد من العمل. خائن لكنه واضح مع نفسه. كذب عنى ولكنه لم يكذب على نفسه، كأن كل حماسه للثورة أيام الإسكندرية كان مجرد نزوة. وحماسى أنا أيضًا وحماس البلد كله - مرّ كنزوة طيش عابرة أفقنا من رعونتها بالهزيمة.

فى أى شىء أفضل أنا طلعت؟ لماذا أتعمد نسيان لحظة الخزى والخيانة؟ هما إجابتان قصيرتان فى تحقيق القومسيون أنفيهما من ذاكرتى باستمرار ولكنهما تقبعان داخلى كالجمر:

سؤال: هل كنت تؤيد أحمد عرابى وزمرته؟

جواب: بل كنت من الساخطين على أفعال البغاة.

سؤال: ما الذى علمته عما قام به سعادة محافظ الثغر عمر باشا لطفى أثناء فتنة ١١ يونيه؟

جواب: علمت أن سعادته أمر بتحرك بلوكات الشرطة لقمع الفتنة ولكن أعوان العصاة لم ينفذوا أمره، غير أنى أسأت فهم كلام البدو عن أوامر سعادته لأنى أجهل لهجتهم.

اليوزباشى سعيد هو الذى أوحى إلى بهذه الإجابات. هو نفسه لم يدخل أى لجنة تحقيق. حماه حرصه الذى جعله يلزم الصمت دائمًا ويتحرك فى حذر حتى وهو يخدم الثوار. كان ينصحنى دائمًا أيامها ألا أتكلم. يقول لى: انتبه إلى أن المخبرين فى المحروسة أكثر من سكانها.

لكنه كان يعرف أنى أعرف ماضيه أيام الثورة، وكان يريد أيضًا أن يحمينى فألمح إلى نقطة الخطر فى أقوالى فى التحقيق الأول الذى أجراه بنفسه، وهى اتهام عمر باشا بتجنيد العربان لتنفيذ المذبحة. نصحنى بأن أسحب هذا الاتهام. قال لى عمر باشا كما ترى هو الآن ناظر الجهادية نفسها وثوار الأمس أصبح اسمهم العصاة زدت أنا من عندى فى التحقيق فوصفتهم بالبغاة!

قال سعيد: نحن حفظنا التحقيق الأول. والمصادفة يمكن أن تخدمك فتحفظ النظارة هذا التحقيق أيضًا، وبعد قليل يعدمون كل أوراقه. ربما يهمهم ألا يبقى لاتهام عمر باشا أى أثر فى أوراق رسمية.

خدمتنى المصادفة بالفعل وأبقوا علىّ فى العمل بعد أن خصموا مبلغًا من راتبى ووجهوا إلى اللوم. وكان الثمن بسيطًا - أن أنكر الحقيقة. أن أخون لكى أحافظ على جلدى. وقبلت أنا أيضًا الصفقة.

لكن كان على بعدها أن أقبل وضعى الجديد فى الشرطة كمذنب تم العفو عنه ويبقى تحت المراقبة. جمدوا ترقياتى وعهدوا إلىّ بمهمات حراسة منشآت ومرافقة وفود فى رحلات وأعمال كتابية لا أهمية لها، وسبقنى فى الترقيات بكثير، طلعت الذى اختار البقاء فى الإسكندرية أو أُختيرت له. لكن هذا الاضطهاد خدمنى بالتدريج كوّنت لنفسى صورة الضحية المنسى صاحب القضية.

قضيت بعد التحقيق شهورًا من التقزز من نفسى. كنت أشرب خلالها الخمر كمن يسعى إلى الموت، ثم جاءت نعمة النسيان فأزحت من ذاكرتى خزى الجبن والخيانة. عمر بأكمله وهمّى هو أن أطرد الذكرى كلما أطلَت وأن أنفيها.

لكنها فى هذه المرة ليست ذكرى بل حقيقة .

نعم، رأيت الحجر ينقض على الصبى فاندفعت مع إبراهيم لأنقذ محمود الصغير، لكن فى اللحظة الأخيرة، فى الثوانى الأخيرة حين رأيت أن الحجر الكبير سيصيبنا معًا توقفت. تجمدت خائفًا فى مكانى. كنت أنا الأقرب إليه لكن إبراهيم تجاوزنى بقفزة واحدة واندفع يحتضن الصبى ويدفعه بعيدًا ويرتمى فوقه. أفقت أنا فارتميت بدورى فوق إبراهيم لكن بعد فوات الأوان. بعد أن ضمنت حياتى واطمأننت عليها وبعد أن هشم الحجر ساق إبراهيم.

نجا محمود الصغير لم يصبه خدش، لكن فى تلك اللحظة كان إبراهيم يصرخ وكاثرين من بعيد تصرخ وزحام شديد وصياح حولنا من الأولاد والكبار. رأيت الدم يغمر سروال إبراهيم الممزق فحملته بحرص ومددته على الأرض ودم غزير يتفجر من ساقه التى شقتها شظية حجر كسكين. كان عقلى مشلولاً تمامًا لكنى أتحرك كما لو كان هناك من يملى على ما أفعله. ناولتنى كاثرين منديلا كبيرًا ربطت به الجرح وإبراهيم يتأوه بألم ويشكرنى وسط تأوهاته. لكن حين حاولت أن أوقفه على قدميه، تحولت تأوهاته إلى صرخات ألم مكتومة ودموع تطفر من عينيه بالرغم منه.

قضيت أيامًا بأكملها تقريبًا وأنا أقف إلى جوار فراش إبراهيم. عالجنا الجرح بالمطهرات والضمادات الموجودة لدى الجندى المكلف بالتمريض فى القسم. لكن ساق إبراهيم ظلت تتورم باستمرار وأصبحت آلامه لا تحتمل مع الحمى التى أصابته فبدأ يهذى. ينهض بجذعه ويقول إنه يرى الكوليرا لكنه سيخنقها بيديه قبل أن تهجم على زهران وعلى درويش وسيشكو حضرة الضابط عبد الرحمن لربنا لأنه

يرفض أن يعطيه إجازة . . وحاسب . . حاسب يا سعادة المأمور من الثعابين على الحائط ثم يقع بصره عليّ، فيصرخ إنه لا يريد أن يموت غريبًا وأن علينا أن نعيده لينام إلى جوار قبر أبيه وأمه وأولاده .

كنت أراقبه فى عجز مدركًا أن كل تلك الآلام كان يجب أن تصيبنى أنا لو أنى تقدمت بدلاً من أن أتراجع . لكنى لا أملك الآن شيئًا له غير أن ألازمه لا أفارقه . أحيانًا كان يفيق ويتعرف عليّ فيعتذر لسعادتى عن التعب الذى يسببه لى لكنه يرجونى أيضًا أن أدفنه فى بلده . أحاول أن أُهوِّن عليه فأقول إن عمره طويل بإذن الله وإنه سيشفى بسرعة من هذا الجرح البسيط ويعود كالحصان كعادته . فما هذا الجرح إلى جانب ما حدث له فى الحروب؟

أثرثر بهذا الكلام ومثله لكن رعب موته الوشيك لا يفارقنى . ليس هناك طبيب فى الواحة وحالته لا تسمح بنقله فى قافلة إلى مرسى مطروح أو إلى غيرها .

وبعد يومين من الحمى طلب جندى التمريض أن يحدثنى على انفراد . قال إن إبراهيم يموت بالفعل وإن دمه تسمم . كان يضع على ساقه قرب الجرح المضمد دودًا طبيًا، لكن الدود لم يعد يمص دمه لأن الدم تسمم . وهو يعرف هذه الحالة عندما يتسمم الدم تكون النهاية قد اقتربت . قال إن عظم الساق مكسور والحل الوحيد لكى يعيش هو أن نبتر ساقه ونترك الباقى على الله . سألت : ومن يبترها؟ أنت؟

فسكت .

وفى اليوم نفسه زارنى الشيخ صابر زيارته الثانية بعد إصابة إبراهيم . فى المرة الأولى جاء ليشكره ويشكرنى لأننا أنقذنا محمود

الصغير، وفى هذه المرة جاء بصحبة بعض الشيوخ وأقارب الصبى من الشرقيين لعيادة إبراهيم. لم أستطع التركيز لأسمع ما يقول ولم أفهم فيم يتداولون بلغتهم وهم يحيطون بفراش إبراهيم الغائب عن الوعى والذى يغرق وجهه الشاحب فى العرق. وكنت أنا مثله تقريبًا، لا أكاد أعى شيئًا.

لكن صابر لاحظ حالتى فجذبنى من يدى وبدأ يقول كلاما كثيراً وأنا بالكاد أراه. رددت على كلامه بيأس: يا شيخ صابر إبراهيم يموت، فانتبهت إلى قوله بل سيعيش بمشيئة الله. فحاولت أن أركز على ما يقول: هذه ليست أول مرة تكسر فيها ساق أحد فى الواحة أو تصيبه الحمى ولديهم من يعالجون هذه الحالة. سألته من هُمْ؟ فقال: من يعالجون مرضانا وجرحانا، ألا تصيبنا نحن أيضًا الأمراض؟ وهذا الدود العَلَق الذى تضعونه على رجله لا يفيده بأى شىء ولعله يضره. هو يفصد الدم للصداع لكنه لا يعالج الجروح، أخطأ من نصحكم بوضعه. دع الرجل الذى حدثتك عنه يداويه.

إذن فقد تحدث أيضًا عن رجل؟ قلت: وإن مات يا شيخ صابر؟ فرد تلك أيضًا تكون مشيئة الله.

ولم يكن عندى حل آخر.

قال الجندى الممرض إنه بعد إذن سعادتى يخلى مسئوليته مما يحدث. فهم يسقون إبراهيم أشياء لا يعرفها وقد نزعوا الضماد عن ساقه ويضعون على الجرح زيوتًا ودهونًا ربما تزيد من تعفن الجرح. سألته مرة أخرى: هل تستطيع أن تبتر ساقه؟ فرد لا أستطيع تحمل المسئولية يا أفندم.

كانت كاثرين تتابع حالة إبراهيم وتسألنى عنه فى اللحظات الخاطفة التى أذهب فيها إلى البيت لأغير ثيابى، وعندما سمعت بأنى تركت أمر علاجه للرجل السيوى، احتجّت. قالت: أنا أوافق المرض على رأيه. ما الذى يمكن أن يفعله الطب البدائى فى هذه الحالة؟ بالفعل هذا تسمم فى الساق والجسم ولا علاج سوى الجراحة والبتر.

قلت نافد الصبر لكى أسكتها: تجرين أنت الجراحة يا كاثرين؟ فأدهشتنى بأن ردت: لا مانع عندى من أن أحاول. يمكن أن أساعد المرض. أنا أيضًا عندى فكرة عن التمريض. قلت وأنا أهم بالخروج: المرض أخلى مسئوليته، فقالت: وعليك أنت أيضًا ألا تورط نفسك فى قتل إبراهيم المسكين.

لم أقل لها إنى متورط بالفعل فى قتله. لا يوجد شاهد على تلك الثوانى سواى ولعل إبراهيم نفسه لم يلاحظها ولعله لو عاش لن يذكرها، لكن أنا الذى أحاسب نفسى طول الوقت. ويدهشنى أن كاثرين لا تشعر بأى ندم أو تأنيب ضمير. لا يخطر ببالها أن كل ما جرى كان بسبب زيارتها للمعبد المنكوب فى ذلك اليوم الحار المشئوم. لو أنها فهمت رسالة الحر وعدلت عن الزيارة! لو أنى أنا نفسى قد فهمتها وصممت على البقاء فى البيت! لكننا ذهبنا وتركنا محمود الصغير يجرى وراءنا فى الحر المهلك. لا غرابة فى أن يكون التعب قد هده فنام ذلك النوم العميق ولم ينتبه للخطر لحظة وقوعه. أيقظته أصواتنا بعد أن فات أوان أن يجرى مبتعدًا لإنقاذ نفسه وشله الرعب فى مكانه إلى أن أنقذه إبراهيم وضيعنى.

لكن كاثرين تواصل قراءة كتبها ومراجعة رسومها كأن شيئًا لم يحدث أبدًا. وتبدى تعجبًا لإصرارى على ملازمة إبراهيم طول

الوقت. ومن أين لها أن تعرف ما يدور فى ذهنى؟ تلك المحاكمة التى لا تنقطع للماضى وللحاضر؟ أقول لنفسى ها أنذا قد واجهت الموت الذى تفلسفت فى الصحراء عن إغوائه وعن الهاتف الذى ينادينى، لكنى عندما رأيته ينقض حجراً من السماء ارتعبت. حتى عندما كان واجبًا يتحتم علىّ أن ألبيه، جبنت وتركت غيرى يقوم به. هل هذه إذن هى حقيقتى؟

لكنى لم أولد جبانا. مهما قلت عن نفسى فى الإسكندرية فقد كنت أواجه الموت فى كل لحظة دون تفكير فى الهرب. تحركت دون تردد وسط شظايا القنابل والحرائق ورصاص البدو وعصابات السلب والنهب كأنى أبحث بالفعل عن الموت. فمنذ متى تغيرت؟ منذ اللحظة التى أطعت فيها نصيحة سعيد وتنكرت فى التحقيق لكل شىء؟ لكنى لم أطع سعيد إلا لأنى كنت راغبًا فى قرارة نفسى فى أن أفعل ما نصح به ولو لم يقله.

كان يمكن أن أختار الحقيقة. غيرى فعلوها. لم يكونوا الأغلبية نعم، لكنهم آلاف مع ذلك. احتملوا السجن والطرد من العمل والنفى. كان يمكن أن أفعل مثلهم. أن أجد عملاً آخر، أو حتى أن أسافر إلى الشام وألتحق بأخى سليمان. لم يكن سيرفض مساعدتى، وربما أشركنى معه فى التجارة. أنا الذى اخترت بإرادتى أن أخون وأن أتخلى، مثلما تخليت عن إبراهيم وتركته للقتل.

والآن أعلق كل أملى على أن ينقذه السيويون وينقذونى.

سمحت لهم أن يبدأوا العلاج الذى احتج عليه المرض وكاثرين والذى وافقت أنا عليه يأسًا، ولم يقل الجنود شيئًا ولكنى كنت أرى فى عيونهم أيضًا نظرات الرفض والتأنيب لسماحى بهذه الشعوذة.

لكن بعد أيام من تعاطى إبراهيم لأنواع الشراب التى لم نعرف ما هى ودهن ساقه بتلك الزيوت، اختفت الزرقة التى كانت تضرب ساقه الجريحة وإن ظلت متورمة ثم بدأت الحمى تنحسر بالتدريج. ظل راشد المعالج السيوى يتردد على إبراهيم عدة مرات فى اليوم، يدخل صامتًا ويخرج دون كلمة، ويأتى معه الشيخ صابر أحيانًا، يحيطان بفراش المريض ويتداولان بوجهين متجهمين فيزداد قلقى وأسأل الشيخ صابر عن الحالة وعما سيفعلان بعد ذلك فلا أسمع منه ما يطمئننى. يقول بوجهه العابس: كل شىء بيد الله يا سعادة المأمور.

وبعد أن انحسرت الحمى وأفاق إبراهيم من غيبوبته الطويلة كان بادى الهزال والضعف، فأعطاه زملاؤه حساء وأرزًا مسلوقًا، لفظهما على الفور وساءت حالته من جديد. وعندما سمع صابر بما حدث قال إننا ارتكبنا خطأ كبيرًا وأنه يجب ألا يدخل جوفه شىء غير الماء المسكر إلى أن يقضى الله ما يشاء.

وفاجأنى راشد ذات مرة حين استوقفنى وأنا فى طريقى إلى حجرة إبراهيم وخاطبنى بالعربية التى ظننته يجهلها. قال إنه يفعل ما يستطيع لكن علاج إبراهيم لن يكتمل إلا بعد أن يزول الورم من ساقه. سألته: وما العمل؟ فقال إن الأمل الأخير هو الكَى الذى لا يعرف سره إلا القليل، وأفضل من يعالج به هو بدوى يعيش خارج شالى وليس له سكن معروف. يجب أن أطلب من الشيخ صابر البحث عنه واستدعاءه لأن هذا البدوى يتقاضى أجرًا كبيرًا. قلت: إنى سأدفع للبدوى ما يشاء وسأدفع له هو أيضًا مقابل علاجه لإبراهيم. فرد راشد: أنا أجرى أن يشفى الله هذا الرجل. هو وأنت أنجيتما ابنى من الموت.

سألته بدهشة: محمود ابنك أنت؟ لماذا إذن لم تتكلم قبل اليوم؟

ـ لم أشأ أن أقول شيئًا قبل أن أطمئن إلى أنى فعلت للشاويش كل ما بيدى وسأدعو له الله أن يكتمل شفاؤه.

مرت أيام إلى أن عثر الشيخ صابر على البدوى وجاء بصحبته. كان عملاقًا يلبس عباءة واسعة ملونة بخطوط حمراء ويتكلم بلهجة آمرة فظة. نفرت منه بمجرد أن رأيته وأردت أن أصرفه لكن صابر وراشد كانا يعاملانه باحترام شديد وهما يتحدثان عن قدراته فتراجعت وأمرت كارهًا بتنفيذ ما يريد.

طلب البدوى نارا وضع فيها مسمارًا حديديًا كبيرًا له مقبض خشبى إلى أن توهج بالحمرة وأمرنا أن نوثق إبراهيم جيدًا وأن نفرد ساقه المتورمة تمامًا حتى لا تتحرك. ورجانا إبراهيم المذعور أن نعفيه من هذا العلاج قائلاً: إنه شفى بحمد الله ولا يحتاج إلى شىء آخر، وعينه لا تفارق المسمار المحمى فى النار.

ورأيت أيضًا نظرات استهجان فى أعين الجنود الملتفين حول إبراهيم وقال أحدهم، لعله الممرض، بصوت عال: ربنا يستر. وكنت أنا أهمس بها لنفسى. سمعت عن الكَى من قبل غير أنى لم أره أبدًا ولم أعرف ما هو نفعه لحالة إبراهيم، لكنا فعلنا ما طلبه البدوى. أجلسنا إبراهيم على مقعد وأمسكه اثنان من الجنود من ساعديه وإبطيه واثنان آخران من ساقيه مفرودتين.

استغرق البدوى وقتًا فى تحسس الساق المصابة أسفل الركبة لكن بعيدًا عن موضع الجرح. وكانت تأوهات إبراهيم تزيد والرجل يتحسس بأصابعه الغليظة ببطء تلك الأماكن وفى لحظة توقف وضغط بسبابته بشدة على نقطة معينة فعلت صرخة ألم مفاجئة من إبراهيم. وصاح البدوى بالجنود ألا يسمحوا لإبراهيم بأى حركة قبل أن يلتقط

المسمار من النار بسرعة ويكوى به الموضع الذى اختاره لثوان ثم موضعًا مجاورًا له لثوان أخرى، وسط صراخ إبراهيم وعويله وقال البدوى بشىء من الاستغراب:

كل الرجال يبكون ويصرخون! ماذا تساوى هذه النار جنب نار جهنم؟

لكن هل أحلم أنا؟ هل جننت؟ هناك نار تكوى جلد ساقى فى موضع كى إبراهيم نفسه، ارتجفت وأدرت وجهى واضعًا يدى على فمى لكى لا أصرخ مثله.

كانت رائحة اللحم المحترق تملأ المكان قبل أن يخرج البدوى من ثيابه قارورة فى جراب جلدى صب منها سائلاً على مكان الكَى سمعت له هسهسة متكررة ثم رأيته يكون زبدًا أبيض فوق موضع الحرق. وسرت لحظتها فى ساقى وفى جسدى كله قشعريرة برد وأنا أبذل جهدا لكى أتماسك أمام جنودى.

انتظر البدوى لحظة ممسكًا بساق إبراهيم الذى تحولت صرخاته إلى أنين ألم متصل وعندما جفّ السائل الذى وضعه بدأ يربط مكان الكى بضمادة، وكان يرد على سؤال للشيخ صابر قائلاً:

لا، لن أحضر مرة أخرى، راشد يعرف ما يجب عمله بعد ذلك لتنظيف الجرح، والشاويش سيمشى على رجله بعد يومين. . . . .

ثم أكمل بضحكة عالية: ولكنه سيعرج طول عمره!

غمغمت: لو لم تقلها!

لكنى ظللت واقفا فى مكانى، واثقًا أنى سأعرج لو تحركت.

ظللت يومين أمشى فى المركز والمنزل بخطوات بطيئة لكى لا يلاحظ أحد شيئًا، ثم تحسن الألم فى ساقى. وبعد هذين اليومين قام إبراهيم بالفعل من الفراش وبدأ يمشى وهو يعرج على ساقه التى لم ير لها المرض وكاثرين حلاً سوى البتر.

وعندما جاء الشيخ صابر ليطمئن على إبراهيم بعد أن وقف على قدميه شكرته هو وراشد والبدوى الذى لم أعرف اسمه.

أما كل المكافأة التى كانت عندى للشيخ صابر فهى أن النظارة رفضت طلبى لتخفيض الضريبة وأرسلت إنذارًا بأنه ما لم تصل حصيلة الضرائب فى أقرب قافلة فسوف تضاعف الغرامة المالية وتقرر إجراءات أخرى.

كانت نظرة أهالى البلدة لى قد تحسنت بعد دورى الوهمى فى إنقاذ محمود الصغير، ولكنى قرأت فى عينى صابر وراشد بعد أن سمعا ما قلت الكراهية القديمة تطل من جديد.

انتهت مهلة الغفران.



١٠ـ كاثـــرين

أعرف أنى أرتكب غلطة. سيغضب محمود كثيراً لكن لابد أن أفعل ذلك.

لا أرى أى حل آخر. مرت أسابيع كثيرة هنا فلم أتقدم خطوة فى أى شىء. تعلمت بنفسى كثيراً من اللغات الميتة، لكننى لا أعرف جملة واحدة من لغة هؤلاء الأحياء الذين أعيش معهم وأحتاج إلى مساعدتهم. لم أعد أعمل وتوقف بحثى عن أى دليل يقودنى إلى الإسكندر، لكن يكفى هذا. سأذهب اليوم إليهم بنفسى وبمفردى. سأعتذر لمحمود فيما بعد، لا على ما أفعله الآن فحسب، بل على أنى شجعته من الأصل لكى نأتى إلى هذا المكان.

ساءت حالته كثيراً منذ حادثة إبراهيم. لازمه منذ إصابته وحتى وقف على قدميه. يتصرف كما لو كان مسئولاً عما جرى للجندى المسكين. الأغرب أنه يتحدث بنوع من التأنيب عن زيارتى للمعبد كما لو كانت هى السبب فى كسر ساق إبراهيم! يجب أن يفهم أنها مجرد حادثة ولا أحد مسئول عن القدر. ثم إنها لم تكن حادثة خطيرة جداً مادام قد أمكن علاجها بطب بدائى. لكن محمود يتلهف على الأسباب التى تجعله تعيساً.

لا تنقصنى الآن همومه. هذا الصباح لست على ما يرام.

منذ الأمس والأمور مضطربة. خطاب فيونا الذى وصل مع القافلة الأخيرة أقلقنى بالفعل. ليست رسالة طويلة مليئة بالأخبار كعادتها. قالت فقط إنها ستصل إلى الإسكندرية قريبًا على إحدى البواخر وستأتى من هناك لتزورنى فى سيوة. هكذا فجأة دون مقدمات ولا تفسير. لعلها تتصور الرحلة من الإسكندرية إلى سيوة كالانتقال من مقاطعتنا كونوت إلى دبلن بالقطار! طلبت من محمود أن يكتب إلى أحد من أصدقائه الضباط فى الإسكندرية لينتظرها ويدبر إقامتها هناك حتى نرى ما يمكن عمله. هل أذهب أنا إليها وآخذها إلى القاهرة أو نرتب بالفعل طريقة لكى تأتى إلى سيوة؟ ولكن لماذا؟ حتى خطها كان مرتبكًا ومشوشًا على غير عادتها. ما المشكلة التى تخفينها عنى يا فيونا؟

تزورنى كثيرًا فى الأحلام. فى هذه الليلة رأيت وجهها الجميل يختفى خلف قناع شفاف من الحرير تحاول أن تنزعه عنها بيديها معًا، لكنها كلما حاولت كانت تنزع وجهها نفسه، يصبح كالمطاط كلما شدت القناع.

صحوت فى فزع، غير أنها زارتنى مرة أخرى ولم تكن وحيدة.. جاءت ومعها الإسكندر. يأتينى هو أيضًا كثيرًا فى المنام هذه الأيام. ولكن السبب هو غلطتى. فى هذه الليلة جاءنى بوجه غاضب، ثم رأيت فيونا تحمله وتحتضنه كأنه طفل يبكى، اقتربت منهما فوجدته طفلاً من رخام وفى عينيه الحجريتين دموع غزيرة. أيقظنى محمود من النوم وهو يسألنى: لم تصرخين؟ قلت وأنا ألهث: هناك شىء مخيف فى هذه الصحراء. فقال وهو يربت علىّ هو مجرد كابوس.

نامى يا كاترين ـ سكتّ وأنا أتشبث به فى الفراش لكنى ظللت مفتحة العينين أخاف أن يأتينى النعاس من جديد وظللت قلقة حتى الصباح .

هذه ليست أنا . أنا لا أخاف من الصحراء ولا الأحلام ولا أصدق أى خرافات ، ولكنى خضت تجربة سخيفة لأخاطب روح الإسكندر . لم أصدق بالطبع أن روحه ستظهر لى أو تزورنى لكنى قلت لنفسى إنى أمارس لعبة لتضييع الوقت وأنا سجينة فى البيت بعد حادثة إبراهيم . نفذت ما قرأته فى الكتاب . أغلقت النوافذ والأبواب حتى أظلمت الصالة تمامًا وأضأت شمعة وضعتها على المائدة وإلى جوارها كوب زجاجى مقلوب . لكنى غيرت فى نصيحة الكتاب ـ لم أضع حول الكوب أوراقًا بكل حروف الأبجدية . ما حاجتى إليها؟ وضعت فقط فى جانب من الكوب ثلاثة أحرف (ن) (ع) (م) وفى الجانب الآخر حرفين (ل) (ا) . هذا هو كل ما أريد أن أعرف . أغلقت عينى وركزت كل تفكيرى فى الإسكندر وتمتمت باسمه مرات كثيرة وأنا أمد أطراف أصابعى نحو الكوب ثم وجهت سؤالى : هل سأجدك هنا؟ خرج صوتى مرتعشًا وأنفاسى تتلاحق بالرغم منى . بالطبع كنت خائفة . بالطبع أنا بشر . بالطبع لابُدّ أن يدى المرتجفة هى التى لمست الكوب فتحرك محدثًا رنينًا خافتًا ، فارتعبت وقمت على الفور أفتح الباب والنوافذ .

لن أكرر هذه التجربة . مازلت أومن أن حكاية الأرواح هذه مجرد خرافة . لكن خوفى أثبت أنى مثل كل الناس أخاف من المجهول الذى لا سبيل لفهمه . رعب موروث فلا يجب أن أخجل من نفسى .

لا يجب أيضًا أن أخجل من الأحلام التى تطاردنى فهى جزء من خوفى وأنا التى استدعيتها . أتانى الإسكندر مرتين بعد ندائى الغبّى . .

فى الليلة الأولى جاءنى بصورته المنشورة التى أعرفها، جاء يمتطى حصانًا أسود يحلق فى الفضاء بسرعة بجناحين أبيضين ثم اندفع يهبط فجأة نحوى وهو ينقض علىّ مشهرًا سيفًا لم أر مثل طوله، فصرخت.

وفى الليلة الثانية أرعبنى أيضًا حين جاءنى وله ملامح مليكة وشعره الأشقر مضفور مثل ضفائرها الكثيرة. سألته: لم فعلت هذا؟ فضحك بينما أخذت تلك الضفائر تتحرك وتتلوى وتتحول إلى ثعابين بدأت تزحف نحوى وتلتف حول جسدى، فصحوت أيضًا وأنا أصرخ.

لا - أنا لست على طبيعتى ويجب أن أسترد نفسى. الخطوة الأولى أن أنسى ذلك كله وأن أبدأ العمل، العمل الحقيقى الذى يطرد المخاوف والأوهام.

سأواجه رؤساءهم أنفسهم وليكن ما يكون.



توجهت من بيتنا الواقع أسفل التل وتقدمت صاعدة نحو مدخل المدينة المحصنة. رأيت الأجواد يجلسون كالعادة على مصطبتهم المعرشة بجريد النخيل أمام الباب الكبير.

أعددت فى ذهنى ما أقول لهم. سأكرر ما شرحته لمحمود - إنى لا أبحث عن كنزهم الملعون الذى دمروا المعابد للتنقيب عنه. لا أريد المومياوات أو الآثار الحجرية الصغيرة التى يتلهف عليها الأوروبيون. ربما يطمئنهم هذا الكلام فيساعدوننى. اصطحبت معى كراسة الرسم الكبيرة ليفهموا طلبى وصعدت بخطى مصممة الطريق الضيق الواصل إلى مجلسهم.

ما إن أدركوا أنى أتوجه نحوهم حتى هبوا جميعًا واقفين وراحوا يلوحون لى بأيديهم أن أرجع. لم أهتم بل أسرعت خطوتى. تقدم كبيرهم الشيخ صابر الذى قابلناه مع محمود عند وصولنا إلى الواحة وعرفنا على نفسه. يتحدث عربية راقية تدل على أنه متعلم تعليمًا جيدًا ويتكلم بتهذيب شديد، لكنى نفرت منه. رأيت فى عينيه الضيقتين مكرًا. قد أكون مخطئة مع ذلك. أخبرنى محمود أن هذا الشيخ اهتم كثيرا بمتابعة علاج الشاويش إبراهيم، إذن فهو ليس شريرًا. ثم منذ متى كان الحكم على الناس من ملامحهم يكفى؟ يجب أن أتعلم من درس مايكل ووجهه الملائكى.

نزل خطوات على المنحدر بينما كان بقية الأجواد مستمرين فى الصياح والتلويح لى بأيديهم أن أرجع. لكنى واصلت صعودى

وواصل الشيخ صابر نزوله وعندما التقينا قال لى بهدوء بعربيته الفصيحة وهو يشير نحو زملائه: عفواً يا هانم، ألا تعرفين أن هذا الباب هو باب الأجواد؟

أشار خلفه إلى الباب السميك المصنوع من جذوع نخيل متلاصقة فرددت بعصبية بالرغم منى: أعرف ولكن هل تعرف أنت . .

قاطعنى موجها سبابته جهة اليسار: هناك باب آخر للنساء. عندنا لا يمكن للنساء الدخول من باب الأجواد.

حاولت أن أتمالك نفسى: أعرف ذلك أيضًا. أعرف باب «قدومه» المخصص للنساء، ولكن أنت لم تصبر لتعرف ماذا أريد. أنا لم آت هنا لأدخل البلدة من بابكم ولا من باب النساء، ما الفائدة من دخولها وأنتم . . ؟ لا يهم. أنا جئت الآن لكى أقابل الأجواد أنفسهم. أريد أن أقول لكم.

مرة أخرى قاطعنى بتهذيبه المشبوه: يمكن للأجواد أن يأتوا بأنفسهم إلى حضرتكم إذا أمر سعادة المأمور. نحن فى خدمته وخدمتك، ولكن كما ترين بنفسك فإن الأجواد لم يتعودوا أبدًا أن تقترب النساء من مجلسهم. هذا يغضبهم وسعادة المأمور يعرف ذلك.

ضايقتنى إشاراته المتكررة المقصودة إلى محمود غير أنى فتحت الكراس قائلة أنا كنت أريد فقط أن أسأل . .

لكن لما رأيته يقف أمامى متسمرًا وكأنه مستعد لمنعى بالقوة من الصعود، ورأيت عينيه الباردتين ووجهه الخالى من التعبير، باخت حماستى فجأة فأغلقت الكراس فى عنف: أدرت له ظهرى واستدرت راجعة دون كلمة. وبينما أنزل المنحدر سمعت من خلفى صوتًا متهدجًا يقول بالعربية: يا هانم، انتظرى . . انتظرى . .

التفت ورائى فرأيت شيخًا من الأجواد عجوزًا جدًا، يتوكأ على عصا ويحاول أن يضبط خطواته وهو ينزل بحرص على المنحدر. انتظرته فى ترقب وهو يتقدم نحوى واستغربت لأنه يلبس نظارة مثبتة بدوبارة إلى إحدى أذنيه. هو أول شخص أراه يلبس نظارة فى هذه الواحة.

اقترب منى وخاطبنى بلهجة مصرية:

- لا تغضبى. لا يريد الأجواد بك شرًا. المسألة أن هذا الباب..

- لا تقترب منه النساء! قلت للشيخ صابر إنى لا أريد دخول البلد أصلاً.

- إذن فماذا تريدين؟

سمعت نداءات الشيخ صابر والأجواد الآخرين: يا شيخ يحيى.. يا يحيى..

ظلوا يستدعونه بإشارات أيديهم وهم يصيحون بنبرة غاضبة لكن الشيخ العجوز لم ينظر نحوهم وسألنى مرة أخرى: ماذا تريدين؟ هل يمكن أن نساعدك؟

فتحت الكراس وقلت متلعثمة: أردت أن يفهم الأجواد أنى لا أبحث عن.. ولكن يهمنى أكثر.. أقصد هل يمكن أن يدلنى أحد إن كانت هناك فى المعبد الكبير فى أغورمى أو فى أى مكان آخر كتابات من هذا النوع؟...

ثم أكملت فى اندفاع: أقسم إن ما أبحث عنه لا علاقة له بكنزكم ولا بأى ذهب. بالعكس، ما أبحث عنه يمكن أن يجلب إلى واحتكم ذهبًا كثيرًا وكنوزًا، أقصد..

قال مبتسمًا فزادت تجاعيد وجهه الأسمر:

- لماذا تقسمين؟ أنا أصدقك.

وضحك فجأة ضحكة خافتة وهو يكمل: أنا أصدق أنك عاقلة وتعرفين أنه لا يوجد فى الحقيقة أى كنز لا تحت المعابد ولا فوقها!

ثم وضع سبابته على فمه لأكتم السر، فابتسمت له وأنا أقرب الكراس من وجهه: وإذن؟

كان صياح الأجواد مستمرًا وهبّ بعضهم واقفين كما لو كانوا سيهبطون أيضًا نحونا. وعندها فاجأنى الشيخ يحيى حين احتقن وجهه وصاح بصوت عال قوى لا يناسب سنه ولا جسده الضامر وهو يهدر بكلام كثير بلهجة غاضبة، ملتفتًا برأسه وحده فى اتجاه الأجواد، فواصل بعضهم الصياح والغمغمة لكنهم عادوا إلى الجلوس فى أماكنهم.

أمسك الشيخ بالكراس الذى مددته له وكان يحمله بصعوبة وهو يزر عينيه ثم قال فى حيرة:

أنا أقرأ العربية ولكنى لا أعرف لغة الفراعنة.

قلت مدركة أن ذلك لا يعنى له أى شيء: هذه ليست لغة الفراعنة، هذه لغة يونانية قديمة.

ازدادت حيرة الرجل وهو يتطلع فى وجهى قائلاً: لا يوجد فى بلدنا من يعرف لغات القدماء. انتظرى ربما يأتى بعض الخواجات من بلادكم.

ثم دفع الكراس بين يدى وقال وهو يضحك من جديد مشيرًا إلى

نظارته: أما أنا فأراك أنت نفسك الآن بصعوبة وتريدين منى أن أفرق بين كتابات لا أعرفها؟

غير أنى قلت مرة أخرى بعصبية لم أقصدها: ولكن ربما يمكن أن تدلنى أنت على شىء. كل ما أريد معرفته هو إن كانت هناك نقوش لكتابات كهذه فى المعبد الكبير أو فى غيره. أنا ذهبت إلى معبد أغورمى لكنى لم أستطع أن أتجول أو أن أرى شيئًا. البيوت مغلقة على الآثار.

قال الشيخ يحيى ببطء وقد تغيرت طريقته فى الكلام: إذن فدعى البيوت مغلقة. قلت إنك عاقلة، والعاقل لا يدخل بيتًا لا يفتح له بابه.

ظل ينظر فى عينى مباشرة وفهمت أنه يحذرنى فسألته: ولكن ما العمل؟

- هناك آثار بعيدة عن البيوت وهناك نقوش وكتابات فى كل مكان فى الخلاء، وفى الواحة قرى أخرى غير شالى وأغورمى ومعابد كثيرة فابحثى هناك إن شئت..

- وهل انتهيت من البحث هنا لأحاول فى أماكن أخرى؟ هل بدأت من الأصل؟

- اسمعى. أنا لا أفهم ما الذى تبحثين عنه. ولكن لو كنت مكانك لفكرت مرتين بعد الحجر الذى سقط..

ثم توقف لحظة قبل أن يقول بالهدوء نفسه: لن يصدق أحد غيرى أنك لا تبحثين عن الكنز والذهب. وهم يعتبرون سقوط الحجر عقابًا أو إنذارًا من صاحب الكنز الذى دبر سحرًا ليبعد الناس عن كنزه حتى ميقات كشفه المعلوم.

لم أفهم كل كلامه فقلت :

ولكن أنت نفسك لا تصدق هذه الأوهام؟

تجدد غضبه فجأة وقال هو يشير بيده نحو الأجواد المستمرين فى اللغط : وما أهمية ما أصدقه أنا أو أكذبه؟ المهم أنهم يصدقون. هم ليسوا أشرارًا، بالعكس، هم طيبون ولكنهم خائفون. . ثم زاد وجهه احتقانًا وهو يقول: كل الناس طيبون ولكنهم أغبياء! . . وأنت أيضًا، لماذا لا تفهمين بعد كل ما قلته لك؟ . . مع السلامة! . . انتبهى لنفسك وانتبهى لزوجك . .

استدار ليعود متكئًا على عصاه وهو يكرر منفعلاً: مع السلامة!

أوشكت أن أبتسم رغم أنه أهاننى. كان يحثنى على الرجوع مثل الشيخ صابر من قبله لكنى صدقت بالفعل أنه أراد أن يساعدنى وأن يبلغنى رسالة.



فكرت وأنا فى طريقى إلى البيت أن العجوز قد يكون على حق فى تحذيره. لماذا لا أترك كل شىء بالفعل؟ يمكن أن أعتبر كل قصتى مع الصحراء والإسكندر وهذه الواحة مغامرة فشلت، لكنها ليست نهاية العالم. لن يكون أول فشل وأنا أستطيع دائمًا أن أبدأ من جديد مهما حدث لى. هم يكرهون تجوالى وسط المعابد ويشكّون أنى أريد أن أسرقهم، وربما يزيد إصرارى على البحث من الخطر الذى يهدد محمود.

عرفت منه أن لديه ما يكفى من المشاكل معهم هذه الأيام. منذ بدأ يجمع الضرائب أو يحاول جمعها وهناك شجار كل يوم مع إحدى الأسر. قال لى إنه كلف صابر بجمع الحصص لكنهم يمتنعون عن السداد ويضطر محمود أن يذهب بنفسه أو يرسل جنودا من الشرطة لكن دون فائدة. يقول إن الحصيلة قليلة جدًا وإن الواحة كلها توشك أن تشتعل من جديد. ألا يحسن إذن أن أنكمش أنا وأهدأ حتى تمر هذه الأزمة؟ ولكن فى هذه الحالة ما مبرر بقائى هنا؟ ربما أفضل شىء الآن هو أن نرحل معا. لكن محمود لن يوافق على أن يترك الخدمة ويهرب فيعرض نفسه للعار وربما للسجن. ما العمل؟

وصلت إلى البيت فجلست على إحدى درجات السلم. الشمس اليوم محتملة رحت أراقب أطفالا يلعبون فى الساحة يتلصصون بنظراتهم نحوى بتوجس مستعدين للفرار لو اقتربت منهم. كففت من مدة عن التودد والابتسام لهم أو محاولة الكلام معهم. لا فائدة. واحة

ناكرة للجميل. ألم يعرض محمود نفسه للخطر لإنقاذ واحد من هؤلاء الأطفال؟ كان يجب أن يظهروا له الامتنان لا أن يعرضوه لكل هذه المتاعب. ثم إن كل ما يحدث الآن يفسد ما بيني وبين محمود أو يزيده سوءاً.

عاد يشرب كثيرا منذ حادثة المعبد، وأنا لا أحتمله حين يصبح مخمورا. أقبله حين يشرب كأسين. لا بأس، لكني أتجنبه حين يغلبه السكر. الواقع أننا أصبحنا نتجنب بعضنا وننام في الفراش غريبين معظم الوقت. لم يعد هذا يهمني كثيراً. بالعكس هو يريحني، لا سيما بعد تلك الليلة التي حاول أن يضاجعني فيها وهو مخمور ففشل. جن جنونه. ظل يحاول بعصبية وغضب. يدمدم ويسب نفسه وينهض من الفراش ليدور حول نفسه ويخبط جبينه ثم يعود مترنحًا من جديد ليرتمي فوقي ويحاول مرة أخرى فيشتد غضبه. كانت أول مرة يفشل فيها منذ عرفته وحاولت رغم تقززي منه ومن نفسي أن أهون عليه: ربما هي كأس أكثر مما يجب.. ربما هو مرهق أكثر من المعتاد. لا فائدة.. ظل يحاول إلى أن هدّه التعب وهدّني وأعاد إليّ الذكريات الكريهة مع مايكل..

وما حدث في الأيام التالية زادني نفوراً، بمجرد عودته في ظهيرة اليوم التالي وقبل تناوله للغداء جرني إلى الفراش فنجح. ثم جرب مرة أخرى في المساء ونجح، وكان عنيفًا أكثر من المعتاد رغم علمه بأني أكره العنف. كأنه كان ينتقم من نفسه ومني. وظل على هذا الحال أيامًا وليالي متعاقبة.

لعله اعتقد أن أيام عشقنا واندماجنا الحقيقي مازالت كما هي وأن

احتجاجى هو نوع من التدلل أو المزاح. لا. لم نعد كما كنا. وهو أيضًا، لم أشعر فيما يفعل أن هناك ذرة من الرغبة الحقيقية أو الاستمتاع بالعشق. كل ما كان يريده هو أن يطمئن على ذكورته. وحين اطمأن عاد يتجنبنى فغمرتنى الراحة. شكرته فى أعماقى.

ما كنت أحسب فى لحظة أنى سأسعد بابتعاده عنى، لكن هذا ما فعلته بنا الواحة.

ربما أظلم الواحة. محمود هو محمود، لم يتغير. أو هو كعادته يتغير طول الوقت من حال إلى حال، يشرب الخمر التى يُحرمها عليه دينه، ويواظب على صلاة الجمعة فى المسجد كواجب اجتماعى حتى لا يفقد احترام الناس له، لكنى أراه أيضًا فى بعض الليالى يقفز من الفراش فى الظلام ويغتسل ثم يستغرق فى الصلاة طويلا وهو يبكى، يحدث ذلك نادرا ويدهشنى كثيرا. لا أدرى هل أشفق عليه أم أضحك منه. لكنى أتساءل: بماذا يؤمن محمود حقا؟ وبماذا أومن أنا أيضا؟ كففت عن التفكير فى ذلك منذ وقت طويل. لم أعد أذهب إلى الكنيسة ولم أعد أصلى وحدى. ربما أومن أن الإله سيكشف لى نفسه ذات يوم، لكن الموضوع لم يعد يشغلنى.

حانت منى نظرة إلى الأطفال الذين يلعبون. كم هى مريحة الطفولة! كم هو مريح الجهل! كان الأولاد يحفرون فى الأرض قنوات يصبّون فيها ماء ويضعون على حوافها غصونا صغيرة خضراء ليرووا بساتين تشبه بساتين آبائهم. ولكن أهم شيء أنهم لا ينسون أيضا بناء أسوار رملية عالية حول بساتينهم. يتعلمون الأسوار منذ الصغر. أما البنات فيلعبن على حدة بعيدا عن الصبيان. أسوار أخرى!

لكنى أحب منظر البنات الصغيرات وهن يلعبن. لا أرى الألوان

البهيجة إلا فى ملابسهن المزركشة الطويلة الأكمام. وددت أيضا لو أعرف كيف يجدلن للبنات هذه الضفائر الرفيعة الطويلة التى تحيط برءوسهن مثل تيجان مزخرفة. لكن من سيدلنى؟ أمهاتهن؟ لا يسرن فى الطريق إلاّ جماعات ذاهبات إلى مآتم أو أفراح ولا يظهر منهن غير عباءات زرقاء واسعة. كتل مصمتة تتحرك فى بطء وصمت مثل نذير قادم، فأود أن أصرخ حين أراها: أين البشر؟

وقفت أخيرا فشعرت بدوار من أثر الشمس التى بقيت تحتها أطول من اللازم، وكان علىّ أن أصعد بقية الدرجات ببطء وحذر.

البيت الحار المعتم أفضل بكثير. أغلقت الباب وأنا أحلم أن أستحم بماء بارد وأتمدد فى الفراش فأطرد كل الأفكار - محمود والإسكندر والشيوخ والنساء والأطفال. وهذه الواحة كلها، ثم أنام فلا تأتينى أى أحلام. لكن قبل أن أدخل الحمام سمعت طرقات سريعة متتابعة على الباب.

من يمكن أن يكون؟ لا أحد يطرق بابنا وليست هذه طرقات محمود المعتادة قبل أن يضع المفتاح فى الباب.

من يمكن أن يكون؟

سألت بتوجس: من؟ .. من؟

فردّ صوت متوتر كأن الفم ملتصق بالباب: مليكة!

* * *

١١ ـ محمـــــود

كأنما تنقصنى المشاكل!

ما حكاية فيونا هذه وسط الجو الملبّد الذى نعيشه الآن؟ آمل أن يصل خطابى إلى الإسكندرية قبل أن تصل باخرتها وقبل أن تفكر بالفعل فى المجىء إلى سيوة. إن كانت هى مجنونة فلن تجد دليل قافلة مجنونة يقبل أن يصحبها بمفردها. المشكلة الحقيقية هى أن تجد بالفعل من يقبلها ثم ينتهى الأمر بمصيبة. وسأكون أنا المسئول بطبيعة الحال. يجب أن أحميها فى وقت لا أعرف فيه كيف أحمى كاثرين ولا نفسى.

أطل من مكتبى على باحة القسم حيث يربض المدفع الكبير الذى تركه الجيش قبل أن ينسحب بحملته. يعجبنى كثيرا! مدفع قصير مركب على عجلتين خشبيتين كعجلات عربات الكارو. ما نفعه هنا فى غياب أى جنود من الجيش مدربين على إطلاق المدافع؟ لعلهم تركوه كما خمنت للتذكير بهيبة الدولة. كم نحتاج الآن بالفعل إلى هذه الهيبة!

الواحة تغلى. شجارات واحتجاجات من الأسر فى كل يوم.

عدت. أجلس إلى مكتبى وأمامى الخطابات الأخيرة من النظارة.

تأنيب وتأنيب وتأنيب ثم نصيحة فى صيغة الأمر . يجب أن أستعمل الحزم والشدة مع الأهالى لأن اللين لا يفيد وهذا شيء مجرب . عظيم يا نظارة ولكن أين مدد الجنود والسلاح؟

الشاويش إبراهيم الذى عرف الواحة قبلى ينصحنى هو أيضا : يجب أن أفعل مثل أسلافى أختار بعض الممتنعين عن الدفع وأجلدهم فى ساحة القسم أو أسجنهم هم وعائلاتهم فيكون هذا درسا للباقين . قلت : يا إبراهيم هؤلاء الناس أنقذوا حياتك هل يرضيك أن نفعل بهم هذا؟ . . لا يا سعادة المأمور لا يرضينى ولكن ما باليد حيلة . . نحن وهم تبع الحكومة وهى لا ترحم أحدا إلى أن تأخذ ما تريده . إن عفوت أنت عنهم فسترسل حملة جديدة من الجيش لا تكتفى بالجلد والسجن . شر أهون من شر .

لا أستطيع أن أجادل إبراهيم فى منطقه . عرضت عليه عندما وقف على قدميه أن أعيده إلى المحروسة وأطلب من سعيد بك تسريحه . اعتقدت أنى أخدمه لكن نظرة حزينة أطلت من عينيه وبدا على وشك البكاء وهو يقول أستطيع أن أخدم سعادتك حتى وأنا أعرج . سألته بدهشة : ومتى كلفتك بشيء فوق طاقتك يا إبراهيم؟

قال : الآن يا سعادة المأمور ، فوق طاقتى أن تعيدنى إلى مصر . أنا أحتاج إلى القرشين المدخرين هنا . وورائى كوم لحم فى البلد . سعيد بك ، الله يستره ، يعرف الحالة . قال لى : سافر مع سعادة المأمور ، فهناك ستأخذ علاوة ويمكن أن تدخر شيئًا . يعرف ظروفى لأنه من بلدنا وهو نقيب طريقتنا الصوفية ومن الصالحين . يحب أن يخدم الناس . رأى حالى بعد أن سرحونى من الجيش الذى حلوه بعد حرب الإنجليز .

لم أكن أجد ما آكله أنا والأولاد ولولا سعيد بك الذى توسط لأعمل فى البوليس لضعت وضاعوا معى .

ـ ولكنى أفكر الآن فى مصلحتك وفى صحتك بعد الحادثة .

ـ الحادثة من أمر الله . كان يمكن أن تصيبك أنت لا قدر الله وكان يمكن أن أموت ، ولكن سبحانه كتب لى عمرا جديدا . فلا تحرمنى سعادتك من الانتفاع بهذا العمر .

قلت : لك ما تشاء يا إبراهيم .

وقلت لنفسى : لعلى أكون قد تمنيت رحيله لأنسى مرة أخرى لحظة الخزى التى لم ينتبه هو لها . لكن الأفضل أن يبقى ليذكرنى بها . لم يبق عمر جديد للهرب .

غير أنى لم آخذ بنصيحته فى جلد الأهالى وسجنهم . كنت أذهب مع الشيخ صابر لمقابلة أجواد الأسر التى ترفض الدفع . أحاول الاستفادة من حالة الرضا التى أعقبت بطولتى لإنقاذ ابنهم ، أحاول إقناعهم بأن من مصلحتهم أن يدفعوا حتى لا تعاقبهم الحكومة مثل كل مرة ، فيرد البعض بعبارات غضب واحتجاج لمبالغة الحكومة ويرد آخرون بكلام جميل لكن الدفع ظل مؤجلا باستمرار .

وكان مستشارى إبراهيم أيضا هو الذى لفت نظرى إلى أن معظم الأسر التى يشكوها الشيخ صابر لأنها لا تدفع هى من أسر الغربيين . قلت ربما هو أقدر على اقناع عشيرته من الشرقيين ، فرد إبراهيم الله أعلم لكنى لا أرى كثيرا من الشرقيين يدفعون .

فى الطريق إلى البيت من مركز الشرطة كنت أفكر ما الذى يسعى إليه الشيخ صابر؟ لو كان ما يلمح إليه إبراهيم حقيقيا فهو يريد الإيقاع

بالغربيين لكن الحكومة لا يعنيها إلا جمع الضريبة، وإن قررت إرسال حملة عسكرية كالمعتاد فلن تفرق بين شرقيين وغربيين. هو أذكى من أن يجهل ذلك، فما الذى يريده؟ لا يهم.

المهم كيف أخرج أنا من المأزق الذى وضعتنى فيه النظارة؟ جئت هذه الواحة كارها لها ولأهلها وازددت كرها لهم بسبب عدائهم لى ولكاثرين وحتى للجنود. لكن كلما فكرت فيما فعلناه بهم منذ جئنا حاكمين وجدت أن تصرفهم طبيعى جدا.

لم نأتهم إخوانا بل غزاة. لم نعاملهم كأهل البلد بل كمستعمرين، عليهم أن يدفعوا أموالهم غصبا للفاتحين. فلماذا إذن أغضب مما يفعل الإنجليز بنا أو تغضب كاثرين مما يفعلونه بأيرلندا؟ ذلك قانون الأقوى، نمارسه نحن هنا كما يمارسه الإنجليز هناك. عندما رأوا بادرة تصرف طيب من إبراهيم وما ظنوه طيبة منى غيروا معاملتهم. ولكن ألا يرون بالفعل أنى أختلف عن غيرى؟ لماذا إذن هذا العناد والغباء؟ لماذا يريدون تدمير أنفسهم وتدميرى معهم؟ لا فائدة من التفكير. العجلة دارت ولن يوقفها شىء.

اقتربت من المنزل فوجدت الأطفال الذين يلعبون فى الأرض الخلاء يقفون صامتين وهم يحدقون فى اتجاه البيت وهناك حمار يقف أسفل السلم.

عندما رآنى الأولاد أقترب فروا كالعادة مبتعدين، لكنهم ظلوا يديرون أنظارهم فى اتجاه البيت فى فضول وترقب.

شعرت أنا أيضًا بالتوجس فى اللحظة التى ارتفعت فيها صرخة من البيت.

تجمد الأولاد فى أماكنهم وتعرفت فى اللحظة التى تكررت فيها الصرخة على صوت كاثرين فأخرجت مسدسى واندفعت أثب درجات السلم وأنا أصيح: كاثرين! ما الذى يحدث؟ أنا هنا! أنا قادم!

اقتحمت البيت وأنا أشهر المسدس ثم توقفت عاجزا عن فهم ما أراه فى الصالة شبه المعتمة.

رأيت كاثرين واقفة تمسك جريدة نخل وتضم بيدها الأخرى أزرار قميصها الممزق. ثم انتبهت أنها تضرب بهذه الجريدة برفق فتاة راكعة على الأرض تحتضن ساقى كاثرين وهى تموء.

كررت: ما الذى يحدث؟

وصوبت المسدس دون وعى نحو الفتاة الراكعة ولكن بينما أضغط على الزناد كانت الجريدة التى تمسكها كاثرين تصيب يدى، فطاشت الرصاصة فى الصالة وصرخت أنا من الألم. طار المسدس من يدى وأزاحته كاثرين بقدمها التى حررتها إلى ركن بعيد. كنت أطلق سبابا متصلا وأنا أمسك بيدى المصابة والأفكار تتدافع فى ذهنى أحاول أن أستجمع ما أراه أمامى. هل أرسلوا أحدا لقتل كاثرين؟ قرروا البدء بها بدلا منى؟ وما معنى تجمع الأطفال أمام البيت ونظراتهم الخائفة؟ هذه البنت اعتدت على كاثرين ومزقت ثوبها لعلها حاولت بالفعل أن تقتلها. لكن لماذا تتشبث بساقيها وتقبلهما؟ لا أفهم أى شىء غير أن كاثرين تدافع عن نفسها بجريدة النخل.

هجمت على البنت أنتزع يديها الممسكتين بساقى زوجتى ثم ركلتها وهى تصرخ نحو الباب أريد أن أدحرجها على السلم. لكن كاثرين أسرعت نحوى وهى تدفع الجريدة هذه المرة فى صدرى وتصيح بصوت

لاهث - لم تقتلها بمسدسك وتريد الآن أن يقتلوها فى الطريق حين يرونها نصف عارية؟

رمت كاثرين جلبابا مكوما على الأرض فوق الفتاة المطروحة على الأرض تتأوه وأشارت لها فى غضب أن تلبسه.

نهضت البنت التى كانت ترتدى ثوبا أبيض قذرا واندست بسرعة فى الجلباب الرجالى ولثمت وجهها. بدت ضئيلة كصبى صغير وبدأت تهرول نحو الباب وأنا أسأل كاثرين مشتت الذهن من تكون؟ لماذا تتركينها تذهب؟ كيف دخلت؟ ماذا فعلت؟

لكن البنت استدارت فجأة قبل أن تخرج من الباب ثم نزعت اللثام عن وجهها. انتبهت رغم كل شيء إلى وجه باهر الجمال وهى تندفع نحو كاثرين وفى عينيها الرماديتين بريق خاطف وراحت تشير إلى صدرها وإلى زوجتى وإلى المسدس الملقى على الأرض وهى تهدر بلغتها التى لا نفهمها والدموع تنهمر من عينيها بلا انقطاع ثم اندفعت من جديد وركعت على الأرض عند قدمى كاثرين وهى تحتضن ساقيها وتقبلهما وتنشج نشيجا خافتا كالأنين بينما تواصل الكلام وسط بكائها.

شلتنى الدهشة ووقفت كاثرين أيضًا متجمدة فى مكانها وقد تركت ثوبها الممزق مفتوحا فكشفت كرتى صدرها المتناسق، نصفهما الأعلى عار متماسك شديد البياض ونصفهما الأسفل يشف من حمالة صدرها الحريرية السوداء.

سألت كاثرين فى ذهول وبكاء الفتاة وأنينها يتحول إلى ما يشبه الحشرجة:

هل تفهمين أى شىء؟

فردت كالمسحورة: ولا كلمة واحدة، ولكن أظن أنها غاضبة لأنها تريدنا أن نفهم شيئًا لا نستطيع فهمه، ولهذا تريدك أن تضربها بالمسدس!

ـ وأنا أيضًا أريد ذلك!

أزاح غضب كاسح لحظة الذهول ووثبت أريد الوصول إلى مكان المسدس، فمدت كاثرين ذراعها الخالية ووضعت يدها على صدرى محاولة أن تتكلم بهدوء وسط لهاثها:

أنت ترى، هى مجنونة بالفعل، فلا تكن أنت مجنونا مثلها. لكن الفتاة هبت فجأة ومدت يديها كأنها تريد أن تلمس صدر كاثرين أو أن تحتضنها أو أن تخنقها لا أدرى، فهجمت عليها من الخلف ممسكا برقبتها وبدأت تصرخ وأنا أكاد أخنقها بالفعل وقد تملكتنى غيرة مجنونة وشعور بأنها ستدنس زوجتى لو لمست جسدها بيديها مرة أخرى، وبرقت عينا كاثرين الزرقاوان وراحت هى أيضًا تطلق عبارات سريعة بلهجة أيرلندية لم أفهمها ثم رفعت الجريدة فجأة وهوت بها على رأس الفتاة التى تحاول التملص من قبضتى فصرخت صرخة عالية وشريط من الدم ينساب على جبينها ثم التقطت كاثرين اللثام ورمته فوق رأس الفتاة وهى تحاول أن تخلصها من يدى دفعتها خارج الباب ثم أغلقته خلفها فى عنف.

عندما خرجت البنت انتبهت إلى السكون المطلق الذى أصبح يخيم على المكان. كنت أسمع رغم كل ما يحدث فى البيت أصوات لغط شديد فى الخارج ـ صراخ كبار وصياح أطفال ونداءات ملهوفة متصلة، أما الآن فصمت مطبق. فتحت الباب فلم أر غير البنت تمتطى الحمار

وهى لا تكف عن العويل وتتجه شرقا مولية ظهرها للبلدة التى حل بها سكون الموت. ومن كل الأطفال الذين كانوا يزحمون الساحة وجدت طفلا واحدا فى حوالى الرابعة جالسا على الأرض يبكى ثم جاء رجل يهرول التقط الطفل دون أن ينظر نحو البيت ودون أن يرفع رأسه المنكس ورجع مسرعا وهو يحمل الصغير فى اتجاه البلد. حيرنى ما أراه فتضاعف غضبى وأنا أتطلع للساحة الخالية. اندفعت إلى داخل البيت وأنا أصيح منفعلا:

- خلت الساحة من الصغار ومن الكبار. لا يوجد مخلوق.

كانت كاثرين تجلس على مقعد محتقنة الوجه، فقالت بعد لحظة:

- لابد إذن أنهم عرفوا من هى.

- إذن فأنت تعرفينها؟

- نعم، هى مليكة. الوحيدة التى كلمتنى يوم ذهبت إلى معبد الوحى. يومها قالت لى اسمها لا أكثر وجاءت الآن متنكرة فى لباس صبى كما رأيت. لكنهم اكتشفوا بالتأكيد بعد ذلك أنها الغولة وقد هربت من بيتها.

- الغولة؟ تقصدين أنها ساحرة من ساحرات هذه الواحة اللاتى نسمع عنهن؟

- لا. أقصد أنها الغولة. جرؤت أن تخرج من بيتها قبل أن تنتهى أشهر الحبس.

لم أفهم أى شىء من كلام كاثرين التى راحت تحاول إغلاق أزرار ثوبها ثم قالت فجأة وهى تنتفض تقريبًا:

ـ الغولة قبلت صدرى!

صحت مهتاجا: لا تعبثى بى يا كاثرين! لماذا تركتها تفعل ذلك؟ هل دخلت بيتنا من قبل؟ وما معنى أنها غولة؟

ردت كاثرين بغضبة أشد وهى تنتصب بجذعها فى مقعدها:

ـ وأنت.. وفى هذه الواحة.. قل لى لماذا يراد من النساء أن يكن أعقل من رجالهن؟ ثم كيف تكون أنت حاكم هذه الواحة ولا تعرف من هى الغولة؟

ـ هل هذا أيضًا من واجبات وظيفتى؟

ـ بالطبع! مادمت أنا قد بحثت وقرأت كل كتاب وكل كلام كتبه أى عالم أو زائر مرّ بهذه الواحة، كان واجبك أنت أيضًا أن تبحث وتعرف. كيف تحكم ناسا لا تعرفهم؟..

عندما تهدأ ستندم على أنك فكرت أن تقتلها. وسأندم أنا أيضًا لأنى أوشكت أن أقتلها، لماذا فعلت ذلك؟

ثم سكتت لحظة قبل أن تقول: لكن هى فتاة ميتة على أى حال. سيقتلها أهلها بالتأكيد.

* * *

جلست على مقعد فى مواجهة كاثرين وقلت مغلوبا على أمرى: أرجوك إذن أن تساعدينى على أن أهدأ. سألتك من فضلك من هى مليكة هذه؟ وما معنى أنها الغولة؟ وما الذى حدث فى هذا البيت؟

ضحكت ضحكة عصبية وقالت: انتظر قليلا إلى أن أهدأ أنا!

عادت تسترخى فى مقعدها، وأخذت نفسا عميقا قبل أن تقول بصوت مجهد:

- مليكة لا أعرفها. رأيتها دقيقة واحدة فى أغورمى..

ثم توقفت مرة أخرى واستدركت: وأظن أنى رأيتها مرة ثانية. كان هناك صبى يراقبنى حين ذهبت إلى معبد أم عبيدة أظن أنها هى أيضًا جاءت متنكرة مثلما فعلت اليوم.

- إذن فهى تراقبك منذ مدة. سنرجع إلى هذه المسألة، ولكنى سألتك من فضلك ما معنى أنها غولة؟

تكلمت كاثرين وحاولت أن أركز ذهنى لكنى عجزت عن استيعاب كل ما قالته. سألتنى أولاً: هل لاحظت أن ثوب مليكة الأصلى أبيض؟ هل لاحظت أن شعرها غير مضفور ولا مصفف؟ هل لاحظت أنها لا تلبس أى حلى وأن وجهها يخلو من أى زينة حتى من الكحل فى العينين الذى تكتحل به كل البنات؟

- هل تمزحين يا كاثرين؟ بالطبع لم ألاحظ أى شىء من ذلك وحتى لو لاحظته لما اهتممت. أنا لم أر هنا من البنات غير الصغيرات وهن

يلعبن فى الطريق ولا أعرف ماذا يلبسن أو كيف يتزين عندما يكبرن، فما أهمية هذا؟

ردت أنها هى أيضًا لم تر النساء لكن كل شىء مدون فى الكتب التى قرأتها عن الواحة. الثوب الأبيض هو زى الحداد للأرامل هنا. وحين نضت مليكة ثوبها الرجالى ونزعت لثامها فرأت ثوبها الأبيض المتسخ ووجهها العاطل من كل زينة أدركت على الفور أنها أرملة، وعرفت أنها تعيش العقوبة التى يفرضونها على الأرامل فى هذه الواحة. قد لا تكون عقوبة بل مجرد رعب متوارث من الموت. لا، ليس من الموت، بل من المرأة بالذات لأنهم لا يفرضون هذه العقوبة على الرجل الأرمل، هو حر فى أن يتزوج حتى قبل أن يمر شهر على وفاة زوجته. أما الأرملة فيجب أن تنتظر طويلاً حتى تتطهر من الروح التى تلبستها وجلبت على زوجها الراحل الموت. تظل سجينة أربعة أشهر وعشرة أيام. لا تغير ثوب الحداد مهما بلغت قذارته. لا تستحم ولا تتزين. لا تلبس أيًا من حليها ولا تمشط شعرها. ولكن قبل كل شىء وأهم من أى شىء أنها يجب ألا تخرج من بيتها حتى لا يقع عليها بصر أحد. فمن يرى الغولة خلال هذه الفترة كما يسمون الأرملة لابد أن يصيبه الهلاك لأن ملاك الموت يتقمصها. عليها فى فترة، التطهر ألا تكلم أحدا وألا يكلمها أحد، إلا من تواتيهم الجرأة من أقرب أقربائها ولا يكون ذلك إلا من وراء جدار. يستمر ذلك كله طوال أشهر التخلص من الشر الذى تجسده الأرملة بمجرد موت زوجها، وفى نهايتها فقط يحق لها أن تستحم فى أحد عيون الواحة وأن تسترد حليها وزينتها. لكن الخطر يكون ساحقا فى ذلك اليوم. يدور المنادى فى طرقات البلد محذرا: الغولة آتية إليكم فاحذروا

سوء المصير! يلزم الجميع بيوتهم لأن شؤم الغولة بكون قويا جدا فى اللحظات التى تسبق تطهرها من روح الموت. ومن يراها فنصيبه الهلاك.

كنت أستمع وأنا لا أصدق أذنى، فأستوقف كاثرين وأجعلها تكرر ما قالته مرة ومرتين لكى أفهم، ومع ذلك فاتتنى تفاصيل كثيرة. وعندما انتهت قلت دون تركيز.

أسمع المنادى كثيرا يتحرك ما بين شالى وأغورمى لكنى بالطبع لا أفهم شيئًا من كلامه..

ولم يكن هذا ما أريد قوله فسألتها حين استجمعت نفسى:

وما هو إذن عقاب الأرملة التى تتمرد على هذا السجن؟

ـ تقصد ماذا سيكون عقاب مليكة؟ لا أعرف. لم أقرأ فى الكتب شيئًا عن ذلك.

لم أقرأ أن أرملة تمردت على هذه الطقوس.

ـ لكنك قلت إنهم سيقتلونها.

ـ كنت أخمن فقط..

وتوقفت لحظة ثم قالت بحرارة: أتمنى أن أكون مخطئة. أتمنى ألاّ يفعلوها وأن تنجو مليكة! لكنى أخشى عليها لأنها ارتكبت محرمات كثيرة ضد تقاليدهم. خرجت وهى غولة قبل أن تتطهر، وجرؤت أن تأتى من أغورمى إلى شالى فنشرت اللعنة المهلكة فى البلدة كلها حسب تصورهم.

صحت وأنا أنهض من مكانى: وجرؤت أيضًا على أن تعتدى عليك. لا تنسى هذا.

لوحت كاثرين بيديها متظاهرة بعدم المبالاة وقالت: هى طفلة. وربما تكون مجنونة بالفعل وقد عاقبناها بما فيه الكفاية. ربما أكثر من الكفاية. لن أسامح نفسى أبدا على ما فعلت.

غير أنى لم أستطع أن أشارك كاثرين هذا الصفح المفاجئ. اختلطت أفكار كثيرة فى ذهنى. يجب أن أنتقم! لابد أن أثأر ممن اقتحمت بيتى واعتدت على امرأتى. طفلة أو كبيرة. مجنونة أو عاقلة. غولة أو ملاك. أنا لا أستطيع أن أغفر هذا!

قلت فى غضب: ولماذا اختارت هذه الغولة بيتنا دون كل البيوت؟

فتطلعت كاثرين نحوى فى دهشة وقالت: هل من المعقول أنك لم تفهم بعد؟ ثم صاحت: إلى أين أنت ذاهب الآن؟

فخرجت دون أن أرد.

* * *

١٢ـ الشيخ صابر

رعب أكبر من كل نبوءاتى حلّ بكم يا أهل بلدى! كنتم تسخرون من النبوءات فها قد جاءكم ما يزرى بها. الرعب الذى لا كاشف له والذى دخل بيوتكم منذ خرجت عليكم الغولة. تستدعون الشيوخ والساحرات لمعرفة ما يمكن أن يخلصكم من اللعنة التى تسرح فى الواحة.

لم تخرج الغولة إلاّ بعد ظهر الأمس، لكن فى الليل كان العويل يملأ البلد من شالى إلى أغورمى. نسوة أجهضن فى المساء وأطفالهن أصابتهم الحمى دون سابق مرض! نخلات كانت عفية فى الطريق إلى أغورمى سقطت ميتة بعد أن مرت بها الغولة! وحرائق شبّت فى بيوت لم تكن بها جمرة واحدة تشتعل! فى كل لحظة يأتى نبأ من بيت أو بستان عن مصيبة جديدة، ويرتفع بكاء وصراخ من كل البيوت التى مرت عليها الغولة أو وقع عليها بصر واحد من رجالها وأطفالها. يتوقعون كارثة فى كل لحظة ولا يعرفون سبيلا لمنعها.

أتاكم يا أهل بلدى ما تستحقون. أنا أيضًا لست بمنجى من أن ينقضّ علىّ ذلك الطائر المحلق فوق رءوس الجميع، غير أنى لا أبكى عليكم

ولا على نفسى. فلتكتسح النقمة الجميع ولو هلكت معكم، لكنى سأحاول قبل النهاية أن أذوق طعم الثأر الذى اشتقت له عمرى كله.

وها أنذا أنتظركم أيها الأجواد على أحر من الجمر. أجلس فى سقيفتكم من قبل أن تطلع الشمس.

لن أغفر لأحد. لا للغربيين ولا للمصريين ولا حتى للشرقيين، لن أنسى ما أصابنى منهم جميعًا. قد جاءت اللحظة التى انتظرتها طويلاً وسيكون جمعكم كله أداة طيّعة فى يدى. لم أتوقع أبدا أن تأتى الساعة بهذا الشكل ولا لهذا السبب، ولكن فليكن. كل الطرق تصلح.

الرعب الذى ترهبونه سبق إلىّ وأنا فى الخامسة من عمرى، عندما دبّر يوسف الغربى مكيدته لأبى ولشيوخ الشرقيين. هو أكثر من أمقت من الغربيين ولكنى أسلم له بأنه أحسن تدبير مكيدته. لم أفهمها إلا بعد أن كبرت وبعد أن فاتت فرصة الانتقام منه. لكنى درست كل خطاه لكى أتعلم.

أعيدها على نفسى، أتأملها وأحفظها حتى لا يفوتنى شىء من عبرها وتفاصيلها. بدأ بأن أشاع الفوضى فى الواحة عامدا عندما لم تكَن للمصريين قوة كافية هنا. حرّض زجالة الشرقيين على محاصرة خيمة أحد الأوروبيين الملاعين الذين يأتون لسرقة الآثار من المعابد والمقابر وأوعز إليهم أن يقتلوه ويحرقوا خيمته ومتاعه. . لكنهم من قبل أن ينفذوا ما حرّضهم عليه أرسل يستدعى الرجل وأبلغه أنه سمع أن حياته فى خطر ولهذا فسيستضيفه فى بيته ويحميه. وعندما وصل زجالة الشرقيين لم يجدوه فسلبوا متاعه وأحرقوا خيمته.

كان يوسف يعرف أن المصريين يعملون ألف حساب لسلامة هؤلاء

الأجانب، أكثر من سلامة أبنائهم أنفسهم، فأبقى الرجل فى بيته أياما ثم سافر معه خلسة إلى مصر. وفى القاهرة قال الأجنبى المخدوع إنه لولا يوسف لفقد حياته ولاحترق مع خيمته، فكافأ المخدوعون هناك يوسف بأن عينوه عمدة للواحة وأرسلوا معه قوة كبيرة من الجند المصريين ومن البدو كانت سبب بلوتى.

خيم العمدة الجديد بالجند على مشارف البلد وبعث رسولا إلى شيوخ عشيرتى الذين تحصنوا فى البلدة وأعدوا السلاح للدفاع عن أنفسهم، أبلغهم بأن المصريين لم يأتوا محاربين وأن الشرقيين لو أرسلوا وفدا من شيوخهم فسيبرمون معهم صلحا يعيد السلم إلى الواحة. انخدع قومى أيضًا بمكيدة يوسف وذهب جمع منهم إلى معسكر المصريين، لكنهم ما إن وصلوا حتى قيدوهم جميعا بالسلاسل وأعلنوا أنهم سيشنقونهم. ما لم يلق بقية المتحصنين فى شالى السلاح ويسلموا كبراءهم. وعندما جاءوا لأخذ أبى صرخت وأنا أتشبث به فضربنى واحد من الجنود بعصا كبيرة شجّت رأسى وصفّت ماء عينى.

لا أذكر شيئًا من طفولتى غير تلك اللحظات من الرعب، مازالت تنقض على رأسى حتى الآن عصىّ غليظة وكثيرة تذكرنى بهم فى المنام كما تذكرنى بهم فى الصحو، عينى اليسرى التى لم أعد أرى بها إلا خيالات، ويذكرنى بهم يتمى وضعف حيلتى فى طفولتى وصباى. لكنى تعلمت درسى منذ الصغر، أن أصمت ولا أبوح بما فى نفسى.. فى البدء كان الصمت وليد الخوف الذى جعلنى أنزوى وأهرب من صحبة الناس، ثم أصبح بعد ذلك عادة نافعة، تذكرنى بيوسف الذى استعان بالكتمان وبالحيلة ليصل إلى ما يريد. جعلت هدفى أن أكون مثله لأنتقم من قومه.

لم أدع أحدا يعرف حتى أننى لا أرى بالعين اليسرى سوى هذه الخيالات. ما دامت تبدو سليمة فليعتقدوا أنها سليمة. وعندما أراد أعمامى بعد أن حفظت القرآن هنا إرسالى إلى الأزهر لأتعلم لم أقل إنى لا أحب مصر وأهلها. بل رجوتهم أن أتعلم فى تونس. ولم أندم أبدا على أنى تعلمت فى جامع الزيتونة. قابلت هناك شيوخا من جنوب البلد أفهم ما يقولون ويفهمون لغتى، ويعرفون بلدى وقبائلها.

وهناك قابلت الرجل الذى زوّدنى بكتاب النبوءات. رأيته فى المسجد يحدق فى وجهى حتى أخافنى بريق عينيه. كان عجوزا فانيا لكنه لاحقنى حين خرجت وجذبنى بقوة فكدت أسقط على الأرض. كلّمنى بلغتنا من دون لهجة أهل تونس وقال لى: أنت من كنت أنتظر! أدركت فى التو أنه من عشيرتى لكنى سألته متهيبًا: وأنت من تكون؟ اكتفى بأن أزاح كم جلبابه عن يده الأخرى فرأيت ساعدا مبتورا من منتصفه ثم رفع رأسه فرأيت ندبة غائرة بعرض رقبته تكشف لحمًا أبيض لا يغطيه جلد، وقال لى أنت الذى دلتنى عليه النجوم. أنت الذى ستثأر لى ولنا من الغربيين.

خفت منه ولكنى لم أثق فيه وأردت أن أختبره. قلت: هناك من الغربيين من جرحوا مثل جروحك فى حروبنا وربما أسوأ منك. لم يهتم بما قلت وواصل كلامه: قضيت عمرى هنا فى مطالعة النجوم وحساب الأفلاك وقرأت طالع واحتنا ككتاب مفتوح. لن يكون سلام فى الواحة ما لم يخل وجه الأرض لنا نحن أو لهم هم.

ذكرنى كلامه بشىء، فقلت: حاول واحد من شيوخ الغربيين أيضًا أن يخلو لهم وجه الأرض فلم يفلح. قال: أعرف ولكن أنت ستفلح. مكتوب أنك ستفلح، وإلا فستتحقق تلك النبوءات كلها. ما لم نقض

على أعدائنا فسيكون مصير أحيائكم كمصيرى. أنذر قومك ثم زودنى بنصيحة أخرى ما كنت بحاجة إليها ـ أن ألزم الحذر والكتمان لأن عشيرتى لا تستجيب إلى نصح أو نذير. دأبهم العناد وهو دأب الغربيين أيضًا، ويمكننى أن أصل بالحيلة إلى ما لا أدركه بالقتال. وكنت أحفظ هذا الدرس من قبل أن أسمعه، وتعطشى للثأر من أعدائنا يفوق تعطشه ـ أنا لا أذكر حتى ملامح وجه أبى لكننى لا أنسى حقدى على من قتلوه، أليس من العدل أن أثأر له ولنفسى؟

لم أعرف مدى صدق نبوءات ذلك الشرقى المهاجر لكننى أكررها متمنيا وقوعها وأكررها أيضًا لأخوّفهم بها. بالخوف وحده أستطيع أن أحكمهم.

كل ما فعلته عشيرتى حتى الآن لا يشفى غليلى. صحيح أنهم قتلوا العمدة يوسف فى معركة قبل أن يهنأ بالمنصب عاما واحدا، وأننا انتصرنا على الغربيين بعد ذلك فى حروب أخرى. لكن انتصارنا لم يكن هو ما أحلم به، لم يكن نهائيا بحيث تخلو لنا الأرض كما تمنى كاتب النبوءات، بل نغلبهم ويغلبوننا، نأتلف ثم نفضّ ائتلافنا، وسيستمر ذلك إلى ما شاء الله ما لم نحسن التدبير أفضل حتى مما أحسنه العمدة يوسف.

فكرت من زمن فى أن الحل هو الوقيعة الشاملة بين الغربيين والمصريين دون أن يبدو أن لنا دخلاً بالأمر. لهذا أدارى هؤلاء وأولئك على السواء. أبدو لهم ملاك السلام متمنيا اللحظة التى أصبح فيها ملاك الهلاك لهم، وأحاول كسب ثقة هذا المأمور النافر الذى حل علينا هو وزوجته الملعونة كالقدر.

تظاهرت أيضًا بحماسى لعلاج الشاويش مسايرة لأهل الطفل الذى

أنقذه من عشيرتنا مع أنى ما كنت لأشعر بأى حزن عليه لو دق الحجر رقبته. وسنحت فرصة كبيرة أهدرها قومى كعادتهم. شجعتهم على أن يسددوا الخراج دون الغربيين. أعرف أن امتناع خصومنا ونقص الخراج سيعجل بحملة جديدة من العسكر، وفى هذه المرة سنكون نحن الأبرياء وتكون الحرب بين المصريين والغربيين وحدهم، ويمكن أن أشعل وقودها من بعيد كما فعل يوسف. شرحت لقومى - ولكن بحذر شديد - ما يمكن أن نكسبه لو التزمنا نحن بالسداد وتركنا لخصومنا التمرد والعصيان، لكن الغرور ركبهم: لن ندفع ما لم يدفعوا! كيف نبادر نحن بالسداد قبلهم؟

لا بأس. إن تكن هذه الفرصة قد فاتت فمرحبا الآن بعاصفة الغولة. وفى هذه المرة سأعمل على أن تكتسحهم.

ما الذى يمكنك أن تقوله أو أن تفعله الآن يا يحيى للدفاع عن مليكة؟ أعرف أنك ستكون كالعادة أول الواصلين لكنى أنتظرك فى السقيفة منذ زمن. تفسد علىّ أمرى دائمًا بطيبتك الزائفة وتاريخك الزائف. تقنع المخدوعين بأنك فوق الشقاق والخلاف، لا أنت مع قومك ولا معنا، ولكنى لا أصدقك، أجدك أخبث أهل البلد، لكنى أصبر عليك كما أصبر عليهم. فليساعدنى الله اليوم على أن أخفى شماتتى. أنقذكم أيها الغربيون من القتال موت معبد، لكن ما الذى يمكن أن ينقذكم اليوم مما فعلته مليكة؟ لا يوجد اليوم داع حتى لأن أتكلم، بل الأفضل ألا أفتح فمى. كل شىء يسير حتى الآن كما أهوى. أسمع نهيق حمارك قادما من أغورمى وسأعانقك يا يحيى عند وصولك مثلما اعتدت وأنا أحلم أن تتلاشى ترابًا بين ذراعى.

* * *

يكتمل عقد الأجواد مبكرا عن كل يوم. في وجوه كبار شيوخ الغربيين، إدريس وعبد الماجد ويحيى وجوم وقتامة وأرى في وجوه شيوخ عشيرتي سلام ونافع وعبد الله غضبا مكتوما، ولكن يعلو ذلك كله الذعر الذي يطل من وجوه الجميع. إذن سأزيدكم غمًا.

قلت بصوت حزين وأنا مطرق الرأس: طلبني المأمور بالأمس لكنني لم أفهم ما الذي يريده بالضبط. يريد أن نعاقب مليكة وأسرتها ومن سمح لها بالخروج وإلا فسيأخذ ثأره بيده.

ارتفعت أصوات الأجواد جميعا تلعن المأمور وزوجته واليوم الذي حل فيه بأرضنا وقلت في سري: آمين!

وقال الشيخ عبد الله: ألم يكن من الأفضل لو أنا أخذنا بما قاله الولد مبروك وقتلناه هو وزوجته منذ نزلا بأرضنا ومعهما نذر الشؤم؟

فقال الشيخ نافع: أردنا يومها أن نهرب من مصيبة فوقعنا في المصيبة الأكبر..

وقاطعه الشيخ عبد الماجد: لا تضيعوا الوقت فيما لا يفيد. ما العمل الآن في النكبة التي حلت ببلدنا؟ ما العمل في دنس الغولة الذي نشر الخراب في كل مكان؟

ساد صمت ثقيل لم يقطعه بعد فترة إلا صوت الشيخ يحيى الذي جاء ضعيفا على غير عادته وكأنه هو نفسه لا يصدق ما يقول:

سمعت عن المصائب التي حدثت ورأيت في الطريق من أغورمي نخلة ساقطة. ولكني أعرف أنها كانت نخلة معطوبة منذ مدة و...

قاطعه الشيوخ غاضبين وهبّ بعضهم واقفا وهم يتصايحون: ما معنى كلامك؟ . . في بيت جارى كل الأولاد أصابتهم الحمى. . . العقارب السوداء زحفت من تحت الأرض وملأت البيوت كالنمل. . . رأيت بعيني شجرة زيتون تحترق. . سنموت جميعا لو استمر هذا الحال. . ألا تسمع البكاء في كل البيوت؟

ابتسمت لنفسى وأنا أراهم يكادون ينقضّون عليه، لكن يحيى انتظر إلى أن سكتوا والتفت نحو الشيخ سلاّم الذى تدوّن أسرته أبًا عن جد أخبار واحتنا في سجل مكتوب وسأله عما كان يفعله أجدادنا عندما تحل بهم هذه النكبة.

فردّ عليه سلاّم: لم تنزل ببلدنا مصيبة كهذه من قبل. أعرف هذا عن يقين. ومع ذلك فقد راجعت بالأمس المخطوط الذى يجمع كل الأخبار فلم أجد أى إشارة.

قال الشيخ إدريس والحزن يغلب على صوته: لو قتلنا ابنتنا فهل يمحو قتلها دنس الغولة؟

سكت الجميع. أعلم أنها كانوا ينتظرون سماع ذلك لكنى لم أتمالك نفسى فقلت: سيرضى هذا سعادة المأمور فيرفع عنا غضبه.

انفجر الشيخ إدريس ثائرا: عليه غضب الله هو وزوجته جالبة المصائب! أنا لا أفكر فيما يرضيه أو يسخطه. أمره أهون عندى بكثير من مصيبة الغولة وسننتهى من أمره الآن بإذن الله. . .

نظر له بقية مشايخ الغربيين في تأنيب وأشار له بعضهم بأيديهم محذرين، ولكن يحيى لم ينتبه لذلك كله.

قال الشيخ نافع: اهدأ يا إدريس ودعنا نفكر. ألم تسمع سلام يقول

إن تلك أول مرة تقع فيها هذه النكبة بالواحة؟ أهل البلد ينتظرون أن يجد شيوخهم حلا.

كأنه فتح أمام يحيى سبيل النجاة فرفع صوته وإن ظل مع ذلك ضعيفا ومترددا وهو يلتفت إلى سلام سائلا: ماذا يقول المخطوط يا شيخ سلام عما كنا نفعله بالنسوة عندما يصيبهن الجنون؟

ردّ سلام بدهشة: أى سؤال هذا يا شيخ يحيى؟ كنا نفعل مثلما نفعل الآن - نستدعى شيخا حافظا للقرآن يعرف الأدعية التى تخرج الجن من جسد المرأة ثم نسجن المجنونة إلى أن تشفى أو تموت. لكن هذا ليس جنا يقتصر أذاه على من يتلبسه. هذا شر مستطير عمل له أجدادنا ألف حساب. حاصد أرواح وناشر خراب يتلبس الغولة. عرف أسلافنا خطره ففرضوا على الأرامل الحبس إلى أن ترحل عنهن روح الهلاك...

قال الشيخ عبد الله ببساطة: إذن فلنفعل ما قاله الشيخ إدريس وأمرنا إلى الله فلنقتلها بسرعة لترحل عنا هى وشرها.

فجأة ارتفع صوت يحيى بغضبه المعهود: هل نحن هنا لنجد حلاً أم لتكرروا واحدا بعد الآخر نقتل نقتل وكأن من تلبسكم أنتم جميعا هو عزرائيل.. أستغفر الله..

رأيت يحيى يتخبط كصيد فى فخ فوجدتها فرصة لألقى سهما وقلت بهدوء: مهما يكن ما فعلته مليكة يا أجواد فحكايتها الآن لا تخص أسرتها وحدها..

تلقف الشيخ عبد الله الخيط الذى مددته فقال: صدقت يا شيخ صابر. مليكة ابنتنا جميعا والخراب الذى تنشره يصيبنا جميعا، فليس للغربيين الآن أن يكون لهم وحدهم الرأى..

ظل يحيى يتخبط فى الغضب: هل سمعتنى أو أيا من أجواد الغربيين الآن ينفرد برأى، أم أننا نتشاور كما تقولون ونسأل الشيخ سلام عما كان يفعله الجدود عندما تحل بنا المصائب؟

فقال الشيخ عبد الله، وفى صوته أيضًا رنة الغضب: بصراحة يا شيخ يحيى، أنت لا تريد أى حل يمس هذه البنت أس البلاء.

قال يحيى عاجزا عن أن يسيطر على نفسه ولا على صوته: وأنت أيضًا تريد قتلها؟ نعم يا شيخ عبد الله مليكة ابنتى وأنا أحبها، لكن لو أعرف يا أجواد أن موتها يزيح عن الأرض الخراب الذى تتكلمون عنه.. لو أقسمتم أنكم تعرفون أن قتلها هو الذى يرفع الدنس عن البلد فلن أقف فى طريقكم.. ولكن ماذا لو ماتت وظل كل شىء على حاله؟

تبادل الأجواد النظرات لكنهم لم يكونوا يستمعون الآن إلى ما يقوله يحيى. كانوا يرهفون السمع إلى ضجة آتية من ناحية حدائق أغورمى فانشرح قلبى.

مرّ فى الطريق تحتنا بعض زجالة الغربيين وهم يجرون حاملين بنادقهم دون أن يرفعوا رءوسهم نحونا، ثم انضم إليهم عشرات أسفل البلدة يحملون البنادق والرماح والعصىّ وهم يصيحون بهتافات الموت للمأمور وللكفار وأطلق بعضهم عيارات نارية وهم يمضون فى اتجاه قسم الشرطة.

أدرك الشيخ يحيى ما يحدث فوقف يتكلم صارخا ليعلو صوته على ضوضاء الطريق:

يا شيخ صابر أوقف هؤلاء المجانين! هم الذين سيجرّون على البلد الخراب..

رفعت صوتى أيضًا ليسمعنى: وهل يمكن أن يصيبنا خراب أكثر مما نحن فيه يا شيخ يحيى؟ هم رجالكم فأوقفهم أنت.

اقترب من الشيخ عبد الماجد وانحنى فوقه وراح يهزه من كتفيه:

تعرف أنى لا أستطيع أن أجرى ولا أن ألحق بهم. أنت شاب يا عبد الماجد فاجر وأوقفهم! قل لهم إننا جرّبنا ذلك من قبل فلم نجن سوى الحرب والمشانق والسجون.

أحنى عبد الماجد رأسه لكى لا يواجه يحيى وقال بصوت سمعته بالكاد:

ـ فات الوقت يا شيخ يحيى.

اعتدل يحيى، وقف يقلّب بصره بين الجميع وقال بصوت متهدج:

إذن فقد اتفقتم على هذا من قبل أن نأتى. أنا الوحيد الذى أجهل؟

قررتم البدء بالمأمور ثم تستديرون إلى مليكة؟ كان كل تشاوركم كالعادة كذبا فى كذب؟

أراد أن يصرخ لكن صوته اختنق وهو يقول: ولو حاربتكم وحدى!

لم يرد عليه أحد. ولو ردوا لما سمعهم وسط طلقات البنادق وهتافات الزجالة، فأسرع خطوه مترنحا وهو يتكىء على عصاه يريد أن يهبط التل، لكن بينما يتأهب للنزول ساد صمت مفاجىء.

توقفت الطلقات والهتافات وتطلعنا جميعا فى اتجاه قسم الشرطة.

وقفت أنظر فرأيت الزجالة وفى وجوههم ذعر، وتطلع بعضهم نحونا وهم يشيرون محذرين نحو الجنوب فى اتجاه قسم الشرطة، لكن

قبل أن يقولوا أى شىء كانت كرة من النار تتفتت فى السماء وتتساقط مطرا من شرارات اللهب ثم أعقبها الرعد الذى هبّ له الشيوخ صارخين والأرض ترتج والسقيفة ترتج ويتساقط جريدها فوق رءوسنا شظايا وتُرابا وصياح النسوة أعلى حتى من دوى الانفجار وكل الزجالة الذين هاجموا مركز الشرطة يرجعون متخبطين يدفع بعضهم بعضا ولا يرفعون من يسقط منهم على الأرض لكن بعضهم وجدوا الوقت أثناء فرارهم ليلتفتوا نحونا ويصرخوا كأننا لم نفهم بعد : المدفع!

كان الشيوخ يدورون حول أنفسهم ينفضون عن أنفسهم التراب وهم يسعلون، ولما اختفت ضجة الزجالة وتفرقوا وتحول صراخ النسوة إلى نحيب هدأ روع الشيوخ وإن ظلوا واجمين وهم يرون مكان كتلة النار سحابة دخان بيضاء مدوّرة ثابتة فى موقعها بين الأرض والسماء تعلقت بها الأبصار كأنها تستفهم عن المصير ورائحة البارود تملأ الفضاء.

ولم يتأخر الجواب. ظهر المأمور محمود عبد الظاهر أسفل التل ممتطيا حصانه الأبيض يحيط به عدد من رجال الشرطة على جيادهم.

توقف لحظة تحت السقيفة ثم وثب بحصانه وثبتين معتليا التل كأنه يقصدنا قبل أن يتوقف من جديد وينظر نحونا.

تكلّم دون أن يترجل عن جواده، قال بصوت عالٍ ولكن بنبرة هادئة مشيرا إلى السحابة البيضاء.

هذه كانت للإنذار فقط يا أجواد. فى المرة المقبلة سيدك المدفع أسوار بلدكم وبيوتكم كما جرّبتم من قبل فى حملة الجيش. .

لوى عنان حصانه ليعود من حيث أتى لكنه توقف مرة ثالثة وعاد يصيح :

يا شيخ صابر. أريد الضريبة كاملة خلال أسبوع. أبلغنى بأسماء الأسر التى تمتنع، وأريد أن يأتى غداً إلى القسم بعد صلاة الفجر الشيخ إدريس والشيخ عبد الله معا.

ثم انصرف مع جنوده وبقى كل الشيوخ صامتين، وظللت أنا أقف ذاهلاً. حتى بعد أن أحكمت التدبير!.. حتى بعد أن ساعدنى القدر بكارثة الغولة!.. حتى وهى هذه المرة بين المصريين والغربيين وحدهم!

وقع بصرى على يحيى الذى تجمد فى مكانه عند منحدر التل موليا لنا ظهره منذ غادر الجمع. التفت برأسه نحونا مرة واحدة وهو يهزّ رأسه كأنما فى حزن قبل أن يواصل هبوطه فى بطء.

تمتمت كأنى أخاطبه - لا يهم يا يحيى. ستكون هناك مرة أخرى!

* * *

١٣ ـ كاثرين ـ محمود ـ الشيخ يحيى

كاثرين

هل حدثت كل هذه الأشياء بالفعل من الأمس إلى اليوم؟

جاءت مليكة وتعانقنا وتشاجرنا وأوشكت أن أقتلها، ودوت فى الواحة طلقة مدفع ثم أصبحت أنا الغولة السجينة بدلا من مليكة؟ هل كل هذا الكابوس صحيح؟

منذ ساعة أصدر محمود أمره أن أبقى فى البيت، لا أخرج منه ولا أفتح بابه. كان متعجلا يريد أن يخرج وأنا أسمع صهيل خيول أسفل منزلنا، وجنوده فى انتظاره ليعودوا معا إلى القسم بعد أن أطلق المدفع. قبضت على ذراعه وأوقفته بالقوة وطلبت أن يشرح لى السبب. قال بنفاد صبر وهو يحاول أن يخلص ذراعه من يدى: إن حياتى فى خطر. البلد تعتبرنى أنا المسئولة عن كل ما حدث منذ خرجت مليكة من بيتها. سألت فى غضب: وهل أنا التى طلبت أن تأتى أم هى التى اقتحمت بيتنا؟ الخطأ فى الحقيقة خطؤه هو من البدء. هو الذى طرد مليكة من البيت بفضيحة، وهو الذى هدد أهل البلد طالبًا ثأرا لم يفهموه ولا فهمته أنا.

رد قائلا : إن ما حدث قد حدث ويجب أن أفهم الآن أن الهدوء الذى يسود الواحة بعد طلقة المدفع هدوء زائف . هم يدبرون الآن شيئًا بكل تأكيد ، فلأبق فى البيت إلى أن يجد حلا . صرخت : إنى لا يعنينى تهديدهم وأنى أفضل الموت على أن أبقى سجينة ، فصرخ بدوره وهو ينتزع ذراعه : إننى أستطيع أن أموت حين أشاء ولكن ليس هنا وليس بسببه ولا تحت مسئوليته . خرج غاضبا وهو يقول إنه سيضع جنودا أمام البيت لمنعى بالقوة إذا ما فكرت فى أى تهور ، وسمعته يغلق الباب بالمفتاح من الخارج .

لم تمض سوى ساعة لكن السجن الإجبارى يخنقنى . أبقى أياما كثيرة فى البيت لا أغادره ـ أقرأ وأكتب ، وإنما باختيارى . الآن لا إرادة لى . محمود يرتد ليصبح مايكل ! وأنا؟ ماذا أصبحت؟

لم أجد عندى أدنى رغبة فى عمل شىء فاستسلمت للرقاد فى الفراش محدقة فى سقف الغرفة . ما الذى يحدث لى بالضبط؟ ألوم نفسى منذ الأمس وصورة مليكة لا تفارقنى . . إن يكن محمود قد ضربها وركلها فأنا أوشكت أن أقتلها بالفعل . نهاية سيئة لبداية جميلة .

فرحت حين فتحت لها الباب وخفق قلبى بالفرح حين رأيت وجهها الجميل بعد أن نزعت لثامها . وتقدمت هى بارتباك فى الصالة وراحت تشير نحوى وتشير إلى نفسها ثم أخرجت من لفافة قماش مطوية تمثالين حجريين صغيرين لامرأتين ، وقدمتهما لى وهى تبتسم .

تأملتهما بدهشة ، تمثالان بدائيان لكن فى نحتهما رشاقة أنثوية وانسيابية تليقان بتكوين المرأة . أين عثرت عليهما ، ولماذا تقدمهما لى؟ نظرت لها بدورى مبتسمة ومستفهمة فاقتربت منى وأشارت إلى رأسى التمثالين فأخذت أنظر إليهما مذهولة . كان لأحد التمثالين ملامح وجه

كوجهى وللآخر ملامحها هى . سألتها بالعربية وأنا أمد نحوها التمثالين : من؟ !

أردت أن أسأل عمن نحتهما لكنى لم أعرف كيف أنقل لها ما أريد، فأمسكت هى بالتمثالين وراحت تقرب الواحد منهما من الآخر فيصطكان ثم تعود فتشير إلىّ وإلى نفسها، ثم رفعت التمثالين أمام وجهى وقاربت بينهما كأنهما يتعانقان . ظللت أنظر إليها . كانت ظمآنة على ما يبدو لأنها كانت تلعق شفتيها الممتلئتين بلسانها . لكنى لم أعرض عليها أن تشرب، كأن عقلى توقف فجأة عن العمل فوقفت مشدودة البصر إلى شفتيها القرمزيتين وإلى عينيها الرماديتين الآسرتين .

شجعها صمتى وابتسامتى فوضعت التمثالين على المائدة واقتربت منى فى تردد . واجهتنى حتى أوشكت أن تلتصق بى وأنفاسها اللاهثة تلفح رقبتى، ثم رفعت يديها ببطء وأحاطت بهما كتفى واحتضنتنى بمنتهى الرقة فمددت ذراعى حولها واحتضنتها بدورى لكنى فجأة صرخت «لا»! ودفعتها بعيدا عنى وكانت هى تتشبث بكتفى فتمزق ثوبى وأنا أدفعها بعنف وأكرر «لا . لا! أنا لست سافو»! لم تفهم مليكة أى شىء، فوقفت بعيدة عنى تطل بنظرة جريحة ودموع تتجمع فى عينيها، ثم راحت تتكلم بسرعة بلغتها وأنا أكرر : أنا لست سافو! فعادت إلى تماثيلها تضم أحدهما للآخر وأنا أهز رأسى لا لا بتصميم وغضب، فألقت التمثالين فى الأرض بعنف فتحطما واقتربت منى وأدركت من لهجة كلامها أنها تتوسل إلىّ أن أفهم ما تقول رغم جهلى باللغة ثم ركعت أمامى على الأرض واحتضنت ساقى بأصابع متشنجة وهى تبكى بكاء خافتا ثم شبت على قدميها ببطء دون أن تفلت أصابعها عن ساقى ثم فخذى ثم وسطى قبل أن تدس رأسها وتقبلنى

بين نهدى المكشوفين بشفتيها المبللتين بدموعها ولعابها - ويعاودنى السؤال من لحظتها حتى الآن، هل كانت الرعشة التى شملتنى عندئذ اشمئزازاً أو لذة؟ هل اختطفت جريدة النخل وضربتها بها عندما عادت تركع تحت قدمى لأعاقبها أو لأثبت أن هذا الإغواء لا يمكن أن يلمسنى؟

رحت أكرر لنفسى: «أنا لست سافو!» نعم أحفظ أشعارها عن تلميذاتها وعشيقاتها لكنى لست مثلها. وكنت أتمتم لنفسى فى انفعال بهذه الجملة الوحيدة: «لست سافو. لست سافو!» وأنا أقاوم أن أمد يدى من جديد فأرفعها من الأرض وأدس وجهها فى صدرى لكنى بدلا من ذلك اختطفت جريدة النخل ورحت أضربها وأخيرا أوشكت أن أقتلها. هل كنت فى الحقيقة غاضبة منها أو من نفسى؟ غضبت لأنها قبلتنى أو للرعشة التى شملتنى حين قبلتنى؟ وأسأل نفسى منذ الأمس لماذا لم تفارقنى صورتها منذ رأيتها أول مرة؟ لماذا انفعلت وخفق قلبى بالفرح عندما طرقت بابى؟ ولماذا أحفظ أشعار سافو إن كنت أرفض حبها النسوى؟ وأرد على نفسى بأننى أحفظ الكثير من الشعر اليونانى القديم من هوميروس وحتى أشعار «ألكايوس» حبيب سافو الرجولى!

لكن بعد أن انصرفت مليكة قمت أحاول جمع حطام التمثالين اللذين هشمتهما وأحاول تشكيلهما من جديد دون جدوى. تفتتا إلى شظايا لا يمكن إصلاحها. لكن أية أنامل حساسة نحتت هذا الجذع ونمنمت هذه اليد وهذه الوجنة؟ أيعقل أن تكون هى نفسها، مليكة؟

وبينما كنت أتحسس بيدى تلك البقايا المهشمة كانت تدور فى ذهنى برغمى تلك الأبيات لسافو:

لم أسمع كلمة منها!

عندما فارقتنى كانت تبكى .

تمنيت لو أنى متّ . .

باحت لى قبلها بكلام كثير

قالت لابد من احتمال هذا الفراق يا سافو

فأنا أفارقك برغمى

قلت إذن فاذهبى واسعدى!

لكن ما كان بوسعى أنا أن أقول لمليكة اذهبى واسعدى وأنا أعرف ما ينتظرها على أيدى أهلها . لو أنها تنجو لو أنها تعود! لا . .

أنا لم أكن هكذا أبدا! أنا لست هكذا أبدا!

كاثرين ، كم مرة قلت هذه العبارة أخيرا؟ قلتها عندما حاولت أن أستحضر روح الإسكندر ، وعندما سعدت بابتعاد محمود عنى والآن عندما خضعت لإغواء مليكة . وإذن فمن أكون؟ يوجد شىء هنا يغير الإنسان . فى هذه الواحة المعزولة فى جوف الصحراء السحيق . شىء يغيرنا . لا يجب أن أستغرب أن يطلق محمود المدفع ليصد جيشا من الحفاة بعد أن تحول بغرابة من كاره للواحة إلى عاطف على أهلها . دعك الآن من محمود ، ماذا عنك أنت؟ أريد أن أقول كلانا تغير فى هذه الواحة لكن لماذا لا يكون الأمر هو العكس؟ لماذا لا يكون كلانا فى هذه الواحة قد وجد حقيقته؟

لا! هذه ليست حقيقتى! . .

لكنى لم أسمع كلمة منها عندما فارقتنى . . .

* * *

محمـــود

لا يمكن الآن التوقف أو الرجوع إلى الوراء. أنا مسئول الآن فقط عن هؤلاء الجنود الذين يركضون ورائى بخيولهم. لكل منهم أسرة وبيت وأحباء بعيدا عن هنا. كنا قريبين جداً من الموت قبل ساعة. احتجنا إلى معجزة لنفلت من مجزرة. الآن نحتاج معجزات أخرى. لا يخدعهم هذا الهدوء ولا يخدعنى.

وصلنا إلى القسم فوزعتهم فى أماكن حصينة جاهزين ببنادقهم ـ وراء النوافذ وفوق سطح المبنى وخلف السور ننتظر ما تأتى به الأحداث.

لا يمكن الآن أن نكرر التجربة نفسها لو جددوا الهجوم. أنا فى الأصل لم أصدق نفسى عندما انطلقت القذيفة. علقت أملى على ألا يكون الصدأ والرمال والرطوبة قد أفسدت المدفع وذخيرته معا. وعندما حشوت المدفع وأطلقت القذيفة بنفسى نحو السماء، بعيداً عن البلد، كنت متيقنا أن هذه هى الثوانى التى تفصل بين الحياة والموت. كنت قد وزعت الجنود فى أفضل المواقع التى تصورتها للدفاع عن المبنى وأمرتهم بالرد على نيران الزجالة إن هاجموا القسم مدركا أنه سيكون هناك قتلى كثيرون منا ومنهم.

حذرنى إبراهيم منذ وصلت القسم مبكرا فى الصباح. قال: إن الجو خطير فى البلد. هناك من يحشدون الغربيين ضدى وضد كاثرين قائلين إننا سبب كل المصائب التى حلت بهم. يتهمون كاثرين بأنها دبرت سحرا لتطلق الغولة من سجنها، ويشجعونهم على الانتقام منا لترتفع عن أرضهم اللعنة التى تهلك البشر والحيوان والنبات. نبهنى إلى توقع الهجوم اليوم وذكرنى بأنهم محاربون لا يعرفون الخوف وحين يكون القتال مع غرباء عن بلدهم فإنهم يرمون بأنفسهم إلى الموت كأنهم لا يرون سلاح الخصم فيندفعون جماعات ويقتلون من أمامهم دون أن يبالوا بمن يسقط منهم.

أرسلت إبراهيم على الفور إلى البيت ليحذر كاثرين من الخروج وفكرت أن أرسل جنديين لحراسة البيت، لكنى أدركت أنهم لابد أن يبدأوا بى قبل مهاجمة كاثرين. نجاتها تتوقف على نجاتى.

عندها فكرت أن أخيفهم بسلاح المدفع الذى جربت البلد خطورته من قبل. قررت استخدامه للتخويف فقط فتحققت المعجزة. لا أدرى إن كانت قابلة للتكرار أم لا. لكن هذه المعجزة أنقذتهم وأنقذتنا من المذبحة وكسبت لنا بعض الوقت. وكان لابد بعدها أن أمضى فى الطريق نفسه، أواصل التهديد بمنتهى الثقة مع أنى لست واثقا من شىء على الإطلاق! هم فهموا بالتأكيد أنى أنوى إلقاء القبض غدا على إدريس الغربى وعبد الماجد الشرقى لإرغام العشيرتين معًا على دفع الضرائب. سيكون حضورهما صباح الغد اختبارا حاسما لنجاحى فى فرض سلطتى على الواحة. هذا إن جاء الغد أصلا!

بالطبع أدرك الآن ـ بعد فوات الأوان كالعادة ـ أنى أخطأت منذ البداية. لم يكن من المفروض أن أهدد الشيخ صابر ولا أن أصر على

الثأر من مليكة وأسرتها. هى بالفعل كما قالت كاثرين طفلة ومجنونة، فأى عاقل يثأر من الأطفال والمجانين؟ ثم ما الذى كان يمكن لأسرتها أن تفعله وهى قد فرت دون إذنهم واقتحمت البيت متنكرة من وراء ظهورهم؟ ألم تكن تكفى كل الضربات والركلات ثم ذلك الجرح الذى أصابتها به كاثرين؟

والآن يؤكد لى إبراهيم أنهم بعد أن فشلوا فى قتل كاثرين وقتلى فسيتحولون لقتل مليكة لينقذوا أنفسهم من لعنة الغولة. كيف يمكن لى أو لأى إنسان أن يفهم هذه العادات؟ لا شىء يمكن أن أفعله الآن لإنقاذ مليكة. إن كانوا سيقتلونها فهذا بسبب خرافاتهم عن الأرامل. حتى لو لم أطلق المدفع.. حتى لو لم أقل كلمة واحدة للشيخ صابر.

لكن إن كنت مقتنعا بهذا كله فلماذا لا أشعر فى قرارة نفسى أنى برىء؟ الأفضل بدل التفكير فيما لا جدوى منه أن أفكر كيف يمكن إنقاذ المجنونة الأخرى كاثرين. لو بقينا أحياء فلابد أن أبعدها عن الواحة فى أسرع وقت وأن أطمئن إلى وصولها إلى مصر بسلام. ولكن كيف؟

أما أنا فسوف أكمل الطريق المرسوم الذى حاولت تجنبه. سأسجن وربما أجلد، لجمع الضرائب مثلما فعل أسلافى. ولعلى أحاول أيضًا ضرب الشرقيين بالغربيين أو العكس حسب نصيحة لمستر هارفى التى ازدريتها وازدريته حين اقترحها.

فإلى أى مصير تعس آخر سوف أنحدر هنا؟

* * *

الشـــيخ يحـــيى

هل قلت سأحاربكم وحدى؟ أنت تهذى يا يحيى! تحسب أن الزمن يرجع للوراء. حتى لو لم يرجع الزمن، فمن أجلك يا مليكة سأعيده قسرا من جديد! أعدك يا ابنتى.

لكن الحمار يرفض أن يتحرك. ينهق كأنه يبكى ويتوقف أكثر مما يسير ليست عادته. لم يصبح بعد عجوزا جدا مثلى. حتى أنا ياحمارى أستطيع الآن أن أركض، فهيا تحرك! ربما أصابتك قذيفة المدفع الفاسدة بالذعر مثلما أصابت الشيوخ، أو هى رائحة البارود تخنقك كما تخنقنى.

نختنق أو لا نختنق أنا آت يا مليكة!

هذه النخلة التى سقطت كنت أشم فيها رائحة العطب كلما مررت عليها والعقارب السوداء تظهر ثم تختفى، فما ذنب مليكة؟

أفهمك يا ابنتى. أفهم ألا تطيقى السجن وأنت الطليقة، أنت وحدك الطائر الحر وسطنا نحن الجثث القعيدة، لعلى كنت يوما مثلك. لا! أنت الأفضل.

تحرك أيها الحمار فبالأمس لم أستطع أن أراها. ذهبت إلى بيت

أختى حين سمعت بما حدث. كان مزدحما بنسوة غريبات طرحن عباءاتهن أمام الباب حتى لا يدخل رجل. لعل خديجة تعمدت ذلك كى لا أرى مليكة أو أتدخل فيما يدبرنه لها.

أسرع أيها الحمار فاليوم لابد أن أراها.. ولو ذهب كل نساء البلد ورجالها لمنعى!

كيف تريدون من مليكة أن تفهم عاداتكم التى بلغت أنا من الكبر عتيا فلم أفهمها؟ مليكة الجميلة رسول الموت؟ عقارب سوداء وحرائق فى البيوت والشجر وأطفال مرضى؟ أنتم المرضى! هذه يا مليكة مثل نبوءات صابر المشئومة التى كنت تسخرين منها. لا أنت تفهمين بأى ذنب تسجنين ولا أنا فهمت هذه الخرافة طول عمرى.

تثير جنونى مثلها مثل الحروب، حفلات الدم التى لا تكاد تنتهى إلا لتعود. يتلهفون على إقامتها لأهون الأسباب أو حتى دونما سبب. يتشاور أجواد كل عشيرة ثم يتشاورون معا. وفى النهاية الحرب! ما هذا؟ ما معناه؟ حفلات فيها الزغاريد والغناء وفيها الطبول وهدايا أعراسها الجثث والأطراف المبتورة لكنهم يستعدون لها فى جذل. يحددون لها الساعة ويختارون المكان والقاضى. كل شىء ينبغى أن يتم حسب الأصول. فى الموعد المحدد تتراص صفوف عشيرتنا مقابل صفوف عشيرتهم، كل أسرة لها مكان محدد من قديم الزمان مقابل أسرة من الخصوم، وخلف الصفوف تقف النساء. يزغردن ويغنين الأهازيج وعندما يدق القاضى طبلته يبدأ الحفل، يطلق كل المحاربين طلقة واحدة لا غير ثم يتوقفون إلى أن ترفع جثث القتلى. بعدها تعود الطبلة والطلقة ويستمر الحفل أياما بأكملها إلى أن ينتصر فريق على فريق.

كيف كنت تريدين يا مليكة ألا يتملّك خالك الغضب من هذه الأعراس الجنونية بأهازيجها وزغاريدها وصراخها وولولاتها ودمائها وطبولها؟ بسببها حاربتهم وحدى. ومن أجلك أنت أيضًا سأحاربهم وحدى. مازلت أعرف كيف أستخدم بندقيتى.

هم لم يحكوا لك حكايتى. من زمن توقفوا فى عشيرتنا عن حكايتها للصغار ولكنى أعرف أنهم يتهامسون سرا عن جنون يحيى فى شبابه. لا تصدقى يا ابنتى. لم أكن مجنونا بل أردت أن أوقف الجنون.

اليوم سأحكى أنا ما لم أقله لك أبدا لكى تفهمى ولكى نوقف معا كل الجنون فى هذه الأرض. كانوا يعتبروننى فى شبابى فارس الغربيين وأشجع رجالهم لأنى لم أنهزم أبدا فى قتال ولم أتراجع أمام العدو. لكن صدرى كان يضيق يوما بعد يوم، حربا بعد حرب، من هذه المجازر. وعذبنى ضميرى لكل الدماء التى سفكتها فيها. فرفضت أن أشارك قومى فى معركة ظالمة كانوا هم فيها المخطئين! اعتزلتهم فجاءنى الإخوة والأعمام والأخوال. كيف وأنا فارسهم أتخلى عنهم فى ساعة الحرب، كيف أقبل هذا العار؟ فاض الكيل فقلت إن كنتم تريدونها حربا فلتكن هى آخر الحروب! ما معنى كلامك يا يحيى؟ معناه أن نقاتلهم غير قتالنا كل مرة فننتصر نحن أو ينتصرون، بل نقاتلهم إلى أن يفنوهم أو نفنى نحن! ضحكوا ـ هل تمزح يا يحيى؟ لا.. لكن هذا شرطى. لابد أن تنتهى هذه الحكاية إلى الأبد. شرطك غريب يا يحيى لكننا نوافق عليه ما دمت معنا. حتى آخر رجل؟ نعم، حتى آخر رجل. تقسمون على المصحف؟ نعم. نقسم.

ذهبت معهم بعد هذا القسم إلى الحرب. وفى اليوم الأول كنت

أطلق النيران وأدير بصرى لأعرف مواضع الضعف فى صفوف خصومنا، أفكر كيف نفيد من ثغراتهم فى قتال الغد وبعد الغد إلى أن يتحقق الوعد بفناء عشيرة منا. لكن قبل أن ينتصف نهار اليوم رأيت بعض رجالنا ينهزمون وينسحبون. لم ينفع صراخى لهم مذكرا بالقسم، ولم تنفع إهانات النساء. ولا شتائمهن لمن يفرون من الحرب. وبعد الظهر وجدت نفسى فى قلة من قومى، ثم وجدتنى وحيدا. أبرز من مكمنى وأطلق النار مع كل دقة طبلة على صفوف الشرقيين المتراصة. غير أن رصاصاتهم كانت تطيش بعيدا عنى فى كل مرة. كانوا يستطيعون قتلى بكل سهولة لكنهم لم يفعلوها. ثم فجأة. بعد إحدى الطلقات اندفعوا نحوى وألقوا السلاح تحت قدمى وراحوا يقبلون يدى ويقبلون رأسى قائلين إنى أشجع من أنجبت الأرض. عرضوا أن أبقى معهم وأعيش وسط الشرقيين مكرما، لكنى ركبت حمارى ولم أرجع إلى دارى ولا إلى قومى، بل تقدمت نحو الصحراء المتاهة عازما ألا أعود.

هذه هى حكاية جنونى يا مليكة التى يتجنبون أن يحكوها أعرف أنى أخطأت يا ابنتى لكن صدقى أنى أحببت قومى حتى تمنيت لهم الفناء ليعيش من يعيش فى سلام، وصدقى أنى مستعد الآن. فى سنى هذه، أن أحاربهم وحدى لتوهب لك الحياة، من أجدر منك بالحياة فى هذا البلد المنكوب بناسه وخرافاته؟

ولو كانت حياتى هى الثمن يا مليكة!

فقط لو يسرع هذا الحمار!

* * *

عند عين الجوية رأيت أشخاصا قادمين من ناحية أغورمى.

أمسك أحدهم برقبة الحمار وأوقفه فى وسط الطريق وكلمنى. تكلم طويلا فلم أرد.

ظللت فى مكانى تحت الشمس وقتا لا أعلمه إلى أن تحرك الحمار من تلقاء نفسه بخطاه الوئيدة نحو البيت.

دخلت صامتا. تكلمت أختى خديجة وتكلم أبناؤها. كانوا يقاطعون بعضهم البعض فى صخب ليصوبوا الحكاية. لكنى لم أقاطع ولم أسأل. استمعت فقط للرجال الذين يقسمون وللنساء الصارخات دون أن أنطق كلمة. قالوا إن مليكة سجنت نفسها فى غرفتها منذ عادت من بيت المأمور. لم تكتف بإغلاق بابها بالمفتاح بل وضعت وراءه كل ما بالغرفة من صناديق ومتاع. تسب كل من يطرق الباب أو يخاطبها بكلمة. تشتم بصوت عال أمها وأخواتها وتلعن بالذات معبد الميت. لماذا يعتبرونها أرملة ومعبد لم يكن رجلا؟ هى ما زالت بكرا والدم الذى حمله إليهم معبد بعد دخوله بها دم كذب، هى لم تكن من الأصل زوجة ولا أرملة فكيف أصبحت غولة؟ كررت كلامها كثيرا وهى تضحك وتبكى وتقول: الغولة يجب أن تكون معبد لأنه لم يكن رجلا! لكنها تتحدى من يطرقون بابها أن يدخلوا لتصب على رءوسهم كل لعنة الغولة وترميهم بكل نكباتها وتحرق من فى الواحة من رجال ونساء وشجر وحجر. لكن فليقولوا لها أولاً لماذا هى غولة؟ اشتكت لأمها أن الرجل الذى عاشت معه سنتين لم يقربها ويضربها دون سبب

فضربتها أمها أيضًا وحرمت عليها أن تكرر هذا الكلام ويكفى أن يحميها ظل رجل. لكن هى كرهت ظل معبد وتكره من أجله كل الرجال وكل النساء فى هذا البلد. تكرههم جميعًا فلماذا لا يتركونها بعد أن رحمها الله بموت معبد تبحث عن صحبة جميلة بعيدا عنهم؟ ليست مثلهم ولا توجد فى البلد من تشبهها وهى تحبها أكثر من أمها. أين خالى يحيى؟ أين خالى؟ هو وحده الذى أريد أن أكلمه. لماذا لا يأتى هو ويخسف الله بكم الأرض؟

ظللت أسمع صامتا ما يقولون. نجحوا أخيرًا فى تحطيم الباب وتركوا أمها وحدها تدخل. قالوا: تلقتها مليكة وهى تقف فى وسط الغرفة بشعر مهوش ملطخ بالدم وتمسك بيدها سكينا كبيرا، حاولت خديجة أن تهدئها ومدت لها يدها بطبق من الطعام فبصقت مليكة وسألتها وهى تبكى لماذا باعتها؟ لماذا رمتها لمعبد؟ ثم أدارت السكين نحوها وأغمدته فى صدرها وهى تلعن كل الرجال والنساء ونافورة الدم تندفع منها نحو أمها.

أشارت أختى باكية إلى الدم الذى يلطخ ثوبها ثم عادت تلطم خديها لكنى قمت لأنصرف دون كلمة.

جرت خديجة ورائى - الجنازة يا شيخ يحيى؟ متى الجنازة؟

لم ألتفت ورائى.

فى الطريق إلى بستانى كنت أفكر فيما سمعت وأسأل نفسى أين الحقيقة؟ هل رشقت مليكة السكين فى صدرها حقا أم أنتم الذين أغمدتموه فى قلبها لترفعوا، كما قال أجوادكم، دنس الغولة من الأرض؟ أين الحقيقة وما جدوى أن أعرفها الآن وقد ضاعت مليكة؟

ضاعت بكذب الرجال ورعب النساء وغرور ذلك المأمور الذى يأكله الحقد. ضاعت فما أهمية أى شىء؟

لا أريد أن أراها ميتة. لا أريد فيما بقى لى من أيام أن أذكر هذه الطفلة كجثة. أريدها أن تبقى لى حية كما عرفتها. أجمل نبتة أخرجتها هذه الأرض.

كانت تحتاج الظل والحماية وأن نبعد عنها النباتات الشريرة ولكن. . يحيى يا يحيى! ما أكثر ما صادفت من الموت خلال عمرك. بيدى هاتين دفنت إخوة وزوجات وأبناء وأحفاداً، فلماذا وأنا العجوز الفانى لا أحتمل موتك يا ابنتى؟ أبكيك وأبكى نفسى. الآن يئست من بلدتكم.

لم أستطع أن أخرجها من ظلماتها شابا ولا شيخا. حاولت وعجزت. لم يهدنى ربى إلى السبيل، لكنى الآن أعرف طريقى. سأعتزلكم إلى الأبد. لم تعد بى قوة لأخرج إلى الصحراء كما فعلت فى شبابى. سألزم الحجرة الصغيرة فى حديقتى، ولن أرى منكم أحدا.

سأهجرك الآن أيتها الواحة لا لكى أجد نفسى مرة أخرى وإنما لكى أودّعها.

* * *

١٤ـ محمـــود

لا أعرف ما الذى أفاد. أهى طلقة المدفع التى كانت مجرد دوى صاعق وشرارات متطايرة من النار لا أكثر أو هو سجن الشيخين؟ لم أكن بحاجة بعد ذلك إلى أن أسجن أو أجلد أحدًا. أبقيت إدريس وعبد الماجد ضيفين فى إحدى حجرات القسم وأمرت الجنود أن يحسنوا معاملتهما وأن يسمحوا لأقاربهما بالزيارة وإحضار ما يشاءان من منزليهما. لكن الرسالة وصلت فأطلقت سراحهما بعد أيام.

من أول يوم بدأت ترد حمولات من البلح ودنان من زيت الزيتون اكتظت بها المخازن، فوضعنا جزءًا منها فى فناء القسم. يصل الشيخ صابر بنفسه أو يرسل مندوبًا يقول هذه حصة العائلة الفلانية ويطلب إيصالاً بأنها سددت نصيبها من الضريبة. أوشك الخراج المطلوب أن يكتمل وفوقه الغرامة المالية، وأصبحت ألازم القسم طول النهار تقريبًا لأتابع جمع الحصص وجردها.

سمعت وأنا جالس فى مكتبى بالطابق الثانى جلبة تقترب من القسم مصحوبة بصياح أطفال. اعتدت على هذه الضجة مع وصول حصص الأسر، أو لعلها هى ضجة الجنود العائدين من استقبال قافلة مطروح. لكن لا. هناك وقع حوافر خيول كثيرة.

ذهبت أنظر من النافذة ففوجئت بضابط شاب يترجل من على حصانه وبصحبته ستة من الجنود الخيالة ترجلوا بدورهم وشكلوا بسرعة طابورا واحدا انضم له الجنود الذين أرسلتهم لاستقبال القافلة. وقف الضابط لحظة كأنه يستعرضهم وهم يردون له التحية العسكرية ثم تركهم واقفين فى أماكنهم وأشار إلى واحد من جنود القسم الذين أحاطوا بالفرقة الوافدة فى صمت وتوجس. قال شيئًا للجندى ثم تقدمه نحو السلم.

كنت واقفًا عندما دخل مكتبى فرفع يده بتحية عسكرية ودق كعبيه بشدة ثم تقدم نحوى بخطوات منضبطة ومدّ نحوى ظرفا أصفر، وهو يقول بلهجة رسمية:

يوزباشى وصفى همت نيازى تحت أمر سعادة المأمور. أفندم!

يوزباشى؟ فى هذه السن؟ لم أصل إلى رتبته إلا بعد أن جاوزت الثلاثين بسنوات وهو بالكاد فى الخامسة والعشرين، ما الحكاية؟

قلت وأنا أشير إلى مقعد أمام مكتبى: أهلاً يا حضرة اليوزباشى. اجلس.

تأملته وأنا أجلس إلى مكتبى. أشقر طفولى الوجه متوسط القامة أميل إلى القصر. أكثر ما يلفت النظر فيه عيناه العسليتان اللتان تتحرك حدقتاهما بسرعة واستمرار فى مقلتيه.

لم يجلس وصفى إلا بعد أن عدت أنا إلى مكانى خلف المكتب. قلت وأنا أضحك: وعدتنى النظارة بهذا المدد منذ شهور قبل أن أصل إلى هنا. لكنها لم تبلغنا عن الموعد لنستعد لاستقبالكم.

لم أقل إننى كنت أنتظر عددًا أكبر من الجنود والضباط. وبينما كنت

ألقى نظرة عابرة على خطاب نقله إلى الواحة المليء بالتوقيعات والأختام، قلت ولكننا بحاجة فعلاً إليكم وإلى الخيول. لم تبق فى القسم سوى خيول مجهدة.

صفقت بيدى فدخل الشاويش إبراهيم الملازم للباب وسألت وصفى إن كان يريد أن يشرب شايا أو قهوة فرد بأنه سيكون شاكرًا لو قدمت له كوبًا من الماء لأنه لا يشرب الشاى ولا القهوة.

فقلت مبتسمًا: تقصد كوز ماء. ليست لدينا فى القسم أكواب.

وعندما خرج الجندى قلت لوصفى: ستستريح الآن من السفر ثم سنتكلم غدًا عن العمل. لكن أول مسألة هى أن ندبر لك مكانًا للإقامة.

قال إنهم حدثوه فى القاهرة عن المسألة وشرحوا له التقاليد فى الواحة وإن أفضل شىء أن يقيم فى القسم. فلن تختلف الحالة عما كانت عليه حياته فى المدرسة الحربية.

قلت: قد تكون الحياة أصعب قليلاً من المدرسة الحربية. سترى أن..

لكن وصفى أنزل فجأة كوز الماء الذى كان يشرب منه فى جرعات كبيرة وقاطعنى:

عفوًا يا سعادة المأمور، ربما كان يجب أن أبلغك بهذا قبل أى شىء. أنا أوصلت ميس فيونا إلى بيت سعادتك قبل أن آتى هنا. دلونى على المكان فأوصلتها قبل أن أسلم نفسى للعمل..

لم أستوعب الخبر فى أول الأمر. نسيت بالفعل حكاية فيونا فى

زحمة ما جرى لنا. لكن وصفى واصل بشىء من الحماس إن حكمدار الإسكندرية أوصاه برعاية الميس حتى تصل إلى الواحة وإن سعادة الباشا الحكمدار جاء بنفسه مع وكيل الحكمدار لتوديعها قبل أن تتحرك القافلة. كان وصفى مبهوراً من ذلك وهو ينهى كلامه بأن سعادة الوكيل يهدينى السلام.

سألته: ومن هو؟ فرد سعادة الأميرالاى طلعت بك عبد العزيز.

ـ شكرًا لك وللأميرالاى.

انقبضت نفسى، ولم أتعجل العودة إلى البيت. إذن فهناك الآن مشكلتان. يجب أن أعيد الأختين معًا وبأسرع ما يمكن. ربما مع القافلة نفسها. سأرى.

سألت وصفى وأنا شارد تقريبًا كيف لم تؤثر الرحلة على هندامه ولم تلوث زيه العسكرى ولا طربوشه؟ فرد بجدية إنه غير كل ثيابه فى الصباح استعداداً للقاء سعادتى واستلام عمله الرسمى.

شرحت له ظروف عملنا فى الواحة دون أن أتطرق للحوادث الأخيرة، وقلت إن أول مهمة له ستكون هى المساعدة فى جمع بقية الضرائب من الواحة وتدبير إرسال دفعتها الأولى مع القافلة التى جاءت ثم تجولت معه قليلاً فى القسم. اخترت له حجرة مناسبة ينقل لها متاعه، وطلبت من الشاويش إبراهيم أن يدبر أماكن للجنود الجدد ويقدم لهم الغداء. وقبل أن أنصرف قلت لوصفى إنى لابد أن أمر على البيت لفترة قصيرة، وإنه مالم يكن متعبًا جداً فيمكنه أن يأتى معى للغداء بعد ذلك.

* * *

طرقت البـاب عـدة مرات وانتظرت قليلاً قبل أن أفتحه فـوجدت كـاترين وفيونا واقفتين فى الصـالة حـول المائدة متأهبتين لاستقبالى. أعددت نفسى لأقول بمرح كاذب «مرحبـا بك فى صحرائنا يا فيونا ـ لكنى وقفت عند الباب ولم أقل كلمة بعد «مرحبًا». رأيت فى الصالة توأمين متشابهين، نسختين من كاثرين.

تقدمت نحوهمـا بخطى بطيئة وكررت متلعثمـا «مرحبا بك...» فضحكت كاثرين ضحكة خافتة: قلت هذا من قبل يا محمود. ما رأيك فى هذه المفاجأة؟ فرددت مجاملاً: مفاجأة سعيدة بالطبع. لكما نفس لون العيون والوجنتين المدورتين. فقالت كاثرين: لكن فيونا أجمل بكثير.

اقتربت منهما أكثر، لم تكذب كاثرين. كانت أختها ممشوقة القوام وملامحها أكثر تناسقا، وجه باهر الجمال حقًا فى إطار من شعر ذهبى أغزر من شعر أختها ومع ذلك فعندما مددت يدى لأصافحها هالنى شحوب وجهها رغم الابتسامة العذبة التى تكاد تكون جزءا من ملامحها. ربما يكون هذا الشحوب من إرهاق السفر.

جلسنا ثلاثتنا فى الصالة وقلت لكاثرين إن الضابط الجديد ربما يصحبنا اليوم على الغداء فسألت فيونا: كابتن نيازى؟

ـ نعم، وصفى.

وقالت كاثرين لشقيقتها: يجب أن تعتادى على هذا. هنا يخاطبون الناس بالاسم الأول. كنت أستغرب فى البدء عندما يقولون مسز

كاثرين أو مستر محمود ولكن يجب أن تعرفى منذ الآن أنك الميس فيونا.

فردت مبتسمة: هذا ألطف بكثير. وبعيد عن الرسميات.

شتتت هذه الثرثرة انتباهى عن الحديث، ورحت أراقب فيونا. لها حضور هادئ وقوى، لا يبذل أى جهد ليفرض نفسه. وسألت نفسى بشكل عابر: هل ذهب الحكمدار ووكيله المحترم بناء على توصية من شخص مهم فى السفارة أو غيرها، أو لإلقاء نظرة أخرى على هذه المرأة الجميلة؟ وأدهشنى أيضًا أن هناك شيئًا ما رغم جمالها لا يجعل منها امرأة مثيرة. كأنها صورة أو تمثال لامرأة كاملة وليست امرأة من لحم ودم. وتساءلت: هل هذا هو السبب فى أنها لم تتزوج حتى الآن؟

غير أنى انتبهت إلى كاثرين تسألنى فى حماس: هل كنت تعرف ذلك؟

لم أكن أتابع حوارهما ولاحظت هى ذلك فكررت سؤالها: هل كنت تعرف أن الضابط وصفى مهتم بالآثار؟

- لم يكن هناك وقت لأسأل أو أعرف.

هزت فيونا رأسها مؤكدة وقالت: هو مثقف جدًا ويتحدث الإنجليزية كالإنجليز تمامًا.

وسكتت لحظة قبل أن تكمل: يتصرف كجنتلمان إنجليزى حقيقى.

كانت تتكلم بلهجة محايدة فلم أفهم هل تمدحه أو تنتقده.

قلت لكاثرين وأنا أنهض متأهبًا للخروج: وهكذا ستجدين من تتحدثين معه عن آثارك.

صحبتنى كاثرين حتى الباب وهمست فى أذنى بالعربية قبل أن أخرج إن من الأفضل أن أصحب وصفى على العشاء حتى ترتاح فيونا وقالت إن أختها تلقت نصيحة من الأطباء فى أيرلندا بأن تعيش فترة فى جو دافىء جاف لأن صدرها ليس على ما يرام.

غمغمت وأنا أخرج : إذن ربما الصعيد أفضل لها. تعرفين وضعنا هنا الآن.

* * *

لم تخطىء فيونا. تصرف وصفى على الغداء كجنتلمان حقيقى. يعرف آداب المائدة أفضل منى بكثير. يمتدح ذوق كاثرين فى إعداد الطعام، يخاطبها وشقيقتها بتهذيب شديد. ويبتكر دعابات تبعثهما على الابتسام أو الضحك.

وبعد الغداء انهمك مع كاثرين فى الحديث عن الآثار. تبادلا حديثا عن كتب وأسماء لا أعرفها. قال إنه قرأ كل شىء عن الآثار الموجودة فى سيوة وينوى أن يزورها جميعًا.

فهزت كاثرين رأسها وهى تقول بمرارة إنه قد يجد صعوبة حقيقية لأن أهم الآثار موجودة وسط البيوت وهم لا يسمحون للأغراب بالتجول وسط بيوتهم. جربت هى ولم تفلح. فقال وصفى بثقة سنجد حلا لذلك بالتأكيد.

وفكرت بدهشة: ألم تتعظى حتى الآن يا كاثرين؟ بعد كل الكوارث التى جرتها زياراتك للمعابد؟ اعتقدت بعد الحزن الرهيب الذى حل بك منذ سمعت بموت مليكة وبقائك سجينة أيامًا فى غرفتك أنك لن تعودى مرة أخرى إلى هذه الهواية الخطرة. لكن لا. أنت لا تتغيرين. يجب بالفعل أن أبعدك أنت وأختك من هنا بسرعة، أنت خطر حقيقى على نفسك وعلى غيرك.

عدت إلى حديثهما وهى تسأل وصفى باهتمام شديد وتختار كلماتها بعناية لسبب غير مفهوم:

- مادمت قد قرأت كل هذا فسأسألك لو كانت هناك معابد يونانية فى سيوة فأين تتوقع أن تكون؟

رد وصفى وهو يختار كلماته بحرص أيضًا : تحتاج المسألة بحثًا على الأرض . لكن ربما يكون من بينها معبد بلاد الروم . التسمية توحى أنه كان معبدًا يونانيًا أو رومانيا . بالتأكيد لم يكن يشبه المعابد المصرية القديمة .

قالت كاثرين : قرأت ما قاله عنه أول من رآه من الرحالة وهو أنه أجمل معابد الواحة . لكن المعبد تحطم بعد ذلك تمامًا . لم يبق منه عامود واحد وإنما مجرد حجارة متناثرة وسط مستنقعات قرب بحيرة خميسة . اندثر تقريبًا .

هتفت برغمى : لحسن الحظ أنه اندثر !

التفتوا نحوى فى دهشة فقلت : وفر على الناس مهمة البحث !

سادت لحظة من الصمت قطعتها فيونا وهى تسأل بابتسامتها المألوفة هل سمعتكما تقولان إن هذا المعبد كان بجوار بحيرة؟

قالت كاثرين : نعم، بحيرة خميسة إلى الغرب من هنا .

فقالت فيونا : ولماذا يكون قد اندثر؟ ربما هو مازال تحت الماء وربما مازالت تقام فيه صلوات !

نظرنا لها أنا ووصفى متعجبين بينما ابتسمت كاثرين وقالت : أنا أخمن . هيا يافيونا !

أكملت فيونا وهى تنظر نحونا : ألا تعرفان حكاية من يعيشون فى قصر تحت الماء؟

لماذا لا يكون قد حدث لمعبدكم مثل ما حدث فى قصة الملك كورك وابنته فى أيرلندا؟

سأحكيها لكم لتصدقوا.

قالت كاثرين بحماس: نعم يافيونا، احكى!

فبدأت أختها:

كان هناك ملك غنى يسكن قصرا جميلاً وسط واد أخضر فسيح، لكنه مع كل ثرائه فقد كان كنزه الحقيقى الذى يفخر به هو نبع الماء الذى يتفجر فى فناء قصره. لم تعرف أيرلندا أبدًا مياها أعذب ولا أصفى منها واعتاد الناس أن يأتوا من كل مكان ليرتووا من هذا الماء السحرى. لكن عندما زاد تدفق جموعهم على القصر خاف الملك كورك أن يشح الماء وأن ينضب معينه الفريد ففكر ثم أحاط النبع بسور عال ومنع الناس من الاقتراب منه. وكلما أراد أن يشرب كان يرسل ابنته الجميلة فيور بمفتاح باب النبع لتجلب بعضًا من الماء فى دلو ذهبى صنعه لهذا الغرض وحده. لم يطمئن لإعطاء المفتاح لأحد من الخدم مخافة أن يسلب بعضًا من ماء النبع. نعم، إلى هذا الحد كان يخاف على ثروته الغائرة فى باطن الأرض. وذات ليلة أقام حفلا كبيراً دعا إليه الأمراء والنبلاء. تلألأ القصر بالأضواء وانسابت فى جنباته أنغام الموسيقى وامتدت موائد عامرة بكل أنواع الطعام والشراب.

تابعت حكاية فيونا وأنا أتأملها، وطرأت على بالى على الفور نعمة فأخذت أقارن بينهما. فيونا تحكى بهدوء وبساطة كأن هذا القصر الأيرلندى مكان مألوف، لو فتحنا الباب فسنراه وسط ريف أيرلندى ومروج خضراء، وإنما من بعيد. أما نعمة فتعيش حكاياتها، تنفعل وتصبح وسط دموعها هى الأميرة السجينة، والملك المسحور، والعاشق المهجور ويشرق وجهها بالفرح ساعة النصر فنصبح هى وأنا اثنين داخل الحكاية ملوكًا وفقراء وعشاقًا ونساكا. فأى الطريقتين أفضل؟

وها هو أمير نعمة الجميل يظهر فى حكاية فيونا! يدخل إلى حفل الملك فيكون الحب منذ اللحظة الأولى. لا يرفع عينيه عن وجه فيور الساحر ولا هى تحول عنه بصرها ووجهها المتورد بالحب. . يدعوها للرقص فتنساب بين ذراعيه ويدوران فى القاعة بخفة كفراشتين ترفرفان على وقع الأنغام، بينما يعزف الموسيقيون بجمال ودون توقف كما لم يعزفوا أبدًا من قبل كأنهم لا يريدون لهذه الرقصة الأثيرية أن تنتهى - لولا أنه كان لابد للراقصين أن يجلسوا أخيرًا على مائدة العشاء.

كنت أتابع نظرة كاثرين المستمتعة وعينى وصفى اللتين لا تكفان عن الحركة فى لهفة طفولية للاستماع إلى ما تحكيه فيونا: على العشاء أرسل الملك ابنته لتملأ الدلو من نبعه الثمين وصحبها أميرها الجميل عبر فناء القصر إلى النبع، لكنها عندما مالت لتملأ الدلو الذهبى وجدته ثقيلاً جدًا فزلت قدمها وسقطت فى الماء. حاول الأمير أن ينقذها لكن بلا فائدة. أخذت مياه النبع تفيض وتتدفق مجتازة الباب المفتوح لتغمر الفناء كله. وأسرع الأمير يطلب النجدة من القصر غير أن المياه التى ظلت حبيسة الأسوار انطلقت فرحة بحريتها وظلت تفيض فى الفناء وترتفع بسرعة حتى أنه عندما وصل الأمير إلى القاعة كان الماء يصل إلى رقبته. وأخيرًا انتشرت المياه حتى غمرت كل الوادى الأخضر الذى يتوسطه قصر الملك وهكذا تكونت بحيرة كورك.

سكتت فيونا لحظة وهى تنقل بصرها بيننا ثم قالت لكن الغريب أن الملك وضيوفه لم يغرقوا كما يمكن أن يحدث فى مثل هذا الفيضان، ولا غرقت الأميرة الجميلة (فيور) التى رجعت فى الليلة التالية تستأنف الرقص مع أميرها الوسيم تحت الماء. وفى كل ليلة منذ ذلك الحين تتجدد الوليمة والرقص فى قاع البحيرة إلى أن يواتى الحظ أحدًا من الناس فينتشل الدلو الذهبى الغارق الذى كان السبب فى كل ما جرى.

فهل أنتم واثقون أن أحدًا لا يستطيع أن يرى معبدكم هذا تحت الماء؟

لم تسمع ردًا فأكملت بلهجتها الواثقة نفسها: هذا لأنك إذا ما مررت ببحيرة كورك حتى اليوم وكان نظرك قويًا تستطيع أن ترى عبر مائها الصافى أبراج القصر وأسواره، وفى الأمسيات يمكنك أن تسمع الموسيقى والغناء فى الوليمة الممتدة. وإنما هذا فى الصيف فقط لأن البحيرة تتجمد فى الشتاء!

حل علينا سحر الحكاية فظللنا نتطلع فى لهفة إلى فيونا آملين أن تكون للقصة بقية، لكن كاثرين ضحكت فجأة وصفقت وهى تقول:

- كنت متأكدة يافيونا! كنت واثقة أنك ستفعلينها..

ثم التفتت نحونا: أظن أن فيونا هى آخر سلالة رواة الحكايات الأيرلندية. كان عندنا منهم مئات وربما آلاف يتجمع الناس حولهم. لكنهم الآن ينقرضون. إلا أن فيونا مازالت تحفظ كل القصص، أليس كذلك؟

لوحت فيونا بيدها وقالت: دعك من هذا. لحسن الحظ مازال هناك كثيرون غيرى والآن قولوا لى ما الذى فهمتموه من هذه الحكاية؟

ظللنا نتبادل النظر ولكن كاثرين قالت: لا تسألينى أنا. منذ كنت صغيرة أعرف الحكاية وأعرف مغزاها. عوقب الملك لأنه حرم الفقراء من الماء.

قالت فيونا: هذا عندما كنت صغيرة. ولكن كيف تفهمينها الآن؟

هزت كاثرين كتفيها مبتسمة.

وقالت فيونا: هذا أيضًا رد.

ثم التفتت نحوى قائلة: وأنت؟

ترددت قليلاً ثم قلت: رأيى أنها حكاية جميلة.

فقالت فيونا وقد ارتسم الجد فى وجهها: نعم، ولكن يجب أن تقول ما فهمته منها. الحكاية لا تكتمل بروايتها وإنما يكملها من يسمعها..

استغرقت فى التفكير لحظة ثم قلت: ربما تقصد الحكاية أن ما نراه قد لا يكون هو الحقيقة، قد يخفى سطح الماء الرائق حياة لا نعرفها وقد تغيب عنا الحقيقة تحت أى سطح. هل هذا هو المعنى؟

ابتسمت فيونا وهى تقول: ربما، ألم أقل لك أن الحكاية يصنعها كل من يستمع إليها؟ وأنت يا مستر نيازى؟

قطب وصفى وجهه الطفولى وأرخى جفنيه لأول مرة فبدا كتلميذ فى امتحان لكنه قال:

لست بارعًا فى حل الألغاز ولكنى لا أفهم كيف يكون ما حدث عقابًا للملك كما تقول مسز كاثرين. على العكس. الحكاية تقول إن الملك والأميرة والأمير والضيوف يعيشون حياة أبدية تحت الماء فى حفل مستمر.

قاطعته كاثرين: ولكن لا تنس أن ذلك كله فى سجن تحت الماء.

قلت: ولعل القصر قبل الغرق كان سجنا فوق الماء أيضًا. لعل هذه الدنيا كلها سجن!

خاطبت كاثرين شقيقتها بلهجة مازحة: انتبهى يافيونا! بدأ الآن النصف المعتم لزوجى فى العمل. ولكن لا تهتمى. ربما يتفاءل مع حكاية أخرى!

غير أن فيونا بدت لحظتها شاردة وهى تزم شفتيها وترتكز بيديها إلى المائدة وقد احتقن وجهها فجأة.

وضعت يدها على فمها وأخذ جسدها يرتج وهى تبذل جهدًا لتكتم سعلات قصيرة متقطعة، ثم حاولت أن تنهض وهى تضع منشفة الطعام على فمها لكنها عاودت الجلوس وهى تنتفض بالسعال وقد تحول تنفسها إلى حشرجة مؤلمة بينما تحاول التقاط أنفاسها. وقفنا أنا ووصفى مذعورين، بينما كانت كاثرين تقف أيضًا بجوار أختها اللاهثة محتضنة كتفها وخاطبتنى وهى تحاول السيطرة على خوفها مشيرة إلى زجاجة فى طرف المائدة: بسرعة يامحمود صب ملعقة من هذا الدواء. أزاحت فيونا يد شقيقتها عن كتفها برفق وأشارت عدة مرات علامة الرفض وهى مازالت تسعل وعندما انتهت الأزمة قبضت على يد كاثرين بقوة ورفعت عينيها الدامعتين إلى أختها الواقفة، ثم التفتت نحونا، وقالت بانفعال كأنها غاضبة من نفسها وهى تلهث:

أنا آسفة، أفسدت الـ. . الوجبة ومن . . من أول مرة.

غمغمنا بعبارات احتجاج لا معنى لها بينما كانت فيونا تخاطب أختها التى تحاول التقاط أنفاسها مشيرة إلى زجاجة الدواء بشكل عابر: لا ينفع الإكثار منه. . لا يفيد شيئًا. تناولت جرعة منه بالفعل قبل العشاء.

ثم تمالكت نفسها وأكملت، قال لى الأطباء فى أيرلندا إن مرضى لا ينقل العدوى لأحد. ما كنت لأسمح لنفسى. . أنتما. . وكاثرين.

قلت محتجا: ما هذا الكلام الآن؟ المهم أن تستردى صحتك.

فكررت بنبرة توكيد ومع ذلك ما كنت لأسمح لنفسى أبدًا.

انحنت كاثرين على شقيقتها وقبلتها فى وجنتها وهى تقول بلهجة حاولت أن تجعلها مازحة: أنت لا تنقلين إلا عدوى الأشياء الطيبة يافيونا. ليتنى أصاب بالعدوى منك..

انتهت السهرة بسرعة. صحبت وصفى حتى قسم الشرطة وكنا صامتين وواجمين لكنى توقفت فى منتصف الطريق وسألته فجأة: لماذا فى رأيك حكت لنا فيونا قصة هذا القصر الغارق؟

ولماذا طلبت رأينا؟

فوقف وصفى أيضًا وتطلع فى وجهى بشىء من الدهشة وقال: أظن يا سعادة المأمور أنها كانت تحكى حكاية للتسلية. أنا نسيت ذلك تمامًا مع الأزمة التى أصابتها.

استأنفت المسير وأنا أقول: معك حق.

لكن شيئًا فى داخلى كان يقول إنها لم تحك حكايتها عبثا. أبسط شىء أنها أرادت أن تتعرف علينا ثم ماذا؟ وكان وصفى لحظتها يقول بلهجة مشفقة:

ـ كانت تأتيها هذه النوبات أحيانًا ونحن فى القافلة ويحزن الجميع من أجلها، واعتادت ساعتها أن تبتعد وأن تتجنبنا. عرفنا أنها تكره أن يبدى أحد الاهتمام بها فى هذه الحالات. لم تكن تظهر إلا بعد أن تنتهى الأزمة والابتسامة على شفتيها وكأن شيئًا لم يحدث.

* * *

في الصباح كنت أوشك أن أرسل الشاويش إبراهيم ليستدعى الشيخ صابر حتى أقدم له وصفى، عندما فاجأنى الشيخ بحضوره بنفسه إلى مكتبى. نادرا ما فعلها منذ حادثة مليكة وإطلاق المدفع. قال إنه سمع بوصول حضرة الضابط الجديد وإنه جاء للترحيب به باسم الأجواد. استقبلته بتحية مجاملة فاترة ثم عرفته على اليوزباشى وصفى وشرحت له أنه سيكون منذ الآن مسئولا عن الاتصال به فى كل ما يخص جمع الضرائب. لكن وصفى أدهشنى عندما بدأ يتكلم عن سعادته بالتعرف على «فضيلة» الشيخ صابر الذى سمع الكثير عن علمه من قبل أن يأتى إلى سيوة.

لم أتمالك نفسى من سؤاله أمام الشيخ: من أين عرفت؟

رد بشىء من الحماس: الأومباشى وهبة السلماوى الذى جاء معى. أصله من مرسى مطروح وعاش هنا فترة من قبل ويعرف كل أجواد سيوة.

قال الشيخ صابر: وأنا أعرفه.

ثم استأذن اليوزباشى أن يخرج «دقيقة واحدة» وعاد وفى يده علبة صغيرة مستطيلة من القطيفة الحمراء وخاطب الشيخ صابر قائلاً: إن والده الحاج همت أدى الفريضة هذا العام وأحضر معه أشياء من الحجاز للتبرك، وهو يرجو الشيخ صابر أن يقبل هذه الهدية البسيطة. بدت الدهشة أيضًا فى وجه الشيخ صابر عندما فتح العلبة وأخرج منها مسبحة صفراء قلبها فى يده وهو يقول: «كهرمان حر!» ثم راح يكرر

الشكر لوصفى قائلاً: إنها بركة حقيقية من البيت الحرام وإنه سيدعو له كثيراً هو والحاج الوالد.

وعندما انصرف الشيخ صابر قلت لوصفى وقد استبد بى الغضب:

ـ ما هذا الذى فعلته يا حضرة اليوزباشى؟

لم يفهم سببا لغضبى فقال وفى وجهه حيرة: سعادة الأميرالاى سعيد بك نصحنى أن أجامل الأجواد فانتهزت الفرصة..

ـ مع ذلك كان يجب أن تستأذننى أولا! أنت لا تعرف هذا الشيخ. هذا الرجل هو..

ثم سكت لأنى لم أعرف ماذا أقول. لو بدأت فسأشرح له كل شىء وأنا لا أريد ذلك. ليس الآن على الأقل..

قال وصفى وفى وجهه خيبة الأمل: أنا متأسف جدًا يا سعادة البك المأمور. لن أكرر هذه الغلطة.

ثم أكمل بشىء من التردد ـ كنت قد أحضرت معى مسابح لبقية الأجواد، ولسعادتك طبعًا، فهل تأذن..

لوحت بيدى لأصرفه وأنا أقول ـ افعل ما تشاء يا حضرة اليوزباشى. نفذ نصيحة سعيد بك.

وما إن خرج حتى سمعت طرقًا ملحًا على الباب.

دخل الشاويش إبراهيم ولوح بتحية مرتجلة ثم قال: عفوا ياسعادة المأمور. سامحنى للسؤال ولكن: لماذا حضر الشيخ صابر إلى مكتب سعادتك اليوم؟ يقف دائمًا بباب القسم منذ الحادثة ويرسل أحدًا بطلباته..

ـ أراد أن يتعرف على الضابط الجديد. لماذا تسأل؟

سكت لحظة ثم قال: سامحنى سعادتك مرة أخرى، ولكنى أخاف من هذا الرجل. لم يتكلم معى مرة واحدة منذ انتهى علاج رجلى. عندما يصادفنى فى الطريق ينظر نحوى كأنه لا يعرفنى. لا سلام ولا كلام.

لوحت بيدى بلا مبالاة: لا تهتم يا إبراهيم.

ـ أنا لا أهتم، ولكنى أريد أن أقول لسعادتك إن قلبى لا يطمئن له، وسمعت فى البلد أشياء. سمعت أنه هو الذى حرض الزجالة على مهاجمة القسم فى ذلك اليوم..

ـ وأنا عرفت ذلك، حتى دون أن أسمع شيئًا من البلد، كان يرأس اجتماع الأجواد فى ذلك الصباح ورأى الزجالة يزحفون على القسم فلم يحاول هو أو أى من أجواده منعهم، وكان يعرف بالتأكيد من الليلة السابقة أنهم سيهجمون فلم يحاول إبلاغى ولا تحذيرى.. أعرف كل هذا فما الجديد؟ المهم الآن أنه يجمع الضرائب ويسلمها فى هدوء..

ـ ولكن حتى متى ياسعادة المأمور؟ هذا الهدوء نفسه يخيفنى. أنا أخاف عليك وعلى الهانم وحتى على أختها.

ـ وما دخل أختها أيضًا فى هذه؟

ـ أدعو الله أن يسترها معنا، ولكن من له ثأر لا ينساه سعادتك. وصاحب الثأر مجنون. كان لى زميل فى الجيش طيب جدًا وابن ناس، ومتعلم قراءة وكتابة ترقى فى الجيش حتى اقترب من رتبة الصول. لم يكن يعرف غير شغله ولم نره يذهب حتى فى الإجازات إلى بلده مثلنا جميعًا. ومع ذلك جاء ذات يوم من قتله. كان هناك ثأر قديم على

عائلته من أيام الجدود، فأرادوا أن يوجعوا العائلة لم يقتلوا أى فلاح فى القرية والسلام وإنما أرادوا قصف رأس كبيرة فضاع المسكين دون أن يكون له ذنب.

قلت: الله يطمئنك ياشاويش!

- سامحنى سعادتك أنت وأنا باقيان هنا لأن هذا عملنا وأكل عيشنا وما سيكتبه الله علينا سيكون، ولكن لماذا لا تبعد الهانم وأختها من هنا بسرعة؟

- سأفكر ياشاويش. إنصرف أنت الآن.

بعد خروجه نهضت وبدأت أتجول فى المكتب متحاشيًا الاقتراب من النافذة، لا أريد أن أرى أحدًا. نطق إبراهيم بما كنت أفكر فيه منذ وصلت فيونا. لم أعد أطمئن إلى مفاجآت كاثرين. قد تخرج غدا وتسبب مصيبة جديدة. بعد حزنها على مليكة أو تظاهرها بالحزن عليها عادت كما كانت من قبل بالضبط. كأن شيئًا لم يحدث أبدًا، مثلها مثل البلدة التى ما إن ماتت مليكة حتى اختفى كل حديث عن الحرائق والعقارب والكوارث الأخرى. كأن البلد ما كانت تنتظر إلا دمها لتعود إلى سيرتها الأولى. المسكينة!

بالأمس فى حديث كاثرين مع وصفى الجنتلمان شعرت بنذر مصائب مقبلة. سأحاول تعطيل قافلة مطروح التى جاءت بها مع اليوزباشى بضعة أيام إلى أن أرتب سفرها هى وأختها.

اليوزباشى! بالطبع!

تخرج فى المدرسة الحربية. من أسرة شركسية غنية بكل تأكيد! أنا لا أحسده ولكن لماذا يأتى هذا المحظوظ إلى الواحة التعيسة؟ مؤكد عنده

من الوساطات ما كان يمكن أن يعفيه من هذه الوظيفة الخطرة. فلماذا جاء؟ ولماذا يتملق الشيخ صابر؟ قلبى مثلك يا إبراهيم لا يطمئن وها هى هموم جديدة تتراكم فوق الهموم القديمة. حتى طلعت يرجع الآن ليذكرنى بنفسه. سعادة وكيل الحكمدارية! هنيئا له! لم أرد أبدًا أن أكون مثله ولا فى مكانه، فما الذى كنت أريده؟ مرة أخرى ما هى مشكلتى؟

المشكلة هى أنت بالضبط يا حضرة الصاغ! لا ينفع فى هذه الدنيا أن تكون نصف طيب ونصف شرير. نصف وطنى ونصف خائن، نصف شجاع ونصف جبان. نصف مؤمن ونصف عاشق. دائمًا فى منتصف شىء ما. لم أقتل مليكة بيدى لكنى تركتها للقتل، أردت أن أنقذ محمود الصغير لكن فى منتصف المحاولة تركت إبراهيم كسر ساقه. تحمست فترة للوطن وللثوار وعندما جاءت لحظة الامتحان أنكرتهم ثم توقفت فى مكانى. لم أكن أبدًا شخصًا واحدًا كاملا فى داخله، طلعت كان أوضح مع نفسه. مادام قد خان فليكمل الطريق إلى نهايته. باع نفسه وقبض الثمن الذى يريده. أما أنا فبعت بلا ثمن وبقيت قانعًا بالسخط على نفسى وعلى الإنجليز وعلى الدنيا كلها دون أن أعرف ماذا أريد. حتى الحب اكتفيت منه دائمًا بالمتعة ثم وقفت لا أكمل الطريق. تركت نعمة التى أحببتها لتضيع منى. لم أتورط فى أى علاقة حقيقية قبل كاثرين لكن حكايتها حكاية أخرى. أظن أنها انتهت فى داخلى بعد ما جرى لمليكة. ترقد بينى وبين كاثرين كل ليلة لتبعدنى عنها وتبعدها عنى ثم تقتحمنى فى المنام.

هذه الليلة كانت كابوسا ممتدا. جاءتنى ملثمة الوجه لا يبين منها غير عينين واسعتين تجرى على شاطئ بحيرة تحفها الخضرة، أجرى وراءها

حتى أكاد أمسكها بيدى لكنى لا أستطيع اللحاق بها مهما حاولت، تحول شاطئ البحيرة إلى صحراء واسعة وسقطت أنا على الأرض فى عجز وإعياء فاستدارت نحوى وصرخت فى رعب حين رأيت وجه غولة بشعة لها عينان كجمرتين، تمسك بيدها جريدة سعف بحجم نخلة راحت تدفعها فى صدرى وتطمرنى فى الأرض التى تبتلعنى، لكن قبل أن تدفننى تمامًا نظرت مرة أخرى إليها فرأيتها بوجهها الجميل الذى لم أره سوى مرة يتطاير حوله شعر ناعم أشقر وتطفر من عينيها دموع فصحوت وأنا ألهث عاجزًا عن التنفس كأنى مدفون فعلا فى الأرض.

ظللت واقفًا داخل حجرتى فى القسم ألتقط أنفاسى بصعوبة كأنى داخل الحلم من جديد.

رجعت أجلس إلى مكتبى وأقول لنفسى للمرة الألف لا جدوى من التفكير فيما لا طائل منه. لن أهرب من عينى مليكة. لن أهرب من كاثرين ولا صابر ولا إبراهيم، ولا من وجه طلعت الذى يطل علىّ منذ أعاده وصفى. لا مهرب.

فلأفكر فى شىء آخر. شىء جميل. وأى شىء عرفته فى حياتى أجمل من نعمة؟ أحاول أن أستعيدها كلما سدت المنافذ لكنها تعاقبنى أيضًا. ترفض أن يزورنى وجهها من جديد. لا ألومها أبدًا.

أدرت وجهى نحو النافذة. لا شىء غير سماء زرقاء وسحابات صغيرة خفيفة متفرقة. ومن فناء القسم يأتى صوت وصفى رفيعًا ولكنه صارم يعطى أوامر للجنود.

* * *

سأفهمه بالتدريج. لا داعى للعجلة. لا أهمية حتى لأن أفهمه.

فى أول يوم جمعة أعقب وصوله، صحبته ومعى بعض الجنود كالعادة لأداء الصلاة فى مسجد شالى الكبير - فى الفترة الأخيرة يفسحون لنا مكانا معزولاً تقريبًا عن بقية المصلين ويصافحنى بعض الأجواد دون كلام بعد الصلاة ثم ينصرفون من المسجد على عجل، فى هذه المرة بعد أن صافحنى الشيخ صابر وهو يرمقنى بعينيه الزجاجيتين أمسك بيد اليوزباشى وصفى وقدمه بفخر لأجواد الشرقيين والغربيين واحدا واحدا، ثم التفت نحوى وقال بشكل عابر - الأجواد يريدون أن يرحبوا بحضرة الضابط الجديد، بعد إذن سعادة المأمور بالطبع. أومأت برأسى موافقًا وأنا أنصرف من المسجد مع بقية الجنود. وعلمت بعد ذلك أنهم دعوه للغداء فى حديقة الشيخ صابر وأنهم قد تبادلوا الهدايا.

فهمت بالطبع أن الأجواد يقربون وصفى إليهم كنوع من الإمعان فى عزلى وإهانتى بإبداء احترام وود للمرءوس يفوق بكثير ما يبدونه للرئيس. وقدرت أن وصفى يريد أن يثبت نجاحه فى عمله الجديد. حتى الآن لا اعتراض لى على ما يفعله.

قد تساهم علاقاته مع الأجواد فى تهدئة أهل الواحة بعد كل ما جرى، رغم أن إبراهيم لا يكف عن تحذيرى من أن أتصور أن الحكاية قد انتهت وكان الشاويش مرتاحًا على أى حال لأن عمله كجندى المراسلة التابع لى يعفيه من الاحتكاك مع وصفى الذى يعامل كل الجنود بشدة وقسوة. لا يكف منذ الصباح الباكر عن تنظيم طوابير المشى والجرى وضرب النار أحيانًا.

وكان الجنود يخافونه ويطيعونه. استأذننى فور وصوله فى إجراء هذه التدريبات والتمارين اليومية للجنود فوافقت. قلت لنفسى ما الضرر فى المحافظة على لياقة الجنود واستعدادهم الدائم ونحن نعيش بالفعل وسط الخطر؟

غير أنى لم أصحب وصفى معى فى جولاتى الليلية إلى أطراف الواحة والتى أصبحت نادرة. لم يعد لها داع بعد أن توقفت تقريبًا غارات البدو.

انشغلت أيامها كثيرًا بحالة فيونا. لم أفلح فى تعطيل القافلة التى كان لابد لها من العودة بسرعة لتحمل ماتم جمعه من حصص الضريبة كما أمرت النظارة ولم تكن حالة فيونا تسمح لها بسفر آخر طويل ومجهد. خابت توقعاتها هى وكاثرين بأن يساعد الدفء والجو الجاف على تحسن حالتها وسعالها، لا سيما أنهما ما كانتا تخرجان من البيت، بل تنتقلان من حجرة إلى أخرى وراء أشعة الشمس وتقضيان معظم الوقت فى الباحة الخلفية الشبيهة بشرفة مكشوفة عالية الأسوار تغمرها الشمس طول النهار وتجلس فيها فيونا وحولها عباءة ثقيلة من الصوف تغطى صدرها وجسدها.

واعتاد اليوزباشى وصفى أن يسألنى باستمرار عن حالة «الميس فيونا» فأرد عليه باقتضاب، لكنى ذات صباح وكانت قد قضت الليل كله فى سعال لا ينقطع ولازمتها كاثرين قلت لوصفى إن حالة الميس لا تتحسن. بدا فى وجهه انزعاج وأسف وقال إنه كان يريد أن يقترح شيئًا لا يعرف كيف سأقبله أنا أو ستقبله الآنسة. . تساءلت إن كان يريد أن يطلب يدها منى! نظرت له ليكمل كلامه فقال: إن الأومباشى وهبة الذى جاء معه أخبره أن لديهم فى هذه الواحة أعشابا ونباتات لا توجد فى أى مكان آخر فى مصر وإن كثيرًا من الناس يأتون من مرسى

مطروح بل ومن الإسكندرية للتداوى بهذه الأعشاب التى لها مفعول السحر.

قلت إننى أصدق ذلك تمامًا لأن العلاج بهذه الأعشاب هو الذى أنقذ حياة الشاويش إبراهيم وأنا أستغرب كيف لم يخطر هذا على بالى حتى الآن.

ثم فكرت كيف أستطيع أن أطلب عون الشيخ صابر أو أى إنسان آخر فى الواحة وأنا الآن العدو الذى لا يوجه له أحد مجرد السلام. قلت لوصفى إنى سأعرض الفكرة على الآنسة فيونا وسأترك لها القرار.

وفى اليوم نفسه نقلت إلى فيونا ما سمعت وحدثتها عن تجربتى مع إبراهيم فبدا فى وجهها الاهتمام وقالت: فلنجرب يا محمود. ما الذى سنخسره؟ هذا الدواء المر الذى وصفه لى الأطباء فى أيرلندا لم يعد يفيد بشىء. نظرت إلى كاثرين فقطبت حاجبيها غير مقتنعة، لكن فيونا ألحت.

رجعت إلى قسم الشرطة واستدعيت وصفى ومعه الأومباشى وهبة السلماوى.

رأيته مرات من قبل لكنى لم أكلفه بأى عمل. كان الأومباشى ضخم الجسم له ملامح بدوية ولهجة بدوية نفرت منها: سألته عما يعرفه فكرر أمامى ما قاله لوصفى.

- وهل تعرف من يعالج بهذه الأعشاب؟

بدا فى وجهه الأسى وقال مع الأسف يا سعادة المأمور. آخر من شهد له أهل مطروح الذين قصدوا سيوة للعلاج. اعتزل العالم كله ويسجن نفسه فى حديقته.

قال وصفى بحماس: فلنجرب معه.

فكرر وهبه محذرا ـ هو لا يقابل أحدًا يا حضرة اليوزباشى. ثم نظر نحوى وهو يقول ببطء بصوته الأجش: حتى لو قلنا له إننا من طرف سعادة المأمور فسيرفض أن يقابلنا. أنا أعرفه.

أدركت أن وهبه يعرف أشياء عما جرى فى الواحة فلم أعلق على كلامه، لكن وصفى قال بالحماس نفسه: هل تسمح لنا أن نحاول يا سعادة المأمور؟

سكت لحظة، كان وصفى خلالها يتطلع نحوى بلهفة فكررت ما قالته فيونا: «ماذا سنخسر؟».

أدى وصفى التحية العسكرية التى لا يكف عن تكرارها.

ثم قال بلهجة آمرة: ورائى يا أومباشى.

وبعد قليل سمعت وقع حوافر حصانين يغادران باحة القسم.

* * *

١٥ـ كاثرين

هل قلت إن اسمه الشيخ يحيى؟ أنا أعرفه .

حكيت لمحمود وفيونا عن مقابلتى الوحيدة مع الشيخ وقلت إنها كانت فى يوم الزيارة إياها لبيتنا مدركة أن محمود سيفهم ، أما فيونا فقالت ما دمت تعرفينه يا كاثرين فلنحاول معه . . لا أمانع أن أذهب معك لنقابله . احتج محمود : لا يمكن . إذا كان قد رفض أن يقابل ضابطا وجنديا يعرفه منذ زمن طويل فما الذى يجعله . . .

لكنى رأيت لهفة فيونا فقاطعته : لو كنت أنا مكانه لرفضت أيضًا . هذا كما لو كان أمرا عسكريا لرجل اعتزل الدنيا كما تقول بأن يقطع عزلته . لكن ربما لو ذهبنا نحن إليه وحدنا ـ مجرد امرأتين تطلبان العون فقد يختلف الحال .

خاطبنى بالعربية قائلا : خروجك أنت بالذات فى هذه الظروف خطر وأنت تعرفين . خطر يهددك ويهدد فيونا معك .

عندما سمعت اسمها على لسانه قالت بلهجة ضارعة : وافق يا محمود أرجوك . أنا لا أتوقع معجزات بطبيعة الحال ، لكن لو هناك شىء يخفف ولو قليلا من هذا السعال فأنا . . ثم سكتت .

حوّل محمود بصره عن فيونا وبدا مستغرقا فى التفكير ثم قال :

ـ لا أطمئن لخروجكما وحيدتين. سأرسل معكما بعض الجنود.

هتفنا فى صوت واحد تقريبًا «لا !» ـ ثم ضحكنا.

وقف متردداً لحظة ثم انصرف. أنا متأكدة مع ذلك أنه سيرسل خلفنا بعض الجنود.

لبست ثوب ركوب الخيل، وارتدت فيونا ثوبا رماديا ووضعت على كتفيها شالا من الصوف ثم انتظرنا طويلا أن يرسل لنا محمود الحمارين. خمّنت أنه يجد مشكلة فى العثور على من يرضى بتأجير أى شىء لنا فى هذا الوقت الذى تعادينا فيه الواحة.

رويت لفيونا بإيجاز قصة مليكة. حكيت فقط عن زيارتها وهى غولة عن موتها. لم تبد دهشة كبيرة حين سمعت عن أسطورة الغولة، لكن الحزن اكتسح وجهها حين سمعت بموتها الذى ظل لغزا، أهو قتل أم انتحار؟

قالت : لا تغضبى منى يا كاثرين، سواء كانت قد انتحرت أم لا فهى قد ماتت قتيلة على أى حال. لتكن عاداتهم هنا ما تكون، تعجبنا أو لا تعجبنا ـ هى عاداتهم وهم راضون بها.

ما شأننا إن كانوا يتشاءمون من الأرامل أو لا يتشاءمون؟ هذه حياتهم التى ظلت تمضى على طريقتهم منذ مئات السنين. لم يحدث موت أو قتل بسبب هذه العادة إلا عندما جاء الأغراب.

دافعت عن نفسى : أنا لم أفعل شيئا. هى التى جاءت إلى بيتى عندما كان محرما عليها الخروج.

لم تقل فيونا شيئا.

وكنت بالفعل أدافع عن نفسى أمام أختى. فماذا لو كنت قد حكيت لها القصة كاملة؟

بمنتهى الصعوبة خرجت من هذه الأزمة. سجنت نفسى أياما بعد أن سمعت بموتها لا تفارقنى صورتها ولا يفارقنى حزنى. أفكر فى كل ثانية من لقائنا الوحيد وما انتهى إليه. أحاول أن أفهم ما حدث وأحاكم نفسى. هل هى التى أغوتنى؟ أنا التى أغويتها؟ وهل كان هناك إغواء بالفعل أو خوف؟ كانت فى منتهى العذوبة حين دخلت. أدركت استحالة التفاهم باللغة فاخترعت حكاية التمثالين، لكنها غضبت منى ومن نفسها لأنها عجزت عن إفهامى ما تريده بالكلام وبإشارات التمثالين. وما الذى كانت تريده بالفعل؟ عندما عانقتنى كان احتضانها رقيقا كعناق طفلة. أنا التى سيطرت علىّ لحظتها فكرة سافو وغزلها الأنثوى. هل كنت خاضعة بالفعل لتأثير شاعرة (ليسبوس) أو متوجسة منه؟ راغبة فيه أو رافضة له؟ دفعتها بعيدا عنى فتمزق ثوبى. خافت. لعلها أرادت أن تثبت أنها لا تريد إيذائى فركعت أمامى تحتضن ساقى. أما ما بعد ذلك فضباب كامل فى ذهنى. لماذا قبلت صدى؟ ما الذى حدث فى تلك اللحظة بالضبط؟ هل فاجأها صدرى العارى فقبلته أو أنا التى ضممتها إلىّ؟ جاء دورى أنا لأخاف فاختطفت الجريدة وبدأت أضربها وتلك الأشعار الملعونة تطاردنى.

لا أعرف بالضبط ما كان يدور فى ذهن مليكة لعلها كانت بريئة تماما. ما كان يعنينى هو أن أحاسب نفسى وقد انتهيت إلى أن هذه بالفعل ليست حقيقتى. هى فى أسوأ الأحوال لحظة ضعف. لحظة ارتباك بسبب الوحدة القاتلة فى هذه الواحة. نعم هذه اللحظة لم تكن

إلا وهما. وبفضل إرادتى وحدها استرددت نفسى من الخوف والضعف. لست مسئولة عما حدث، ولم يكن ما حدث مهما، ولست مذنبة لموت مليكة. فهل يمكن لفيونا أيضا أن تفهم وأن تبرئنى لو حكيت لها هذا التعقيد كله؟ أما أنا فقررت أن أطوى هذه الصفحة نهائيا.

جلسنا صامتتين فى الشمس ننتظر رسولا من محمود الذى لم يساوره لحسن الحظ أى شك فيما دار بينى وبين مليكة سوى أنها هاجمتنى ومزقت ثوبى.

وأخيرا سمعنا نهيق الحمير ونداء باسم محمود. فتحت الباب فوجدت أسفل السلم جنديا طويلا عريضا من الشرطة يركب حمارا ومعه صبى متجهم يجر حمارين. تقدمت فيونا أيضا من الباب ولوحت بيدها واتسعت ابتسامتها وهى تقول بلهجة بالغة الركاكة:

- إصباح الخير مستر سلماوى!

رد الشرطى تحيتها بحرارة وخاطبتنى بصورة عابرة: كان معى فى القافلة. يعرف قليلا من الإنجليزى وهو طيب جدا.

كانت الشمس تغمر الخلاء الممتد أمامنا والمدينة المحصنة إلى يسارنا لكن فيونا شعرت بهواء بارد فدخلت ورجعت بعد قليل وهى تلبس العباءة الزرقاء المقلمة التى تلتف بها النساء فى الواحة وقالت وهى تحبكها حول جسمها:

- أليست جميلة؟

نظرت لها باستغراب وقلت: هى تدفئ على أى حال.

فقالت بشيء من الفخر: يسمونها «تارفوتيت». أهدتها لى امرأة فى القافلة..

وقف الأطفال ينظرون إلينا من بعيد ويصيحون بأصواتهم الرفيعة ما خمنت أنه شتائم، نهرهم السلماوى وهو يلوح مازحا ببندقيته فجرى الأطفال مبتعدين.

سألته بالعربية: المسافة بعيدة؟ فقال ربع ساعة تقريبا. لم تكن فيونا قد ركبت حمارا من قبل وكانت تضحك مبتهجة كطفلة وهى تحاول امتطاءه، لكنى حذرتها من أن الحمير تقفز فجأة أحيانا وتتطوح فتسقط من يركبها ونصحتها أن تتشبث جيدا باللجام.

سبقنا السلماوى فى الطريق وكان الولد العابس يجرى وراءنا كالمعتاد. خلفنا شالى وراءنا واتجهنا شرقا نحو أغورمى فى الطريق الترابى المفضى إلى المعبد. هذا هو الطريق الذى قطعته مليكة وهى عائدة من منزلنا تنزف دمًا، وهو آخر ما رأت من الدنيا. كفى! ألم أعاهد نفسى ألا أفكر فيها أبدا؟

أسمع من وراء الأسوار أغنيات الزجالة المعتادة، لكن رائحة التين وفواكه الصيف والخريف الأخرى اختفت وتفوح الآن بدلا منها رائحة سماد عضوى فى الأرض. قلت لنفسى بمرارة هى أول مرة ألاحظ فيها تغير الفصول. لم أخرج من البيت منذ سجننى محمود ومنذ وصلت فيونا. كأن علاقتى بالدنيا قد انقطعت منذ سنين وكأنى لم أمر بهذا الطريق أبدا من قبل!

ظهرت أعمدة المعبد عن بعد، لكن قبل أن نصل إليه، انحرف السلماوى يسارا فتبعناه.

وصلنا أخيرا إلى حديقة مسورة لا يبين من داخلها شيء غير مراوح السعف وهى تصفق برتابة مع النسيم الذى حمل لنا أيضا رائحة النعناع والياسمين والليمون وروائح عطرية كثيرة.

توقفنا أمام الباب المفتوح وأرسل سلماوى الصبى الذى يصحب الحمارين ليبلغ الشيخ. غاب الولد طويلا ورأيت فيونا مستبشرة تتطلع حولها بابتسامتها التى لا تغيب وقالت: هذا البلد غريب ياكاثرين، عندما ترين كل هذه الخضرة وكل هذه المياه تنسين أنك بالفعل وسط بحر من الرمل.

- لكن الرمل ليس بعيدا مع ذلك. لو مددت بصرك بعد هذه الخضرة سترينه فى كل مكان.

وفى تلك اللحظة رجع الولد ومعه صبى فى مثل سنه وأبلغا سلماوى أن الشيخ معتكف ولا يقابل أحدا.

قلت لسلماوى فى غضب: مستحيل! سأدخل أنا بنفسى لأكلمه.

تحركت نحو الباب فوقف سلماوى أمامى وفرد ذراعيه يسد الطريق وقال بأدب، بصوته الأجش: يا هانم. هذا هو المستحيل، حتى فى الأحوال العادية لا تدخل النساء هنا على الرجال بمفردهن وبدون إذن. أما الآن فسيغضب مولانا الشيخ جدا. ثم سكت لحظة وأكمل وسيجعل هذا موقف سعادة المأمور أصعب فى الواحة كلها...

إذن فهو يعرف كل شيء هذا السلماوى.

تجمدت فى مكانى فى عجز وقهر. وطلبت منى فيونا أن أقول له إننا نطلب نصيحة الشيخ حتى ولو رفض أن يقابلنا، يمكن أن يشرح لنا علاجا أو أن يبلغنا باسم شخص آخر يثق به.

عاد سلماوى يخاطب الصبيين ثم وقفنا من جديد ننتظر، تطلعت إلى فيونا. لم تفقد هدوءها لكن خيبة أمل كانت تغشى وجهها وهى تقول بلهجة مستسلمة:

- إن لم ينفع هذا أيضا فليس أمامنا سوى أن نرجع.

لكن فى لحظتها رأيت الصبيين يعودان جريا وقالا شيئا لسلماوى الذى تهلل وجهه وأشار لى ولفيونا أن نرجع قليلا عن الباب. وبعد قليل رأيت الشيخ يحيى بنفسه بنظارته المربوطة بدوبارة إلى أذنه وهو يتوكأ على عصاه.

بدا لى أنه شاخ كثيرا عما كان عليه فى المرة الوحيدة التى رأيته فيها، وقف داخل الباب ووجهه محتقن بالغضب.

لم ينظر نحوى ولا نحو فيونا لكنه خاطب سلماوى بعبارات هادرة باللغة التى نجهلها وسلماوى يحاول أن يسترضيه ملوحا بيديه فى ضراعة لكن الشيخ أوشك أن يستدير عائدا عندما طالبتنى فيونا بسرعة أن أقول له إنها سمعت أنه معتكف ليعبد الله، وأن أفضل عبادة الله كما تعرف هى أن يساعد الإنسان من يحتاجون إليه.

نقلت للشيخ بصوت عال ما قالته فيونا وبدأت بعبارة: أختى تقول لك...

فرد دون أن ينظر نحوى بصوت مرتعش لكنه واضح تماما - قولى لأختك لا أحد يتكلم باسم الله - هو وحده الذى يقدّر ويحكم.. فقالت فيونا: هى خطيئة مع ذلك فى كل الأديان أن يرد الإنسان محتاجا يطرق بابه..

وقال هو: إلا إن كان الطارق قاتلاً أو حاقداً.

وردت فيونا: قلبى لا يعرف حقداً على أحد. جئت أطلب عونك ورفضت أن تساعدنى لكن الله يعلم أنى لا أكرهك.

تقدم نحونا قليلا دون أن يتجاوز باب الحديقة وحدق من وراء نظارته فى وجه فيونا وهو يقول: وأختك؟ والمأمور؟

كنت أترجم بينها وبينه بشكل آلى فقالت فيونا ـ لا أستطيع أن أجيب عن أختى ولا عن المأمور ولكنى أعرف أن الكراهية فى أى قلب هى مرض. أصابنى الله بالعلة التى جئت أطلب عونك من أجلها، غير أنه أنجانى من هذا المرض.

ثم قلت: وعن نفسى يا شيخ يحيى فأنا أيضًا لا أكره أحدًا.

فقال بشكل عابر وهو يحدق بنظره الكليل فى وجه فيونا:

فهل تحبيننا؟ هل تحبين أنت وزوجك بلدتنا وناسها؟

ولم ينتظر ردا، بل استدار عائدًا من حيث جاء مستندا إلى عصاه وإلى كتف الصبى.

وقفت فيونا تتابعه ببصرها إلى أن اختفى وظللت أنا أيضا كالمشلولة فى مكانى أراقبها فى عجز. تحركت نحو الحمارين وهى تسعل بشدة وتضع يدا على فمها وأشارت لى بيدها الأخرى لنرجع.

قال سلماوى بصوت متهدج: كان معها دواء فى القافلة ينفع عندما تأتيها نوبات السعال.

قلت بجفاء: ليس معنا هذا الدواء هنا وهو لم يعد ينفع.

قالت فيونا تتعجلنا: هيا بنا لست بحاجة الآن إلى دواء. لكننى كنت أتمنى بالفعل أن يساعدنى هذا الشيخ.

فهتفت: عليه لعنة الله!

عبست فيونا فى وجهى وهى تقول: أرأيت يا كاثرين؟ ها أنت تثبتين أنه على حق!

قلت فى غضب أشد: لست قديسة مثلك!

فردت: ولا أنا قديسة. ولا أحب أن ينادينى أحد بهذا الوصف. كنت أخجل أن أقول هذا لأبى الذى اخترع اللقب، لكن أرجوك أنت ألا تنادينى به. لست قديسة. يكفى أن نكون مجرد بشر. يكفى ويزيد.

فى طريق العودة لزمت فيونا الصمت تماما. انحنت فوق حمارها وبدا لى كما لو كان جسدها كله متهدما، فرحت أحدث نفسى: إياك أن تموتى يا فيونا! إن لم تكونى قديسة فلتصبحى كذلك ولتصنعى معجزة لتشفى من هذا الداء! ما هو على أى حال ذلك المرض الذى لا يعدى ولكنه يكاد يقتلك؟ اصنعى المعجزة ما دام طب أيرلندا لم ينفع وهذا الشيخ الملعون يرفض حتى أن يحاول. أنا لا أصدق تماما حكاية أعشابهم السحرية أو أن هذا الشيخ يمكن أن يكون لديه دواء ناجع لكنى نفذت رغبتك لا أكثر.

تحدث عن كراهيتى وعن حقدى! حقدنا أنا ومحمود، بل هو الحقود! نحن على من نحقد؟ على هذه الواحة وناسها كما قال؟ غلط! هم يستحقون الرثاء لا الحقد. أنا حتى لا أفكر فيهم ما داموا بعيدين عنى، لم أكره هؤلاء الشيوخ رغم جهلهم وضيق أفقهم. بل أحببت هذا الشيخ إلى أن رأيت ما فعله اليوم. لا. أحببته كلمة فيها مبالغة. أقصد أنه أعجبنى يومها. وجدت فيه شيئا يختلف عن الشيوخ

الآخرين. لكنى اكتشفت حقيقته الآن. هو أسوأ منهم، عليه لعنة الله ألف مرة مهما أغضبك هذا يا فيونا. أنا لا أغفر بسهولة مثلك.

عندما وصلنا إلى البيت كانت فيونا من الإعياء بحيث وضعت ذراعها حول كتفى ونحن نصعد السلم المتآكل وأحطت وسطها بيدى وكنا نرتاح عند كل درجة وهى تتنفس بصعوبة. وعندما فتحت الباب تهالكت على أول مقعد فى الصالة وهى تقول متنهدة:

لم أخرج.. من البيت.. منذ وصلت. هذا هو السبب... فقدت التعود على الحركة. لا تقلقى يا كاثرين سوف أنام قليلا وستصبح حالتى أحسن.

نظرت إلى وجهها وأنا أتصنع الابتسام قائلة: لست قلقة يا فيونا. أفهم أنها أزمة عابرة مثل غيرها.

فى الحق لم أكن قلقة. كنت ميتة من الرعب.

* * *

فى الصباح صحوت بمزاج سيئ.

ظلت فيونا راقدة فى الفراش ولم أتبادل كلاما كثيرا مع محمود أثناء الإفطار، لكننى طلبت منه أن يدعو اليوزباشى وصفى على فنجان من الشاى عندنا فى المساء.

قال متعجبا: اليوم؟ ألم تقولى إن فيونا متعبة؟

- ولهذا السبب أريده أن يأتى. قد يفيد التغيير والصحبة. هذه العزلة التى نعيشها مميتة.

قال متشككا: لا أظن أن صحبة وصفى...

فقاطعته: هل تغار؟

رد بدهشة: من هذا الطفل؟

فأكملت بلهجة عصبية بالرغم منى: إذن فادعه اليوم، وقل له أيضا إنى أحب أن أطلع على ما لديه من كتب عن سيوة.

* * *

قضيت النهار مع فيونا فى حجرتها فى الطابق الثانى. حملت لها إفطارها فى الفراش، فلم تمانع كما اعتادت من قبل. تصر دائما مهما كانت حالتها على النزول للإفطار معى فى الصالة بعد أن تغتسل وتلبس كامل ثيابها كما لو كنا خارجتين لمقابلة مهمة. لكنها ظلت هذا الصباح فى الفراش، ولم تنجح بسمتها فى إخفاء إعيائها الشديد، بقيت معها وعرضت عليها أن تنتقل إلى حجرة فى الطابق السفلى معنا حتى لا يرهقها طلوع السلم ونزوله، لكنها فضلت البقاء حيث هى.

وفى المساء كنا جالستين معا فى صالة البيت ننتظر محمود ووصفى، بعد أن جاء الشاويش إبراهيم ليبلغنى أنهما سيصلان عند الغروب.

أفادت الراحة فيونا فتحسنت حالتها قليلا. تزينت وحاولت كالعادة أن تبدو طبيعية.

دخل محمود كالعاصفة بعد طرقتين على الباب وهو يحاول أن يكبح انفعالا شديدا يطل من وجهه، وكان وصفى وراءه يبتسم بشىء من الدهشة وهو يحمل حقيبة ثقيلة.

لوح محمود فى وجهينا بلفافة يمسكها بيده وهو يقول: تخيلا ما الذى حدث؟

قلت: وكيف يمكن أن نعرف؟

لكن حتى قبل أن ينتظر منا جوابا بدأ يتكلم بسرعة وحماس: دخل علىّ الأومباشى السلماوى.. أقصد كنت فى مكتبى أتأهب للانصراف عندما دخل الأومباشى وهو يحمل هذه اللفافة. أحضرها له صبى، تخيلا ممن؟ تخيلا ما الذى فيها؟

قالت فيونا : يكاد يقتلنا الفضول يا محمود . قل أنت ما الذى يوجد فى هذه اللفافة السحرية؟

أمسك محمود اللفافة ورفعها أمام وجهه متأملا وهو يقول : هنا يوجد دواء وتوجد زجاجة زيت من أرسلهما؟ . . الشيخ يحيى ولا أحد سواه! ينصح بأن تدهن فيونا صدرها بالزيت وتغطيه بالصوف طول الليل وأن تتناول الشراب أول شىء فى الصباح .

قلت : الشيخ؟ تصور! . . .

ثم أكملت متشككة : لكنه رفض أن يراها بالأمس أو أن يسمع شيئا عن حالتها . فكيف اختار لها هذا العلاج؟

تدخل وصفى : سألت أنا أيضا يا مسز كاثرين هذا السؤال ، فرد سلماوى بأنه لاحظ أن الشيخ ظل ينظر طويلا فى وجه الميس فيونا وأنه استمع إلى سعالها . .

قلت : وهل يكفى هذا للتشخيص؟ . .

فقاطعتنى فيونا : يكفى أنه فكر فى مساعدتنا يا كاثرين . كنت واثقة رغم غضبه أنه شخص طيب . .

ضحكت : بالطبع! كل الناس عندك طيبون يا فيونا!

فقالت بلهجة حادة : لا . بل الطيبون فقط . وربما يفيد علاجه ، يبدو أنه شيخ مجرّب .

قال محمود بحماس : بالتأكيد سيفيد . أدويتهم تصنع المعجزات .

جلسنا جميعا حول المائدة ، ووضع وصفى حقيبته إلى جواره وهو يقول : لن نبقى طويلا على أى حال . لابد أن يرتاح سعادة المأمور قليلا لأنه سيخرج الليلة فى دورية فى الصحراء . .

سألته : وأنت أيضًا؟

فرد وفى صوته نبرة أسف : لا . سعادته يريد أن يخرج وحده .

وغمغم محمود : لابد أن يبقى أحدنا فى القسم .

بدأت أصب الشاى فطلب وصفى بشىء من الخجل أن يكون شايه خفيفا جدا . وقال محمود إن وصفى حريص على صحته وإنه لا يشرب الشاى ولا القهوة إلا للمجاملة .

قلت : ربما لديه تسلية أخرى . فرفع الحقيبة الثقيلة الموضوعة إلى جواره وقال مبتسما : القراءة فقط ، ومعى الآن كل ما طلبته من الكتب . .

بعد أن قدمت الشاى أخذت منه الكتب وبدأت أراجع عناوينها . وجدت أنها هى نفسها التى أحضرتها معى من القاهرة - أطلس مينوتولى الشهير والصور التى رسمها للمعابد عند زيارته للواحة فى عام ١٨٢٠ وترجمة لكتاب رولفس الألمانى عن الواحات وكتب أخرى أعرفها . لكنى وجدت مقالا جديدا فى المجلة الجغرافية الملكية لانجليزى اسمه بارملى عن الصحراء الغربية وقبائلها . استأذنته فى الاطلاع على المجلة وإعادتها له بعد أيام . فقال إننى يمكن أن آخذ كل الوقت الذى أحتاجه لأنه قرأ المقال بالفعل ، وكان يعرف من قبل أن يقرأه أن كل المعابد المصرية الموجودة فى سيوة ، بما فيها معبد الوحى ، ترجع إلى آخر فترات الصحوة المصرية قبيل غزو الفرس لمصر . وقد بناه الملك . .

كان محمود يتابع الحديث وفى وجهه ضيق وملل فقاطع وصفى قائلا :

- أى أنه بناء على كلامك يا وصفى ، فبينما كان الفرس يستعدون

لغزو مصر كنا نحن نستعد لهم ببناء المعابد. عظيم! رأى الملك أن بناء المعبد أفيد للبلد من بناء جيش وهو يعرف أن الفرس قادمون. لم لا؟

بدا الارتباك فى وجه وصفى من لهجة محمود الاستفزازية وتخلص من الموقف بعبارة جاهزة: الأيام دول!

تدخلت لإنقاذه فقلت يا محمود المعبد عند المصريين لم يكن مجرد بناء بل وسيلة حماية. كان رمزا للبلد كله، سقفه مزين بالنجوم كالسماء وأرضيته هى تربة مصر. ينبت فيها الزرع المرسوم على الأعمدة التى كانت هى نفسها نباتا سامقا من البردى. وفى قدس الأقداس يتجلى الإله الذى يحمى هذا الوطن من الخراب ومن الأعداء أيضًا.

كرر محمود متظاهرا بمنتهى الجد: عظيم! عظيم!

نجح فى إرباكى أنا فغمغمت: هذه عقيدتهم يا محمود. . .

حلت لحظة صمت فسألنى وصفى: بمناسبة قدس الأقداس يا مسز كاثرين، فقد قرأت أنهم فى العصور المتأخرة كانوا يعبدون آمون فى سيوة باعتباره إله الشمس الغاربة. أعرف أنهم وحدوا بينه وبين رع إله الشمس، لكن لماذا عبدوه هنا كشمس غاربة؟

قلت: نعم، قرأت ذلك أنا أيضًا وفكرت فيه. أنت تعرف يا كابتن وصفى أن الغرب أو الأفق الغربى عند المصريين هو مملكة أوزوريس، مملكة الموتى وأرض الحساب التى اعتقد المصريون أنها فى مكان ما فى الصحراء الغربية، وبما أن سيوة هى أقصى الغرب من مصر فلعلهم اعتبروها أيضًا آخر محطة تغرب فيها الشمس عن الدنيا.

أطلق محمود ضحكة مفاجئة وقال: إذن فقد أصبح آمون هنا أيضًا إلها للموت!

قال وصفى بصوت عال فى انفعال مفاجئ:

- بل للخلود! . .

ثم استدرك بلهجته المهذبة: الخلود يا سعادة المأمور! الأفق الغربى هو عالم الخلود . .

ظل محمود يتفحصه محاولا أن يخفى امتعاضه ثم سأله عن سر اهتمامه بهذه الحفريات التاريخية وهو ضابط الشرطة الذى يشهد له بالكفاءة. ألم يجد هواية أو تسلية أفضل؟

قال وصفى: هذه ليست مجرد تسلية يا سعادة المأمور. أنا أحاول أن أعرف تاريخ بلدى وأجدادى. أدرس آثارهم وعظمتهم التى بهرت الدنيا لنقتدى بهم. لو كان الأمر بيدى لقررت تدريس تاريخ مصر القديمة وآثارها على التلاميذ منذ الصغر. سيتعلمون كيف كانت الدولة قوية والحكومة منظمة وأننا يجب أن نصبح أقوياء مثلهم لنسترد عظمتهم . .

استمر محمود فى إلحاحه: لكنك تعلم أن مقرر التاريخ فى المدارس منذ الاحتلال هو تاريخ إنجلترا فقط. التاريخ المصرى ممنوع فى مدارسنا الآن، ولكن يمكن بالطبع تعليم التلاميذ أهمية النظام والقوة من تاريخ إنجلترا أيضًا.

قطب وصفى جبينه وقد فطن إلى أن محمود يسخر منه فقال:

- أعتقد سعادتك أنهم منعوا تدريس تاريخ مصر حتى يجنبوا التلاميذ دراسة مرحلة الفتنة والخيانة وتلويث أفكارهم.

سأل محمود: أى خيانة تقصد يا حضرة اليوزباشى؟

ـ خيانة عرابى ومن معه من العصاة بالطبع .

قالت فيونا : تقصد عرابى باشا يا كابتن نيازى؟

وسألها وصفى بدهشة : هل تعرفينه؟

ردت : كنت صغيرة أيام ثورته، لكن أبى مثل كثير من الأيرلنديين فى حينها كان يعتبر عرابى باشا بطلا يقاوم احتلال الإنجليز لبلده . علق صورته فى مكتبه وظلت هناك طويلا .

قال وصفى : إذن فهو لم يكن يعلم وأنت أيضًا بالتأكيد لا تعلمين أن عرابى خان مولاه الخديو ونشر الفوضى فى البلد . لكن تمرده انتهى لحسن الحظ بهزيمة منكرة .

قطبت فيونا جبينها وقالت محاولة أن تخفى غضبها : كثير من زعمائنا فى أيرلندا انتهت ثوراتهم على الإنجليز بالهزيمة لكننا نظل نعتبرهم أبطالا . هم حاولوا على الأقل .

ـ لكن عرابى . . .

قالت فيونا بنفاد صبر وقد احتقن وجهها الشاحب : لماذا لا نغير الموضوع؟

ثم اعتذرت على الفور بابتسامة مصطنعة : السياسة تجلب الشقاق دائمًا . ربما يكون حديث الآثار أفضل . . .

قلت لنفسى : شكرا لك ؛ يا فيونا! لم أعرف أنا كيف أضع حدًا لهذا الحديث الشائك .

وأنا ما دعوت وصفى إلا لحديث الآثار . لم أشاركك الهجوم عليه رغم أنه يستحق أكثر من مجرد التأنيب . يكاد يدافع عن احتلال الإنجليز لبلده! أى عار!

لكن من العقل الآن أن أسكت، فأنا أحتاج إليه. غير أنى راقبت محمود متوقعة منه أن يغضب ويثور على وصفى. لم يفتح فمه! ما المفاجأة فى هذا؟ متى نجحت فى فهم سلوك محمود أو تصرفاته؟ لزم الصمت وهو يحدق فى فيونا أثناء انفعالها الوجيز كأنه يراها لأول مرة. مهما يكن فيجب أن أرتجل الآن شيئا لإزاحة هذا الصمت الثقيل. لابد أن أرضى الجميع.

رسمت بسمة عريضة وتكلمت متظاهرة بالحماس. فعلا اقتراح فيونا أفضل بكثير فلنترك السياسة ولنعد إلى الآثار. أريد أن أسأل الكابتن وصفى: هل يهتم أيضًا بآثار اليونانيين فى مصر؟ هل يعتبرها آثارا مصرية وهل يعتبر الإسكندر والبطالمة مصريين أيضًا؟

رد وصفى وهو ما زال متجهما: بالطبع. المصريون أنفسهم توجوا الإسكندر فرعونا مصريا والبطالمة عاشوا فى مصر أجيالا متعاقبة فهم مصريون أيضًا.

نطق محمود أخيرًا على غير توقع: وهل تعتبرون الإنجليز الذين يحتلون بلدكم أيرلنديين لأنهم عاشوا فيها أجيالا متعاقبة؟

رفعت سبابتى فى وجه محمود وقلت بلهجة مازحة: لا تجرنا مرة أخرى للسياسة. اتفقنا على أننا انتهينا من هذا الموضوع، والمقارنة ليست دقيقة تماما.

ثم وجهت الحديث لوصفى: لكنك كنت تحاول فى المرة السابقة أن تقول شيئًا عن معبد بلاد الروم. ما الذى قرأته عنه بالضبط؟ يهمنى أن أعرف.

حاول وصفى أن يتغلب على اكتئابه وأن يتكلم بطريقة عادية: لابد أنك قرأت عنه مثلما قرأت أنا. هو على الأغلب معبد يونانى أو

رومانى لأنهم أسموه المعبد الدورى . واضح من أن أعمدته كانت من الطراز الدورى اليونانى وليست من طراز الأعمدة المصرية .

قلت : لا يمكن مع الأسف أن نتأكد لأنه تهدم كله .

قال وصفى : نعم، لكنى قرأت أيضًا أنه توجد فى المنطقة المجاورة له مقابر منحوتة فى الصخر ، كلها منهوبة ولا توجد عليها نقوش لكنها فى الأغلب أيضًا مقابر يونانية أو رومانية .

فكرت قليلا ثم سألته : هل تنوى زيارة هذه المنطقة يا كابتن وصفى؟ خميسة ليست بعيدة وهى غنية بآثار لا توجد فى غيرها . لو فكرت فى زيارتها فيمكن أن أصحبك .

قال بشىء من التردد : إذا سمح سعادة المأمور بذلك .

قال محمود الذى كان يحنى رأسه شاردا عن حديثنا : فى يوم عطلتك أنت حر ياحضرة اليوزباشى فى الذهاب حيث تشاء . ولكن أنت يا كاثرين . . هل ستصحبين معك فيونا فى هذه الرحلة؟

رددت بسرعة : أقصد بعد أن تتحسن حالتها . قريبا بالطبع ، مع تحسن الجو .

انتبهت فيونا عندما ذكر اسمها وخاطبتنى قائلة : بالطبع يا كاثرين ، لابد أن أصحبك عند زيارة البحيرة فربما نكتشف هناك شيئًا تحت الماء !

ضحكنا للمجاملة لا غير . انتهى السمر وماتت الأمسية بالفعل منذ بدأ حديث السياسة ولم أنجح فى إحيائها من جديد ، بل نجح محمود فى إحراجى فلزمت السكوت أيضًا . وانتهز وصفى لحظة الصمت التى حلت ليجمع كتبه ويضعها فى حقيبته بعد أن ترك المجلة على المائدة وشكرنى على الشاى الذى لم يكن قد شرب منه رشفتين .

تأهب للانصراف فمدت فيونا يدها تصافحه وهى جالسة وقالت : حاول أن تزورنا بين وقت وآخر يا كابتن نيازى .

. . سيسعده هذا كثيرا وهو يتمنى أن تساعدها الأدوية الجديدة على الشفاء بسرعة . صحبته خطوتين وأنا أشكره للزيارة ومشى معه محمود حتى الباب وسمعته يقول :

ـ سآمرهم بإعداد الحصان الأبيض لسعادتك . أعرف أنك تحبه .

لكن عند الباب قال محمود فجأة : سأرجع معك إلى القسم .

لوح مودعا قبل أن يخرج دون أن ينظر ناحيتنا ، وبمجرد خروجهما قامت فيونا من مكانها وقالت وهى تلتقط اللفافة :

ـ سأصعد لأرتاح قليلا . ربما نبدأ تجربة أدوية الشيخ هذه الليلة .

تابعتها ببصرى وهى تمشى ببطء نحو السلم الصغير وتصعد درجاته ببطء لو تعرفين كم أتمنى أن يفيد هذا العلاج حتى ولو لم أقتنع به ، لكن معك فأنا أحلم بمعجزة من أى نوع . أنت صنعت معجزة بالفعل حين نزعت الغل والغضب من قلب هذا الشيخ وجعلته يرسل هذه الأشياء ، فأكملى المعجزة لتعيشى . .

ولكى يعيش محمود أيضًا !

نعم ، محمود يحبك بالطبع . منذ متى شعرت بذلك؟ ربما من أول لحظة عندما وقف عند الباب مأخوذا ومرتبكًا حين رآك . وأشعر به الآن حين يحاول أن يهرب بنظراته منك . قد يكون عاقلا أو مجنونا لكنه ليس ممثلا بارعا . هى أفعاله ذاتها وتعبيرات وجهه ذاتها التى رأيتها عند بدء علاقتنا عندما كان يحاول أن يهرب من الحب بالدخول فى ذاته وبالصمت ، بتجنب المواجهة ، وبالاكتئاب ! لكنى أرى ارتباكه هذه المرة أشد وحزنه أعمق . يدرك بالطبع أن منالك أبعد وأدرك أنا حبه لك ولا

أغضب . . لا أشعر حتى بالغيرة الطبيعية لزوجة مهجورة . أقول لنفسى هذا عدل! هو القصاص الواجب . . سرقت أنا منك مايكل فاصنعى الآن معجزة الشفاء وسأعطيه لك أو سأعطيك له . ولكن هل تقبلين أنت؟ هل تبادلينه الحب؟ لم أر فى عينيك حبا له . أقصد ذلك النوع من الحب ، وهل تعتبر القديسة هذا التبادل المتأخر للرجال خطيئة؟ إذن لا يهم يا فيونا . اصنعى معجزة الشفاء ثم اتركيه لى . أقصد اتركيه لنفسه فنحن لم نعد حبيبين منذ جئنا إلى هذه الواحة . ولم نعد زوجين منذ فرقت بيننا دماء مليكة . لم يعد يلمسنى ولا عدت أنا أيضًا أرغب ملمسه .

كيف حدث ما حدث؟ لو كنت أستطيع أن أتكلم مع آنسة بريئة مثلك من هذه الأمور لسألتك . لكن ليس لى سوى نفسى أعتمد عليها . يجب أن أفتش أكثر داخل نفسى لأفهم ما جرى . بل يجب أن أنسى هذا كله وأرميه وراء ظهرى . يجب أن أستأنف عملى وبحثى . هذا وحده هو المخرج لأسترد كاثرين الحقيقية .

كنت أقلب دون تركيز فى الكتب التى تركها وصفى عندما فوجئت بطرقات محمود التقليدية قبل أن يفتح الباب ويدخل مندفعا .

شمل الصالة بنظرة عابرة ثم جاء يجلس إلى جانبى .

سألته : هل سترتاح قليلا قبل الخروج للدورية؟

اعتمد بذراعيه على المائدة ووضع رأسه بين كفيه وهو يقول :

لا . لن أخرج الليلة . أجلت الدورية للغد . أشعر بتعب .

ابتسمت لنفسى . أعرف يا محمود هذا التعب! أعرفه تمامًا!

* * *

١٦ ـ محمـــود

سحب بيضاء خفيفة لا تبشر بأى مطر لكنها تحجب الشمس والدفء.

أراها من نافذة مكتبى تتجمع ثم تتفرق فى دوائر متباعدة. سيكون يوما صعبا على فيونا وكاثرين. ليست محظوظة فيونا، ظلت مشكلتنا هنا هى الحر القاتل لكنها تأتى فى وقت نبحث فيه عن مجرد الدفء فى الليل. أتمنى أن تنفع معها أدوية الشيخ يحيى. رأيت بالأمس القلق فى عينى كاثرين وهى تتلصص بنظرها إلى أختها. كانت فيونا بالفعل شاحبة شحوب الموت. لا! إياك أن تذكر الموت! ألم تنفعل ويتضرج وجهها وهى ترد على وصفى حين وصف الثوار بأنهم خونة؟ لا! ستسترد صحتها بالتأكيد مع هذه الأدوية، وسيرجع ذلك البريق فى عينيها وهى تحكى حكاياتها الأيرلندية فى الأمسيات وستبقى تلك النظرة الصافية التى تخترق الروح.

كفى!

نهضت وذهبت إلى النافذة أطل على ساحة القسم. ألم تشبع بعد ياحضرة اليوزباشى من تدريبات المشى والجرى والقفز مع الجنود منذ

طلعة الشمس؟ أصبح هؤلاء البؤساء صالحين تماما لخوض المعارك الحربية مع أى جيش لكن مانفع ذلك هنا؟ عند الخطر لاشىء يصلح غير قذيفة مدفع - شرط أن تنطلق! ربما أختبر شجاعتك بإرسالك معهم فى دورية فى الصحراء لتلاقوا البدو. لن ينفع ساعتها أن تتملقهم كما تتملق الأجواد. إما أن تطاردهم أو أن يصطادوك!

لم يهتز لك جفن عندما قالت فيونا إن الهزيمة لاتنزع البطولة عن الثوار، سكت تأدبا لأنك ضيفى لكنى رأيت الغل فى عينيك. ومن هم بالضبط أجدادك المصريون الذين تدرس آثارهم يا حضرة اليوزباشى الشركسى الأشقر؟

قابلت أثناء الثورة قلة من شراكسة طيبين يحبون مصر كوطن لهم، لكن معظم الشراكسة كانوا يعتبرون أنفسهم السادة وتآمروا أكثر من مرة لقتل عرابى (الفلاح) وفرحوا لهزيمته مثلما تفرح أنت. إذن فيم تهمك آثار أجداد هؤلاء الفلاحين الذين تريد أن تسترد مجدهم؟

ربما تقصد بالذات الفراعنة! ربما تراهم أسلافك الأسياد الذين حكموا عبيدا من المصريين. ظللتم أنتم أيضا سادة فى حضن السادة الأتراك وعندما ثار عليكم العبيد استعنتم عليهم بسادة آخرين من الإنجليز فهزمتموهم وبقيتم بعدها سادة أيضا. وأنا، ماذا اعتبرت الثوار؟ قلت فى التحقيق إنهم بغاة، فما الفرق بينى وبينك؟

لكم أكرهنى!

عدت أجلس إلى مكتبى لكنى سمعت فجأة لغطا فى فناء القسم واختفى صوت «وصفى» الزاعق وهو يصدر أوامر التدريب. نهضت من جديد ونظرت من النافذة فرأيت الجنود واقفين فى وضع الاستراحة

والأومباشى السلماوى يكلم وصفى الذى انهمك فى قراءة شىء ما ثم استدار وأعطى أمرا لاثنين من الجنود فتوجها جريا نحو باب القسم بينما أسرع هو فى اتجاه السلم.

دخل مكتبى مندفعا ووراءه الشاويش إبراهيم فالتفت إليه وقال بلهجته الآمرة: أخرج الآن وأغلق الباب وراءك. أريد أن أبقى مع سعادة المأمور بمفردنا فلا تدخل أحدا.

نفذ إبراهيم الأمر وفى وجهه دهشة وتذمر، وحاولت أن أبدو هادئا وأنا أسأل:

- ماذا حدث يايوزباشى؟

لم ينس أن يؤدى التحية العسكرية وهو يسلمنى ورقة مطوية قائلا:

الحمد لله أن سعادتك لم تخرج فى دورية بالأمس. رمى صبى هذه الورقة مربوطة فى حجر فى فناء القسم ثم جرى. رآه الأومباشى وهبة السلماوى وحاول أن يجرى وراءه لكن الولد كان أسرع. أرسلت جنديين لمحاولة اللحاق به والقبض عليه.

فتحت الورقة التى كانت تضم سطرين مكتوبين بحروف كبيرة مائلة:

«المأمور لا يخرج وحده فى دوريات ليلية هذه الأيام. هناك ناس يتربصون لقتله»..

تأملت الورقة، ماأسهل أن نعرف كاتبها. يمكن أن نعدهم على أصابع اليد من يعرفون الكتابة هنا. ولكن لماذا أرسل هذا الإنذار؟ من الذى لايسعده فى هذه الواحة أن يتخلص منى وبسرعة؟

طويت الورقة من جديد ووضعتها على المكتب وتطلعت صامتا إلى وصفى الذى سألنى وهو يقف متخشبا كعادته :

ما معنى هذا التهديد ياسعادة المأمور؟ أرجو أن يعثر الجنود على الولد الذى رمى الورقة لنستجوبه . هل تشك سعادتك فى أحد حتى نقبض عليه حالا؟

رددت مبتسما : هل يمكن أن تقبض على كل سكان الواحة؟

قال متحيرا : بالطبع لا . لكن يمكن أن نطلب من الشيخ صابر أن . .

قاطعته : وهل حقا لا تعرف ياوصفى معنى هذا التهديد؟ ألم تسمع حتى الآن من الشيخ صابر أو غيره من الأجواد ما حدث هنا قبل وصولك؟

بدا الارتباك واضحا فى وجهه وهو يقول : ياسعادة المأمور أنا أريد . .

ـ تريد المساعدة . شكرا ، ولكن لم يكن هناك داع أيضا لإرسال الجنديين . لن يجدا الصبى ولن يتعرفا عليه مادام لم يرياه . تستطيع الانصراف الآن يايوزباشى واستئناف تدريب الجنود . سيفيد هذا التدريب لو فكر الأهالى فى اقتحام القسم من جديد .

خرج وصفى فسمعت طرقات الشاويش إبراهيم المعهودة على الباب .

قال وهو يدخل وفى وجهه انزعاج شديد : سامحنى ياسعادة المأمور ولكن ماذا جرى؟

تطلعت إلى وجهه مليا وكان قلقه يزداد فى كل لحظة حتى بدأ

جسده يرتعش. زادت التجاعيد فى وجهه وبدت عليه شيخوخة سنه الحقيقى منذ نجا من الموت، لكنه قطع صمتى قائلا بصبر نافد:

قل لى، الله يرضى على سعادتك، ما الذى جرى. أنا أعتبرك مع حفظ المقام مثل ولدى، الله يشهد.

- أعرف هذا ياشاويش إبراهيم دون أن تقوله، وأنت أيضا مكانتك كبيرة فى نفسى. الحكاية..

ثم لم أبال أن أنقل له كل ماجرى فتغضن وجهه وقال بلهجة حزينة:

هل تذكر ما قلته لسعادتك فى ذلك اليوم؟ هم لاينسون أبدا. فانتبه لنفسك...

توقف فجأة ثم أكمل باندفاع: وانتبه لنفسك أيضا من هذا اليوزباشى!

- لماذا تقول ذلك؟ ما الذى تعرفه عنه؟

- لا أعرف شيئا ولكن كل الجنود يشتكون منه. هو ليس إنسانا طيبا مثل سعادتك. وأنا أخاف من عينيه الشبيهتين بعينى قط.

قلت بهدوء لأطمئنه: لا تخف من شىء ياشاويش إبراهيم. تستطيع الآن الانصراف.. أدى التحية العسكرية التى كثيرا ما ينساها غير أنه توقف مرة أخرى قبل أن يخرج وقال ملوحا بإصبعه:

لكنك تستطيع أن تطمئن للاومباشى وهبة السلماوى.. هذا رجل طيب وأنا أعرفه منذ زمن.

- شكرا، انصرف الآن يا إبراهيم.

بعد أن خرج حاولت أن أشغل نفسى بكتابة ردود على آخر مكاتبات النظارة لأرسلها مع القافلة المقبلة. لكن لا فائدة. لم أستطع التركيز على أى شىء.

لا تعنينى تلك الرسالة والتهديد قائم منذ وصلت هنا ومن قبل أن آتى. أكاد أستبطئه! وقوعه ولا انتظاره كما نقول. لو أرادوا تنفيذه فى أى وقت فلن يوقفهم شىء. إذن فهم أيضا يحسبون حساباتهم بعد أن عشنا فترتين من الهدوء. المرة الأولى بعد بطولتى المزعومة فى إنقاذ ابنهم، وهذه المرة التى ظللنا نعيشها بعد طلقة المدفع. اختفت الكوارث التى نسبوها إلى مليكة ولم تختف تهديدات الكوارث التى تسببها كاثرين. ها هى تريد الخروج مرة أخرى إلى خميسة وأن تجر معها فيونا أيضا إلى مغامرة جديدة! لن أسمح أبدا. مفاجآتها لا تنقطع فلماذا ورطت نفسى معها من الأصل؟ وهل أنا الذى ورطتها أم هى التى ورطتنى؟ لا يهم. ذكرتنى فى ليالينا الأولى بنعمة فرضيت بما لدى. لن أجد نعمة مرة أخرى ولم يعد عمرى عشرين سنة. أقول لنفسى خسرت نعمة فلأحافظ على كاثرين لكن منذ جئنا إلى هذه الواحة انكسر شىء لا أعرف ماهو. انتهى هنا نهار علاقتنا إلى غروب فى هذه المحطة الأخيرة إلى الأفق الغربى كما وصفت كاثرين هذا المكان. تفتت زواجنا مثل الرمال ثم بددته كله عاصفة مليكة.

ولماذا جاءت فيونا فى هذا الوقت؟

لا. فلأفكر فى شىء آخر. إلى العمل! لكن ذهنى ليس حاضرا لحصر الأرقام وكتابة التقارير إلى النظارة. لماذا لا أكتب رسالة للأميرالاى سعيد؟ هو أيضا يرسل لى بين الحين والحين رسائل إخوانية من السلام والتحية، أجهد ذهنى لأقرأ فيها بين السطور عن أخبار

المحروسة أو حتى عن أخبار النظارة فلا أجد شيئا. بمثل هذا الحرص حافظ على نفسه مع تقلب العهود دون أن يفقد ذاته. لماذا لم أكن مثله؟ أخرجت رسالته الأخيرة وأعدت قراءتها:

«سعادتلو أخى وعزيزى محمود أفندى عبد الظاهر.

بعد إيفاء مراسم الإخاء وبث الأشواق التى يعلمها البارى سبحانه وتعالى، فلو أردت شرح ما فى الفؤاد فإن الشرح يطول من غير وصول. وإن شاء الله تكونون بعونه وكرمه فى غاية الصحة التامة وأن تكونوا فى أعلى درجات السرور..»

أعلى درجات السرور! كيف يمكن أن أرد على هذا الرجل الطيب دون أن أكذب؟

لا فائدة. قمت وبدأت كالعادة أتحرك فى المكتب الواسع. لا فائدة.

هى ترجع دائما كلما فكرت فى شىء آخر. فما العمل؟ تقول كاثرين إن أباها اعتاد أن يسميها القديسة، فلماذا أتت هذه القديسة المريضة إلى هنا لتزيد روحى كربا على كربها؟ أنا لا تأسرنى قداستها ولا طيبتها. علاقتى واهية بهذه الأمور، أفسدتنى الفترة التى ترددت فيها على محفل الماسونيين. لم أفقد إيمانى كله. لكنى اعتدت بعدها ألا أفكر كثيرا فى مسائل الحلال والحرام. هجرت الماسونية بعد أن قرأت هجوم الأفغانى عليها وتنصله منها. وكرهتها أيضا عندما رأيت الماسونيين الأوروبيين يؤيدون الإنجليز فى مصر. لكن بقى عندى إيمان بالعقل والمنطق قبل كل شىء وبقى قليل من الإيمان القديم. أعيش توبة سنوية حقيقية فى كل شهر رمضان. لا أقرب الخمر ولا النساء، وأصلى الفروض والنوافل واقرأ القرآن لكن مع انتهاء شهر الصيام

أرجع كما كنت. وبين الحين والآخر عندما تضطرب نفسي أجد راحة في الصلاة فأكثر منها. لاتعرف كاثرين شيئا عن هذا كله. تقبلني على حالي. ربما الأصح أنها لاتبالي. لكن ماذا عنها هي؟ يخيل إليّ أن كل ما تعرفه عن دينها هو الصليب الفضي الذي تعلقه على صدرها أحيانا وتقول: ورثته عن جدتي. وفيونا؟ ليس في حكاياتها المسائية دروس أو عظات ولم أسمعها تتمتم بالصلوات. هي تحكي فقط حكايات جميلة. هي بالفعل..

كفـــي!

طرق على الباب. شكرا للطارق أيا كان! صحت بأعلى صوتي كأني أطلب نجدة: ادخل!

فتح الشاويش إبراهيم الباب وقال إن الأومباشي السلماوي يستأذن لمقابلتي. سمحت له بالدخول ففتح الشاويش الباب وناداه وعندما دخل كان جسده الضخم يسد الباب فتنحى قليلا كي يخرج إبراهيم. لا أعرف سببا لمجيئه، أما أنا فكنت أريد أن أسمع منه بالتفصيل ماجرى عندما ذهب مع كاثرين وفيونا لمقابلة الشيخ يحيى، لكني تذكرت ما قاله عنه إبراهيم فسألته إن كان قد عرف الشاويش في الواحة عندما جاءها مع الجيش؟ رد بأنه عرف إبراهيم ولكن بعد ذلك بكثير عندما كانا يحاربان معا في جيش عرابي في كفر الدوار.

تذكرت بدو الإسكندرية فسألته بشيء من الدهشة: أنت كنت تحارب معه في جيش عرابي؟

ـ نعم ياسعادة المأمور. حاربنا معا، وهو جندي شجاع. عرض حياته للخطر مرة لكي ينقذني من الموت في إحدى المعارك. كنت خارج الخندق عندما بدأ ضرب النار فقفز هو منه وجذبني نحوه.

سكت لحظة ثم قلت : الظاهر أن إنقاذ حياة الناس هواية عند الشاويش إبراهيم . .

لم يفهم شيئا فظل صامتا وأكملت :

ـ لكنهم سرحوك من الجيش بعد الحرب مثلما سرحوا إبراهيم وكل الجنود .

أليس كذلك؟

ـ بلى . لكنهم احتاجوا إلىّ بعد ذلك فى الشرطة فى مرسى مطروح . لا يوجد هناك كثير من الجنود المدربين .

ـ ولماذا جئت الآن يا أومباشى؟

قال إنه كان سيطلب الإذن بمقابلتى من قبل ولكن عطلته حكاية الصبى الذى رمى الورقة . بحثوا عنه ولم يعثروا له على أثر . لكنه يريد أن يبلغنى الآن أن الشيخ يحيى بعث له برسالة مع أحد أحفاده يطلب فيها أن يرانى فى أسرع وقت .

قلت بعد لحظة صمت :

ـ هذا غريب ، ولكنه يمكن أن يأتى لمقابلتى حين يشاء .

ـ كيف ذلك ياسعادة المأمور؟ هو أخذ عهدا ألا يخرج من حديقته حتى يموت .

ـ يعنى المطلوب أن أذهب أنا إليه؟

ـ الرأى لسعادتك لكن إن شئت أن تذهب فاسمح لى أن أكون معك .

ـ لابد ، فأنا لا أعرف الطريق .

* * *

فى طريقنا إلى حديقة الشيخ يحيى أردت أن أمر على البيت لأبلغ كاثرين، ولأعرف إن كانت فيونا قد بدأت تجرب العلاج. لكن عندما ترجلت عن الحصان أوقفنى أحد جنود الحراسة الذين وضعتهم أمام البيت قائلا: إن هناك امرأة من الواحة فى الداخل.

هتفت: امرأة أخرى من الواحة فى بيتى؟ أى مصيبة أخرى ستحدث؟ تحركت أصعد السلم وثبًا فأوقفنى السلماوى بإشارة من عند أول درجة وقال بلهجة ضارعة: انتظر لحظة من فضلك ياسعادة المأمور لنفهم من الحراس ما حدث. لا داعى كما قلت سعادتك لمصائب أخرى.

كان الحارس يتلهف ليحكى مالديه: شاهد امرأة تتقدم من البيت وهى تمشى ببطء مستندة على كتف صبى، بدا من خطواتها أنها عجوز جدا. وتأكد من ذلك عندما اقتربت ورأى جزءا مكشوفا من وجهها. أرادت أن تصعد السلم لكنه منعها فخاطبته بكلمات فيها ألفاظ عربية وألفاظ من لغة البلد فهمها بصعوبة: هى تعرف الست وتريد أن تقابلها.

سأله السلماوى: وهل قالت إن اسمها زبيدة؟

رد الحارس: نعم ياحضرة الأومباشى. نظرت إلى السلماوى مستفهما فقال: أعرفها ياسعادة المأمور، هذه العجوز التى تتكلم قليلا من العربية. كانت معنا فى القافلة وأحبتها الست فيونا. أرادت أن تشترى منها عباءة التارفوتيت فأهدتها لها.

أكمل الحارس: لم أسمح لها مع ذلك بالصعود ياسعادة المأمور. لكنى أرسلت الصبى فطرق الباب وأبلغ الرسالة. وقفت الهانم الصغيرة بالباب وأشارت إلى زبيدة أن تصعد وعند الباب أخذتها فى حضنها ثم دخلتا معا..

أنهى جندى الحراسة حكايته منفعلا مثلما بدأها وأشار بيده إلى صبى يجلس على الرمل ويراقبنا من بعيد قائلا بلهجة دفاع عن النفس: هذا هو الولد الذى جاءت معه. سيقول لسعادتك كيف حاولت منعها.

أردت أن أواصل صعود السلم فاقترب منى السلماوى وهمس فى أذنى: وحتى لو كانت عجوزا ياسعادة المأمور وعمرها مائة سنة فلا يجب أن يدخل أى رجل إلى البيت وهى فيه.

وأكمل مشيرا إلى العباءة المطروحة على السلم: مادامت قد تركت العباءة أمام الباب فذلك يمنع دخول الرجال. هذه عادتهم، والولد الجالس هناك سيبلغ لو دخلت البيت. نحن الآن مطمئنون أن العجوز لن تؤذى أحدا فدعنا إذن سعادتك نكمل مشوارنا..

ترددت لحظة ثم عدت أمتطى الحصان وكذلك فعل السلماوى. هو الذى يعطى التوجيهات الآن وأنا أتبعه. لابأس. سأجرب نصيحة إبراهيم وأثق به إلى أن أختبره. اتجهنا إلى طريق أغورمى. وبعد أن عبرنا رقعة الصحراء المكشوفة أمام المدينة مررنا فى الطريق الذى يخترق الحدائق المسورة. كان الغناء يتوقف فى الداخل عند سماع صوت حوافر الخيل ويظهر بمداخل الحدائق بعض الزجالة. تعمدت ألا ألتفت نحوهم بعد نظرات الكراهية والدمدمات التى لايصعب فهمها منذ أول

حديقة مررنا بها. أخذ بعضهم يوجهون التحية بحرارة إلى السلماوى وهم يكررون اسمه لكى أفهم أن تحيتهم لاتشملنى.

كنت أسبق السلماوى على الطريق لكنه حاذانى ونحن نعبر قناة ماء صغيرة فسألته: هل تعرف ياأومباشى لماذا يريد الشيخ أن يرانى؟

ـ لا أعرف أكثر مما قلته لسعادتك. ربما يريد أن يتحدث معك عن حالة الميس..

ثم تهدج صوته الأجش فجأة حتى ظننته على وشك البكاء.

أوقفت الحصان وسألته مستغربا: ما الحكاية يا أومباشى؟

فأحنى رأسه وقال وهو يتمالك نفسه: سامحنى ياسعادة المأمور، ولكننى أفكر. الشيخ يحيى لم ير الميس غير مرة واحدة وكان غاضبا من.... ومع ذلك أحبها وفكر أن يرسل لها العلاج. لو رأيت سعادتك كيف كانت الميس فى القافلة!

كانت تكلم الجنود والنساء السيويات والبدويات وأطفالهن، والله لا أعرف بأى لغة. لا هى تتكلم لغتهم ولا هم يفهمون لغتها مع ذلك.. كانوا يتبادلون الكلام والإشارات والضحك طول الرحلة. وعندما تأتيها نوبات السعال كانت بعض النساء تبكى حين يرينها تنزوى بعيدا..

غمزت الحصان فانطلق بسرعة وتبعنى السلماوى وبعد وبعد وبعد؟ كان الحصان يجرى وأنا أنظر أمامى فلم أنتبه إلى إهانات الزجالة ولا إلى مرورنا بعين الجوبة. لاحظت فقط أنى تجاوزتها عندما رأيت أعمدة معبد أم عبيد. هنا بدأت كل المصائب!

كنت أقصد المعبد مباشرة وبسرعة لكن مرشدى نادانى من خلفى وهو يحاول اللحاق بى : إنتظر ياسعادة المأمور . إلى أين تذهب؟ الطريق من هنا .

أشار لى بيده إلى طريق ضيق ينحرف يسارا فرجعت وتبعته .

* * *

أخيرا عند باب حديقة الشيخ؛ حديقة صغيرة بالمقارنة بالحدائق التى مررنا بها. قدرت من السور المحيط بها أنها لاتتجاوز نصف فدان. صفق السلماوى ونادى ببعض العبارات فظهر أحد الصبية. ظل يركز نظره علىّ بينما كان السلماوى يتحدث إليه. لم يقل الصبى شيئا لكنه عاد بعد قليل وأشار لنا أن نتبعه.

فى مدخل الحديقة كثير من النخل كالعادة وبعض أشجار الفاكهة التى لم تثمر بعد ومن ورائها دغل من أشجار الزيتون ونفذت إلى أنفى من الزرع روائح عطرية لم أميز معظمها. وبعد أن تجاوزنا باب الحديقة بقليل أشار لنا الصبى إلى حصر على الأرض فوقها وسائد مفروشة فى ظل نخلات متقاربة، جلست وظل السلماوى واقفًا وعندما أشرت إليه أن يجلس ظل مقرفصا بعيدًا عنى كأنه يوشك أن يقوم فى أى لحظة. وبالفعل فقد هب واقفًا فوقفت أنا أيضا لنستقبل الشيخ.

كان يمشى نحونا ببطء متوكئا على عصاه فتقدم منه السلماوى مصافحا وهو يقول: «السلام عليكم يامولانا» وحاول أن يقبل يده لكن الشيخ سحبها بسرعة.

تقدمت أنا أيضا وصافحته فظل ممسكا بيدى لحظة وهو يتأملنى بنظرة فاحصة من خلف نظارته، ثم قال اجلس.

قابلته من قبل مع وفد الأجواد بعد وصولى ثم مرات كثيرة فى صلاة الجمعة ولفتت نظارته انتباهى، لكننى لا أذكر أنى تحدثت معه، وخيل إلىّ أنه شاخ عن آخر مرة رأيته فيها فى المسجد. هو فوق الثمانين بالتأكيد على كل حال.

أمسك السلماوى بذراعه وساعده على الجلوس على إحدى الوسائد فأسند الشيخ ظهره إلى نخلة وقال مبتسما : شكرا يا سلماوى . أنت فهمت أنى أحتاج إلى العون .

قال الأومباشى : بل نحن الذين نحتاج عونك يامولانا .

فخاطبه الشيخ بشىء من العصبية : ما حكاية «مولانا» هذه ياسلماوى؟ أنا لست وليا من الأولياء . انس هذا الكلام .

حول الشيخ نظره نحوى حين جلست قبالته ووجه حديثه إلىّ : وصلتك رسالتى متأخرة أيها المأمور . احمد الله أنك لم تخرج فى الدورية أمس .

قال السلماوى الذى جلس مرة أخرى مقرفصًا بينى وبين الشيخ :

والله قلبى كان يحدثنى يامولانا أنك أنت الذى أرسلت الرسالة ولكن كيف عرفت بالتدبير الذى أعدوه يامولانا؟

دمدم الشيخ عابسا «مولانا مولانا!» نظرت إلى السلماوى وأشرت له بيدى محذرا فقام من تلقاء نفسه وجلس بعيدا بحيث لا يسمع حديثنا .

التفت الشيخ نحوى بعد ابتعاد السلماوى وقال : لا يخفى شىء فى هذا البلد .

هل ترى الصبية الذين يتحركون فى كل مكان وينتقلون بين البيوت والحدائق؟ لا أحد يهتم بهم، لكنهم يعرفون كل كبيرة وصغيرة وينقلون أهم الأخبار . .

ثم سكت لحظة وخاطبنى ببيت من الشعر :

أنت أنقذت صبيا اسمه محمود على اسمك فأراد هو أيضا أن ينقذك. هو الذى نقل لى بالأمس خبر عزمك على الخروج، ومنه أيضا عرفت أنهم يتربصون بك.

- من هم؟

هز الشيخ رأسه يمنة ويسرة وهو يقول: هذا ما لا أبوح به أيها المأمور. أنا لا أخون أهلى ولا أشى بهم. يكفى أن تأخذ حذرك.

ثم شرد لحظة وقال: وعاهدنى أيضا ألا تبحث عن الولد محمود أو أن تحاول استجوابه.

- اطمئن ياشيخ. أعدك ألا أبحث عنه أو أستجوبه. أنا أشكرك أنت وهو لأنكما فكرتما فى إنقاذى...

- لا تشكرنى ولكن كن حريصًا. سيجنبك هذا ويجنبنا المزيد من الدم..

قلت مندفعا دون قصد: أنا لا أخاف الموت!

فرد بهدوء: بل أنت تتمناه.

- هل تعرف الغيب أيضا؟

- الشياطين وحدها هى التى تتلصص على الغيب أيها المأمور والحمد لله أنى لست منهم. ولكن لماذا قلت فى ساحة القسم لكى يسمعك الجميع أنك خارج فى دورية فى الليل؟ اعتدت من قبل أن تخرج وتتوغل فى الصحراء، أحيانا وحدك وأحيانا مع جنودك، وأبعدت دورياتكم اللصوص عن البلد. لكنك لم تكن تعلن ذلك لأحد. فلماذا

فعلت هذا بالأمس وأنت تعرف أنك تعيش فى خطر؟ أنا لا أقرأ الغيب الذى لايعلمه سوى الله سبحانه، أيها المأمور. لكنى أقرأ ماتفعله وما تقوله.

قال ذلك وانهمك فى تثبيت الدوبارة التى تربط نظارته بأذنه ثم لزم الصمت.

قلت بعد فترة: ليكن. ولكن أنت أيضا من يومين فقط رفضت أن تقابل زوجتى وأختها وقلت عنى أشياء سمعتها. أعرف أيضا أنك مثل أهل الواحة جميعا لا تحبنى، فما الذى جعلك فجأة حريصا على حياتى بعد طلقة المدفع وبعدما جرى لمليكة؟

احتقن وجهه بغضب مفاجئ وهو يقول: لماذا لاتسكت؟ لماذا تفتح هذه السيرة؟

مليكة لم تكن بنت أختى فقط بل كانت أعز عندى من أغلى بناتى!

صحت كالملدوغ: بنت أختك؟ أنا لم أكن أعرف حتى أنها قريبتك! لم يخبرنا أحد.

ـ وها أنت قد عرفت، فما الفائدة؟ ماذا كنت تريدنى أن أفعل حين رأيت زوجتك وذكرتنى بكل ما جرى بسببها وسببك لمليكة؟. أنتما قتلتماها.

قلت مدافعا عن نفسى: هى التى خرجت وهى غولة وأثارت الذعر فى البلد.

ـ لم تكن أول مرة تخرج فيها. اعتادت من صغرها أن تتخفى فى ثياب الصبيان وتخرج فلا يتعرف عليها أحد، لكن أنتما نزعتما عنها

ثوب التخفى ورميتماها فى الطريق فى فضيحة، فجرى فى البلد ما جرى. ولم تكتف أيها المأمور بذلك بل ذهبت تطلب الثأر منها. الثأر لماذا؟ هل قتلت زوجتك؟

قلت فى حزن حقيقى: عندما دخلت البيت رأيت زوجتى تدافع عن نفسها ورأيت ثوبها ممزقا، اعتقدت بالفعل أنها تريد قتلها.

- غباء! لماذا تريد قتلها؟ آخر ما نطقت به كما سمعت أنها كانت تبحث عن صحبة من غير أهل البلد الذين كرهوها وكرهتهم. قصدت بيتك بحثا عن الود، فقابلتماها بالحقد ثم قتلتماها.

- ألم تكن هى التى انتحرت ياشيخ؟

هب بجذعه قليلا وقال بصوت يرتجف بالغضب: مليكة لاتنتحر! لماذا تقتل نفسها وهى التى تحب الدنيا كل هذا الحب؟ كانت. . كانت تجد الجمال فى كل شىء فى الزرع وفى أطلال المعابد وبفضلها أحببت أنا هذه الآثار التى يخاف منها الناس. . مليكة. .

سألت بإلحاح لأرده إلى الموضوع:

- إذن فقد قتلوها؟

- ومن سيقول؟ من سيعترف أنه أغمد السكين فى قلبها؟. . كلهم، كلكم شاركتم. حتى الأجداد الذين اخترعوا حكاية الغولة. .

سكت الشيخ فجأة ورجع يسترخى فى جلسته وبدا أنه يبذل جهدا ليسيطر على غضبه. أحنى رأسه وقد غمرت وجهه سحابة من الحزن ثم قال بعد فترة طويلة بصوت خافت:

أحيانا أجد وسط الزرع زهرة أو نبتة جميلة لا أكون قد غرست

بذرتها أو رأيت مثلها. أرعاها وأبعد عنها الأعشاب الضارة والنباتات الأخرى، أرويها بحرص أكثر من غيرها لكنها تذوى بعد حين. لا أنجح فى إحيائها ولا فى أن أستنبت مثلها من جديد.

تمنيت لو تعيش مليكة لكنها ضاعت..

نطقت بما كان يدور فى رأسى طول الوقت: لكن ياشيخ كان هذا سببا أقوى لأن تتركهم يقتلوننى بالأمس!

رفع رأسه وقال بصوت مجهد: لولا أنى تعلمت من زمن طويل أن أكره الدماء والقتل. غير أنى بشر أيها المأمور. لم أتعلم أبدا من صغرى أن أسيطر على غضبى لكنى أحاول أن أقهره. تعلمت إن غضبت أن أندم وأن أتوب. وها أنا أطلب منك ومن زوجتك أن تصفحا عنى. مليكة أحبتكما ومن أجلها..

سكت وفى صوته غصة، فقلت:

ـ نحن ياشيخ نصفح أم أنت؟ لو تعرف كم أندم أنا أيضا بسبب ماحدث لابنتك!

ـ لكن الندم وحده لايكفى. الأهم التوبة.

ـ وكيف تكون التوبة الآن وماحدث قد حدث؟ هى ماتت وانتهى الأمر.

ظل مثبتا نظره على وجهى لفترة وقال: إن لم يسامح الإنسان نفسه فكيف يطلب من الناس أن تسامحه؟

ثم لوح بيده وقال: غير أنى مالهذا دعوتك أيها المأمور وإنما لكى أحدثك عن أخت زوجتك.

ارتجف قلبى ورجوت ألا يكون قد بدا فى وجهى مايفضحنى أمام هذا الشيخ الذى يقرأ بعينه الكليلة ما يدور فى نفسى.

قال: هى امرأة طيبة وشجاعة، لكنى رأيت وجهها عن قرب منذ يومين وسمعت سعالها.

ثم شرد من جديد كأنه يفكر فى شىء آخر وقال بشىء من التعجب: عرفت فى حياتى أمثالها فى كل دين وملة وجنس. قلة يولدون وقد وهبهم الله السماحة وصفاء النفس. منحة من الوهاب لا فضل لهم فيها. وهم قلة لأنه سبحانه لم يشأ أن نكون ملائكة. أدرك أننا عصاة وخطاة وأن علينا أن نتوب ونجاهد فى كل يوم حتى نصل إلى صفاء النفس بعملنا وسعينا..

عاد إلى الصمت فقلت استحثه: تكلمت ياشيخ عن سعالها. ماذا أردت أن تقول؟

رد دون أن ينظر فى وجهى: تمنيت ألا أقول شيئا أبدا، لكنى أخشى ياولدى، أدعو الله أن أكون مخطئا، أن يكون مرضها هو ذلك الداء الذى لايعرف أحد له علاجا..

هتفت فى جزع: لا! لم تسمع هذا من الأطباء فى بلدها! قالوا علاجها فى الجو الجاف.

- إن شاء الله. قلت إنى أدعو أن أكون مخطئا ولكنى أردت أن أنبهك لكى تفكر أنت وأختها جيدا فيما يجب أن تفعلا. ربما تكون حالتها بالفعل هى رطوبة شديدة تكومت فى الصدر وتأخر علاجها.

غمغمت مرتبكا: وتلك الأدوية التى أرسلتها لها بالأمس ألا تجفف الماء فى الصدر وتشفى من هذه الرطوبة؟

ـ الله هو الشافى أيها المأمور .

ـ بالطبع ولكن . . هل تشفى هذه الأدوية؟

ابتسم ابتسامة واهنة تضاعفت لها تجاعيد وجهه وهو يخاطبنى :

ـ هل سمعت جيدا أيها المأمور ماقلته لك؟

لم أفهم قصده على الفور فأكمل كلامه وهو يتطلع فى وجهى : على العموم ماأرسلته لها هو ما كان جاهزا عندى . قد يهدينى الله لأشياء أخرى . ولو كانت حالتها هى الرطوبة فى الصدر فأفضل شىء هو أن تدفن نفسها فى الرمل الساخن . لكننا الآن فى الشتاء .

توقف لحظة ثم أكمل : كنت أعرف هذا العلاج لكنى لا أبرح مكانى، ولا يستطيع أى رجل أن يعالج النساء بهذه الطريقة . أرسلت لها اليوم امرأة تعرف هذا العلاج .

ـ زبيدة؟

فهز رأسه وقال بشىء من الأسف : ولكن ـ كما قلت ـ فإن هذا ينفع فقط عندما يكون الرمل ساخنا كالنار ونحن الآن فى برد الشتاء . .

تشبثت بهذا الأمل : ـ تأتى أيام دافئة بل وحتى أيام حارة فى هذا الشتاء . .

ـ نعم، ولكن يجب أن يستمر الحر أياما وأسابيع لتدخل السخونة بطن الرمال .

ـ ندعو الله أن يأتى الحر .

قال مبتسما من جديد : ليكن دعاؤنا أبعد من هذا للقادر على كل شىء .

أحنيت رأسى أفكر : إذن مابين يوم وليلة أرسل هذا الشيخ أدوية جهزها لفيونا وبعث برسالة يحذرنى من القتلة، وأرسل هذه المرأة زبيدة وصفح عنى وعن كاثرين وطلب منا أن نصفح نحن عنه! ما هذا؟ هل هو قديس أيضا . . . أقصد . . هل هو ولى من أولياء الله وإن أنكر؟ فى هذه الحالة إذن لابد أن ينجح الولى فى معالجة القديسة ـ لكنه تحدث عن الداء الذى لايعرف أحد له علاجا . فى جلسة واحدة أحيانى بالأمل ثم أماتنى باليأس!

انتبهت إلى أن الشيخ يخاطبنى : ادعُ أن يكتب الله لها الشفاء وأنا سأدعو لك كثيرا أن تصالح نفسك .

ـ وما معنى أن أصالح نفسى؟

كأنه لم يسمعنى فأكمل : وأن تصالح الناس أيضا أيها المأمور . أعرف أن هذا لايحدث بين يوم وليلة . أعرف أنه قد يستغرق عمرا بأكمله . .

ثم قال كأنه تذكر شيئا :

ـ يحسن ألا تقول ماسمعته منى الآن لزوجتك وأختها . . إلا إن قررت ترحيلها من هنا للبحث عن علاج فى مكان آخر .

ـ أين؟ هى جربت الأطباء فى بلدها فأرسلوها إلى هنا .

ـ إذن فاصمت . لا تجعلها تفقد الأمل . .

قال ذلك وهو يرتكز بيديه على الأرض متأهبا للنهوض فقمت بسرعة أمسك بيده لأساعده ورآنا السلماوى فهرع بسرعة نحونا وأمسك الشيخ من ساعديه كأنه يحتضنه إلى أن أوقفه على قدميه .

قال: شكرا ياسلماوى. حاول أن تمر علىّ غدا فربما أعطيك أدوية جديدة لبيت المأمور...

مد يده وصافحنى بقبضة قوية رغم سنه وصافح السلماوى ثم استدار مستندا إلى عصاه واختفى بين أشجار حديقته.

سألت السلماوى ونحن فى طريق الخروج: لماذا كنت تقول للشيخ يامولانا، ولماذا أغضبه هذا؟

قال بحماس: هو أطيب من عرفت فى هذه الواحة ياسعادة المأمور. هل رأيت سعادتك هو لم ير الميس إلا للحظات لكنه يهتم بعلاجها وإرسال الأدوية الجديدة إليها رغم أنه كان غاضبا من..

سكت لكنى فهمت مايريد أن يقول:

وفى طريق العودة قال السلماوى بصوته الخشن المتهدج الذى يوحى دائما بأنه على وشك البكاء: والميس أيضا ياسعادة المأمور. أنت لم تر كيف كانت فى القافلة. كل الناس...

قلت محتدا: حكيت هذا من قبل ياأومباشى، لاتتكلم عنها كما لو كانت تموت!

كف عن هذا النواح!

وقلت لنفسى: ياويلى لو أنها كانت بالفعل تموت!

* * *

١٧ـ كـاثـرين

صباح آخر غائم .

سيكون هناك قليل من الدفء لفيونا ، وكثير من الانقباض فى قلبى يجب أن أقهره ، غير أنى لا أستطيع القراءة الآن فى هذا الضوء الضعيف . إن كنت أريد أن أساعد فيونا فلأساعد نفسى . قلت من قبل إنى لن أسمح لهذه الواحة أن تهزمنى . سيأتى وقت أخرج فيه وحدى ولو كان الثمن موتى ، مثلما خرجت مليكة وهى تعرف أنها ستدفع الثمن . كلما حاولت إبعادها عن ذهنى يحدث ما يعيدها إلى . إن لم تطاردنى فى الأحلام يعيدها شىء آخر . كل ما يحدث فى الواحة يذكرنى بها ، ومحمود لا يتركنى أنسى . فاجأنى حين حدثنى عن قرابتها للشيخ يحيى وعن حب الشيخ لها . تكلم كأنه يهاجمنى وهو ينقل لى ما قاله الشيخ عن أن مليكة جاءت إلى بيتنا تنشد صداقتنا أو صداقتى أنا لا غير .

يريدنى أن أشعر بالخجل من نفسى لأنى ضربتها وطردتها . ذكرته مرة أخرى أنه هو الذى فضحها ورماها فى الطريق فما ذنبى أنا؟ لا يقتنع . بل يريد أيضا أن أقدس هذا الشيخ وأعترف بفضله ليل نهار لأنه رغم ما فعلناه ببنت أخته يرسل الأدوية والأعشاب لفيونا ليساعدها .

ماذا أقول له؟ صحيح أنه يرسل كل فترة أعشابا لتتعاطاها فيونا. مرة منقوعة فى الماء ومرة فى ماء مغلى فى الصباح أو المساء ويرسل زيوتا متنوعة الألوان لتدهن بها رقبتها أو صدرها مع إرشادات دقيقة عن المواعيد وطريقة الاستعمال، لكن ما نتيجة هذا كله؟ تقول فيونا فى كل مرة إن صحتها تحسنت بفضل آخر علاج تجربه وأن المسألة تحتاج إلى وقت لا أكثر.

أما أنا فلا أرى أى تحسن من هذه الأدوية البدائية. شحوبها ونحولها يزدادان يوما بعد يوم. الشىء الوحيد الذى تغير أن نوبات السعال أصبحت تأتيها على فترات أبعد لكن أشد بكثير مما كانت من قبل. كأن كل ما تفعله هذه الأدوية هو أن تكتم السعال فى الصدر فتتركز الأزمات المتفرقة فى أزمة واحدة عنيفة يزرق لها وجهها وتجحظ عيناها فيجتاحنى الرعب. هى لا تشكو لكنى أرى بنفسى. فما الذى فعله هذا الشيخ لكى أشكره؟

على الأقل هو يحاول يا كاثرين كما تحاول هذه المرأة زبيدة. لكن كرمهما لا يشملنى. جاءت تلك المرأة بهدية من التمر واللوز لفيونا وفهمت بصعوبة الكلمات العربية القليلة التى تتخلل لغتها لكنها تفاهمت بسهولة مع أختى التى لا تعرف العربية بالإشارات والأصوات. وأدهشتنى فيونا حين وجدتها تستخدم فى حوارها مع زبيدة كلمات وتعبيرات سيوية تعلمتها منها. أحاول أن أفعل مثلها فاللغات عملى، أقترب منهما وأستمع إلى حديثهما لكن العجوز الماكرة نادرا ما توجه لى الكلام. يجرحنى أكثر أنها تتفادى النظر نحوى، لكنى أدون بعض الكلمات التى أستنتجها من حديثها، وابتسمت وأنا أتذكر أول زيارة لها ونحن ننظر لها فى حيرة ونحاول أن

نفهم. كانت تضم كفيها متجاورتين وتحركهما كما لو كانت تنزح بهما شيئا وهى تقول بالعربية مشيرة إلى الأرض «ننزل! ننزل!» ولم نعرف إلا من محمود فيما بعد حكاية العلاج بالدفن فى الرمال الساخنة. غير أن الحر الذى أهلكنا فى الشهور الماضية يرفض الآن أن يعود.

تحب فيونا كثيرا هذه العجوز السمراء المتغضنة الوجه بطيات التجاعيد والتى تكحل عينيها الضيقتين بغزارة. تبدو سعيدة بوجودها دائما ما تتحدث عنه معها. أدهشتنى فى بداية تردد زبيدة على بيتنا حين أمسكت بيدها وراحت تنظر بإعجاب إلى الحنة التى تخضب بها كفيها ثم سألتها باللغة السيوية «نيش؟» (وأنا؟). عجبت لأن تهتم فيونا بهذه المسألة فى مثل حالتها المتدهورة لكن زبيدة فهمت وقبلت على الفور. وفى اليوم التالى لم تخضب كفى فيونا فقط بل وشمت بالحنة خطوطا حلزونية على ظاهر يديها كفروع صغيرة مورقة يتوسطها طائر صغير. وكانت فيونا فخورة وهى تبسط يديها لتعرض هذا الوشم علىَّ وعلى محمود بابتسامتها العريضة.

مادام هذا يسعدها!

وما دام يسعدهما معا أن تتردد زبيدة على بيتنا يوما بعد يوم! إن لم يصحبها أحد أحفادها تأتى بمفردها ممتطية حمارها وتحمل هداياها دائما إلى فيونا. لكنها فى نهاية كل زيارة تشير إلى السماء وإلى الشمس الواهنة وتضرب كفا بكف. إذن فلننتظر الحر.

وهل يستطيع محمود الانتظار؟

هو أيضا يزداد نحولا يوما بعد يوم. كانت شهيته مفتوحة دائما، يكاد يكون أكولا. لكنه منذ أن وصلت فيونا لا يستطيع أن ينهى

وجبته. أراه على المائدة يحنى رأسه لكى لا ينظر إلى وجهها لكنه يبتلع طعامه بصعوبة كأن شيئا يسد حلقه ثم ينهى الوجبة بسرعة ويترك المائدة. امتنع كذلك تماما عن الشرب، ولا مجرد كأس واحدة فى المساء كما اعتاد فى حالات اعتداله، هل يبحث عن القداسة أيضا؟ أصبح هادئا ووديعا وأراحنى هذا من جنون تقلباته، وفى اليومين الأخيرين لاحظت أن يده ترتجف. أفهم وأود لو أقول له ليس بالهرب من وجهها تستطيع أن تهرب من حبها.

لا أنسى ليلة دخل البيت تعيسا ومتجهما كما لم أره أبدا من قبل وكأنه على وشك البكاء. انتحى بى بعيدا وسألنى وهو يبلع ريقه إن لم يكن من الأفضل أن نعيد فيونا إلى الإسكندرية أو القاهرة لتجد علاجا أفضل.. فهمت على الفور أنها محاولة أخرى للهرب بإبعادها عن ناظريه. قلت بهدوء إنى أوافقه تماما لكن هل يظن أن حالة فيونا تسمح بالسفر فى قافلة واحتمال برد الليل فى الصحراء؟ هذا حكم بالإعدام. أفلت منه السؤال بصوت متهدج: على من؟. تجاهلت زلة لسانه وقلت فلننتظر إلى أن يتحسن الجو. رأيت الفرح يصارع اليأس فى وجهه وهو يقول بتسليم: فلننتظر. كدت أشفق عليه لحظتها كما أشفق عليه وهو يتقلب فى الفراش مؤرقا طول الليل ثم تطارده بعدها الكوابيس التى يصحو منها فى فزع. لكنه مع ذلك غريب عنى تماما الآن. كأننا لم نكن زوجين فى أى وقت.

من حسن الحظ أن فيونا لا تشعر بهذا كله. لا يمكن لبراءتها أن تتصور أن يقع زوج أختها فى غرامها. خيالها لا يستطيع أن يستوعب هذه الفكرة حتى لو قلت لها إن كل مابينى وبين محمود قد انتهى. أنتظر فقط أن تشفى أو أن تتحسن حالتها وأتمنى أن أصل خلال ذلك

إلى شيء في بحثي . على أي حال سأرحل معها . هذا قرار نهائي . سأنتهي من حكايات محمود ومليكة وهذه الواحة من مصر وناسها . كل هذا سيصبح عما قريب وراء ظهري .

انتهزت فرصة شعاع من الشمس دخل الصالة وبدأت أقرأ ما كتبه المؤرخ (آريان) عن آخر أيام الاسكندر ـ هو مثلي معجب بالإسكندر . ليس من نقاده القساة بسبب ما فعله في حروبه بل يرى الجانب العظيم في شخصية الملك المقدوني . رحت أغير مكاني كل فترة لأقتنص ضوء النهار المتسرب من النافذة ثم سمعت صوت خطوات فيونا يقترب .

* * *

وقفت فى مدخل الصالة وقد ارتدت ثيابها الشتوية ووضعت على كتفيها عباءة الصوف. بدا وجهها مرتاحا قليلا هذا الصباح عما كانت عليه بالأمس. أظن أنى أحسنت التصرف حين صممت على نقلها إلى غرفة فى الطابق السفلى معنا. أراحها هذا من مجهود طلوع السلم إلى الغرفة العلوية. جلست إلى جوارى وأشارت إلى الكتاب قائلة:

- هل أعطلك عن العمل؟

ابتسمت وأنا أقدمه لها قائلة: هو كتاب قرأته عدة مرات من قبل. أكاد أحفظه. أمسكت بالكتاب ونظرت إلى غلافه: كتاب آخر عن الإسكندر؟ قرأته أنا أيضا فى مكتبة أبى. أعرف أنك تهتمين بالإسكندر بسبب ما جرى له فى هذه الواحة. لكن لماذا كل هذه الكتب؟ ما الذى يستهويك فيه إلى هذا الحد؟

- مقبرته!

ضحكت فيونا بصوت عال: مقبرته؟ ظننت أن ما يهمك حياته لا جثته! ولو أنى قرأت عنه الكثير ولم تعجبنى سيرته أبدا. سفك كثيرا من الدماء ودمر كثيرا من المدن. يكفى ما فعله فى ميناء (صور) فى جبل لبنان. أغضب جلالته كثيرا أن يقاوم أهلها غزوه لمدينتهم وأن يضطروه لحصارها طويلا قبل أن يقتحمها فقتل من أهلها الآلاف ذبحا وصلبا...

- أعرف هذا وغيره يا فيونا، لكنى كنت أفكر قبل مجيئك فى أنه فعل أشياء عظيمة إلى جانب هذه المذابح. بنى مدنا جديدة فى كل مكان وحاول بعد أن غزا آسيا أن يوحد الشرق والغرب..

ـ بالطبع! يوحدهما عبيدا في إمبراطوريته! هل سمعت عن أي إمبراطورية لا تعلن أهدافا نبيلة؟ ألا تقول إنجلترا الآن إن رسالة إمبراطوريتها هي نشر الحضارة والتمدن في العالم؟ تعالى انظرى إلى هذه الحضارة المعجونة بالدم من أيرلندا إلى مصر إلى الهند إلى ما لا أدرى أين!

لم أشأ أن أدخل معها في جدل. يتعكر مزاجها دائما كلما جاء في الحديث ما يذكرها بالإنجليز ومذابحهم في أيرلندا لا سيما في (كونوت) مقاطعتنا التي استباحوها مرارا.

قلت: على أي حال أنا لست مهتمة بامبراطوريته ولا بحروبه التي شغلت مئات المؤرخين لكنى مشغولة بقبره كما قلت لك. كانت وصيته أن يدفن هنا في سيوة، لكنهم دفنوه في الإسكندرية فأين قبره هناك؟

ردت في دهشة: ملايين من قبور العظماء والفقراء اندثرت واختفت مع مرور السنين، فما الغريب أن يكون من بينها قبر الإسكندر؟

ـ الغريب أننا وجدنا في الإسكندرية كثيرا من مقابر اليونانيين العاديين وآثارهم، لكننا لم نجد أي حجر أو أثر يشير مجرد إشارة إلى ضريح ملكهم نفسه، الرجل الذي بنى المدينة والذي قال المؤرخون إن ضريحه أو معبده هو قلب الإسكندرية وإن أباطرة وشعراء ومشاهير كثيرين زاروه هناك لمجرد الفضول أو لالتماس بركته كإله.

قطبت فيونا حاجبيها واستغرقت في التفكير ثم قالت: نعم، تذكرت الآن أنى سمعتك مرة تتحدثين مع أبى عن ذلك وأظن أنه افترض أن المقبرة غرقت في البحر بعد زلزال ضرب الشاطئ، أليس كذلك؟ لكنه لم ينكر أن الإسكندر دفن في الإسكندرية.

- ولا أنا أنكرت، لكنى أتساءل لماذا اختفى كل أثر له هناك؟

شرحت لفيونا فكرتى عن إمكان نقل جثمان الإسكندر سرا من المدينة التى بناها إلى الواحة التى أرادها مقره الأخير.

استردت فيونا ابتسامتها وقالت: إن كنت تعتقدين أنهم أخفوا قبره هنا فدعيه يا كاثرين يرقد فى سلام. لا نحتاج إلى النبش عنه وتذكره. لدينا الكثير من أمثاله وورثته!

ابتسمت أيضا وأنا أقول لها: لا تخشى شيئا فلن أقلق راحته أينما كان. لست مجنونة وأنا لا أفتش عن ضريحه أو قبره. هذا بحث يحتاج رجالا كثيرين وأموالا كثيرة لا أملكها. أنا فقط أبحث عن دليل - لا! - بل عن مجرد إشارة أفكر فى بحث أنشره مع دليل مقنع لكى يواصل غيرى العمل.

- لعلى لم أفهم جيدا يا كاثرين - هل قلت إنك تبحثين عن دليل يثبت نظريتك؟

- نعـــم.

- على أى أساس إذن وصلت إليها؟

- بالحدس.

- لكنهم علمونا فى المدرسة ألا نصل إلى نتيجة قبل أن يكون لدينا الدليل، وأنت تبدئين بالعكس. تخيلت نتيجة وتبحثين عن ما يدل عليها. ألا تجدين هذا غريبا؟

- لا. كثير من الاكتشافات تمت بفضل هذا الجنون.

- وكثير من الجنون انتهى أيضا إلى جنون!

كانت تضحك لكنها توقفت فجأة وقالت بنبرة جادة :

- سامحيني يا كاثرين . أنا كنت أمزح بالطبع . لا تبالي بما أقول وواصلي عملك . .

- بالطبع أفهم أنك تمزحين ولن أتخلى عن عملي . أنا لا أتخلى أبدا . . .

ثم جاءت نزوة فسألتها فجأة :

- لكن قولي لي يا فيونا . لماذا تخليت أنت عن مايكل؟

ندمت بمجرد نطقي بالكلمات لكن الوقت كان قد فات .

بوغتت هي فظلت تتطلع نحوي لفترة قبل أن تقول :

- ولماذا لا تتركين مايكل أيضا يرقد في سلام؟ هو في عالم لا يشغله فيه ما يشغلنا .

- معذرة، لم أقصد .

سكتت من جديد تفكر ثم قالت : تقلقك هذه الحكاية كثيرا يا كاثرين . ناقشتني فيها قبل زواجك ورددت عليك فهل سيساعدك الآن في شيء أن أقول لك نعم أنا كنت أحب مايكل؟ ومافائدة مثل هذا الكلام الآن؟ ألم نكن أمامه واختارك ووافقت أنا بكل رضا؟ لماذا لا تقنعين بذلك؟

لم أرد فأكملت هي :

لكني سأعترف لك بأني دهشت عندما وافقت أنت على الزواج من مايكل . لماذا وافقت وأنت لم تكوني تحبينه؟

- لست أدرى ولكنى دفعت الثمن .

- وكذلك دفعه هو .

- أحال حياتى جحيما . لم يكن يكف عن الشجار .

- حضرت إحدى هذه المشاجرات . كان ينتقد ترجمتك لمقال عن اليونانية على ما أظن . قال إن فى الترجمة أخطاء ، فرددت أنت بأنه يغار منك .

- نعم ، هو كان يغار منى .

- فلننس ذلك الماضى كله إذن . المهم الآن أنك تحبين محمود ، أليس كذلك؟ خطاباتك الطويلة قبل الزواج وبعده أسعدتنى كثيرا . فهمت منها أنك وجدت أخيرا رجلا تحبينه بحق ويحبك ، هل أخطأت الفهم؟

- لا .

نظرت فى عينى مباشرة وسألتنى بهدوء :

- فلماذا إذن لستما سعيدين . . أنت وهو؟

فاجأنى سؤالها فغمغمت : لم نعد كما كنا . حدثت أشياء فى هذه الواحة .

- أتمنى أن تتغلبا عليها . لن أتطفل على أسرارك لكنكما تستحقان السعادة .

قلت بانفعال : علمينى يا فيونا كيف أجد هذه السعادة! آمنت طول عمرى بأن أعمل . ورثت هذا عن أبى كما أظن كما ورثت أنت عن أمى هذا الـ . . الهدوء والطمأنينة . كان أبى يشجعنى دائما على أن

أستمر. علمنى أن يكون هدفى هو العمل - أن أتعلم لغة جديدة أو أن أكتب مقالا أو ربما ذات يوم أن أؤلف كتابا.

- نفذت وصيته ولكن أين أجد السعادة وسكينة النفس؟

- أنت أذكى منى بكثير يا كاثرين فكيف تسألينني النصيحة؟ عندما كنت صغيرة كنت أغار منك كلما تعلمت لغة أو قرأت عليّ ترجمة أو بحثا من تأليفك ثم أصبحت بعد ذلك فخورة بك. أشعر كأنى أنا أيضا قد حققت شيئا وأعتقد الآن أنك تجدين السعادة بالفعل فى العمل. فلا تهتمى إذن بما أقوله لك أنا أو غيرى. أنت تعرفين طريقك أفضل منا فاستمرى.

* * *

إذن فقد شعرت فيونا بخراب علاقتى مع محمود. بالطبع هى أذكى من أن يخدعها تظاهرنا بأن كل شىء على ما يرام. لكن حتى لو وجدت الشجاعة لأقول كل شىء فكيف أفسر وأنا نفسى لا أفهم؟ لو قلت لها مثلا إن زواجنا مات بموت مليكة فكيف أشرح لها الحكاية الحقيقية؟ مازال لقاؤنا الوحيد حيا. مهما كررت لنفسى أن شيئا لم يحدث وأنى طويت هذه الصفحة فإنى أعيش تلك الرعدة التى شملتنى وهى تقبلنى أو أنا أدس وجهها فى صدرى. مازال بلل دموعها ولعابها هناك لايزول مهما أنكرت. أحاول أن أطمئن نفسى بأنى عشت عمرى كله امرأة طبيعية وكنت أستمتع كثيراً بالعشق مع محمود، فيتسلل خاطر يهزأ منى، وكذلك كانت «سافو» تستمتع بالعشق مع الرجال. كانت طبيعية أكثر منى. هى كانت أمًا على الأقل تحب ابنتها أما أنا فعقيم. لا! لم أبرأ بعد.

هل تظل فيونا فخورة بى كما قالت لو سمعت هذا كله؟ تقول إنها كانت تغار منى ثم أصبحت فخورة بى! لماذا؟ هى لا تدرى إذن أنى أنا التى اعتدت أن أغار منها. أراها طول عمرى المثل الأعلى فى الجمال والطيبة التى تكسب بها قلوب الناس. هى أحب إنسانة إلى قلبى، لكنى حسدتها دائما على ذلك كله، ولعلى مازلت حتى الآن أغار منها. لم تشأ أن تخبرنى إن كانت قد أحبت مايكل أو لا. تركت سؤالى معلقا. لعلها محقة - فلنتركه يرقد فى سلام! ولنترك أيضا

سؤالها عن سبب زواجى منه معلقا . لا أعرف الجواب ، فلنترك كل أشباح الماضى . تكفى أشباح الحاضر وتزيد . شبح مليكة وحده يكفى .

فلأرجع بالفعل إلى العمل . إن لم أجد السكينة فى العمل فهو سينسينى البحث عن هذه السكينة التى لا تأتى أبدا . تنصحنى فيونا أن أستمر ، وهل هناك حل آخر؟ كأن هناك من يطاردنى لكى أستمر .

* * *

انهمكت أيامًا فى قراءة ما تحت يدى مما كتبه المؤرخون عن نهاية الإسكندر ـ أستعيد ما أعرفه لأستنطقه بالجديد، لعلى أجد الدليل الذى تريده فيونا قبل الحديث عن النتيجة. لا يكفى حدسى أو جنونى. معها حق. كالعادة دائما معها حق!

سأرتب الوقائع لعلها تبوح بشىء. ما الذى حدث بعد موته؟ أرادوا تنفيذ وصيته بدفنه فى واحة آمون إلى جوار أبيه وقدموا له تكريما أخيرا، بنوا عربة هائلة الحجم لتكون ضريحا متنقلا ينقل جثمانه من بابل إلى مصر وزينوا جانبى العربة بصور وتماثيل مذهبة تحكى سيرة الملك ـ البطل ـ الإله، وكانت تجرها عشرات البغال التى تسمع وسوسات المئات من أجراسها على مبعدة أميال وهى تشق الطريق فى رحلتها الجنائزية إلى مصر عبر الصحارى والوديان والغابات، وعبر المدن التى بناها والأخرى التى دمرها.

قضت العربة سنتين لتقطع المسافة من بابل إلى وادى النيل، لكنها لم تكمل الرحلة إلى مقصدها فى واحة آمون حسب الوصية. استقبلها بطليموس نائب الملك وحول مسارها إلى عاصمته ممفيس فى صعيد مصر وأقام الضريح هناك ليكون الإسكندر شاهدا وضامنا لمجد تابعه الطموح، الذى لم يتأخر فى أن يعلن نفسه ملكا. وعندما نقل العاصمة من الجنوب إلى الإسكندرية أخذ الجثمان إلى هناك وبنى الضريح فيما بين الفنار المعجزة والمكتبة العامرة التى أنشأها. لم يعد مجرد ضريح بل صار معبدا للإله الإسكندر بن زيوس ـ آمون. أعمدته من الطراز الدورى اليونانى، تقصده مواكب الحجاج الغفيرة فى عيده السنوى

ويأتى الحجيج للتبرك به فى كل حين، لعبادة الإله المحنط فى تابوت من رخام، استبدلوا به بعد حين تابوتا من الزجاج الشفاف ليجلو طلعته. وعلى مدى قرون ظل المعبد مزارا لكل العظماء الذين مروا بالإسكندرية من يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس اللذين صحبتهما كليوباترة بكل تأكيد، ثم من بعدهما كثير من أباطرة الرومان. كلهم يخشعون أمام البطل الفاتح الذى لم يهزم أبدا، ولعلهم كانوا يحسدونه لأن أحدا بعده لم يبلغ مثل مجده.

لكن فجأة بعد ستة قرون طوال يختفى ذكر الضريح والجثمان تماما. أصدر إمبراطور رومانى متحمس لدينه الجديد مرسوما بإغلاق كل معابد الآلهة الوثنية ومن بينها معبد الإسكندر بعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الوحيد.

لكن أين ذهب الإله المحنط فى تابوته الزجاجى، وأين معبده؟ لماذا لم يبق له أى أثر؟ هنا لا جواب لدى المؤرخين. هل غرق فى البحر كما قال أبى أم اندثر بفعل الزمن كما تقول فيونا؟

لماذا يرفض عقلى هذه النهاية المبتورة لأسطورة طويلة وجليلة؟

وهل عقلى هو الذى يرفض أم أنى أتشبث بأن يكون لى أنا أيضا إنجاز كبير فى حياتى؟ لم لا؟ قصيرة جدا هى الحياة مثلما فهم الإسكندر وعلى من يستطيع أن يخلف فيها أثرا ألا يتردد أو يتلكأ. هو فتح العالم وأنا أحلم فقط أن أراه فى حضن أبيه آمون وأن تتحقق وصيته وبذلك أحقق أنا أيضا مجدا متواضعا! شىء يعوض فشلى مع محمود ومع مايكل وينسينى شبح مليكة إلى الأبد. وحتى لو لم أنجح فهى محاولة تستحق أن أشغل بها الوقت. ستبقى السكينة بعيدة على أى حال.

ومع ذلك فإن حدسى يكمل القصة بنهاية منطقية ومعقولة، فالمسيحية لم تضع نهاية سريعة للوثنية فى الإسكندرية ولا فى مصر. كان هناك شهداء للمسيحية قبلوا التعذيب والموت دفاعا عن عقيدتهم السماوية، ولكن كان هناك أيضا شهداء للآلهة الوثنية ارتضوا تعذيب المسيحيين لهم وضحوا بحياتهم من أجل آمون وإيزيس وحورس وغيرهم. لماذا إذن لا يكون من بين الأوفياء لهؤلاء الآلهة أتباع للإسكندر بن آمون ـ رع؟ كانوا كثيرين فى ذلك الوقت فماذا لو أنهم بعد إغلاق معبده قد نقلوا جثمان إلههم سرا إلى واحة أبيه؟ هى المكان المثالى. كانت بعيدة عن حكم الرومان لم تدخلها المسيحية بعد، وظلت عبادة الآلهة المصرية مزدهرة فيها لقرون طويلة بعيدا عن أى سلطة تحكم مصر. من المنطقى إذن أن يفكر عباده الأوفياء فى نقله إلى هذا المكان وفى تنفيذ وصيته بعد قرون من الغربة. عقلى يقول لم لا؟ وحدسى يقول إنه قريب ولكن أين الدليل؟

رجعت أيضا أقرأ كل ما كتبه الرحالة الذين زاروا الواحة عن معابد سيوة وآثارها. توقفت مثلما أتوقف عند وصف المعبد الدورى المندثر قرب بحيرة خميسة. مساحة المعبد وأبعاده كما وصفه الرحالة الفرنسى «كايو» هى أبعاد معبد يونانى مثالى وأهم من ذلك إشارته إلى طراز أعمدته الدورية وأنه الوحيد من نوعه فى الواحة. لكن أين هو هذا المعبد الآن لأستنتج منه دليلا على أى شىء؟

كان يمكن لليوزباشى وصفى أن يساعدنى وأن نذهب معا لنفتش هناك وفى أماكن لا أستطيع الذهاب إليها وحدى. لكن محمود مازال يفرض السجن. لا أستطيع حتى أن أدعو وصفى لأتناقش معه. فيونا نفرت منه منذ أن وصف الثوار بأنهم خونة ولا ترحب برؤيته. لماذا هذا

التزمت يا فيونا؟ هو يتكلم عن ثوار بلده فهو حر، والإسكندر الأكبر ليس هو (كرومويل) الإنجليزى الذى استباح كونوت وذبح أهلها، فلماذا تصبين غضبك على الملك المقدونى؟ ثم إنى أحتاج الآن إلى وصفى ليساعدنى. يجب أن أفكر فى طريقة.

ولكن قبل ذلك يجب أن أتحقق بنفسى من شىء ما. فما العمل؟

* * *

قالت فيونا بحرارة: لم لا يا كاثرين؟ اخرجى!

وتطلعت أنا نحو زبيدة التى بدا فى وجهها المتغضن الرفض والشك. حاولت مع فيونا أن نشرح لها بالعربية والسيوية وبالإشارات أني سأقترض حمارها لفترة قصيرة وأعيده لها سالما. لكنها ظلت تكرر فى عناد: الإيزيت مريض. الحمار مريض! اجتهدت لإقناعها بالإشارة أني لن أرهقه ولن أتأخر بل سأكون قريبة من البيت حاولت فيونا أن تطمئنها فأشارت بسبابتها إلى الأسفل «عساكر تحت» أى أنهم سيحمونني ويحمون الحمار لو حدث شيء. ثم وضعت يدها على كتف زبيدة وقالت بابتسامتها الساحرة: سأشترى لك إيزيت غيره! فوافقت زبيدة على أن تعيرنى الحمار لكن على مضض.

لم أقل الحقيقة كاملة لفيونا. انتهزت فرصة وصول زبيدة بمفردها وقلت إننى أفكر فى نزهة قصيرة حول البيت إذا ما سمحت العجوز أن تعيرنى حمارها، فوافقت فيونا على الفور قائلة أنت تحتاجين بالفعل إلى الخروج والتنزه قليلا بدل البقاء سجينة معى فى البيت. كان كلامها يشى بأنها تلوم نفسها، فلم أجادل بأنه لا علاقة لها بهذا السجن. كنت أحتاج مساعدتها لكى تقنع العجوز العنيدة.

وفور موافقة زبيدة لبست الثياب التى أعددتها لأتخذ مظهر السيويات. ارتديت ثوبا قاتما سابغا وتحته سروالا طويلا ثم أحكمت حولى عباءة فيونا «التار فوتيت» من أعلى الرأس وأسدلتها على وجهى متلثمة بها تماما تاركة بالكاد فراغا للعينين.

وبينما أنزل السلم بخطوات بطيئة وقلبي يخفق لاحظت أن جنود الحراسة ينظرون نحوى باستغراب. لايهم! قبل أن يفكروا أو يفعلوا أى شيء سأكون قد رجعت.

ركبت الحمار كما تركبه زبيدة مدلية ساقى على جانبيه وغمزته ليتحرك بسرعة فى طريق أغورمى. طريق مليكة والشيخ يحيى والجوبة وأشياء كثيرة. اطمأننت إلى أنى أتقنت التنكر. كان بعض الزجالة يخرجون من حدائقهم عندما يسمعون نهيق الحمار وينظرون نحوى بشكل عابر ثم يرجعون إلى عملهم. مع ذلك كانت ضربات قلبى تسرع أكثر. ما معنى قولى إذن بأنى لا أخاف من شيء؟ ها أنا خائفة! هل كنت أكذب على نفسى بهذا الوهم أيضا؟

ليس أمامى الكثير من الوقت لأفكر فى هذا أو فى غيره. رحت أستحث الحمار البطيء والضعيف بالفعل كما قالت صاحبته. توقف مرات كثيرة فى الطريق وأخذ ينهق كأنه يئن، لكننا وصلنا فى النهاية.

أدرت البصر حولى. لا أحد.

ربطت الحمار عند النخلة نفسها التى كان يرقد تحتها محمود الصغير ثم دخلت المعبد. كنت أخفى الكراس والقلم تحت العباءة فأخرجتهما وتوجهت بسرعة نحو الجدار الذى نقلت منه النص. مررت عليه بعينى وأنا أحرك أصابعى مع الحروف. لم أخطىء. هى بالفعل صلاة لآمون ـ رع ـ ولا أحد غيره. أريد أن أتحقق أيضا من الإشارة إلى الماء. لن أخدع نفسى يجب أن أحاول فك رموز أنهر الكتابة الديموطيقية المطموسة. اكتشفت وأنا أعيد قراءتها أنى أخطأت فى نقل بعض الأسطر حين دونتها أول مرة. أسندت الكراس إلى الجدار وحاولت التدقيق وأنا أنقل ما أراه أمامى لكنى كنت أخطئ أيضا بسبب السرعة

فأمحو ما كتبت وأعيده من جديد وألوم نفسى على الخطأ: لا وقت عندى لأضيعه!

لم أكد أدون صفحة واحدة عندما سمعت الهمهمة التى تحولت إلى لغط ثم أصبحت أصواتا هادرة بينما تحولت دقات قلبى إلى طبل فى أذنى. ارتجفت يدى فسقط الكراس من يدى وانحنيت لألتقطه عندما رأيت وجوه الزجالة الغاضبة تحيط بمدخل المعبد.

كنت منحنية نحو الأرض فلم يصبنى أول حجر، لكن الحجارة توالت ترجمنى فوضعت يدى وذراعى حول رأسى ووجهى وأنا أصرخ وهم يصرخون ثم صوت حصان يقترب ثم طلقة رصاص فيتوقف الرجم ويستدير الزجالة ينظرون فى اتجاه مصدر الطلقة.

بعد الصمت الذى حل سمعت صوت السلماوى الأجش وصوت الشاويش إبراهيم ينادیان ثم رأيتهما معا. وقف السلماوى وسط الزجالة وقد علق بندقيته على كتفه وأخذ يتحدث إليهم مبتسما وهو يربت على ظهورهم بينما اندفع إبراهيم نحوى وسألنى فى لهفة:

الهانم بخير؟ أصابك شيء؟

نظر إلى الحجارة المتناثرة حولى على الأرض فقال وجزعه يشتد:

هل أصابك هؤلاء الأشرار بشيء؟

- لا.. يا.. شاويش إبراهيم.

لن أصرخ. لن أتأوه. مواضع كثيرة من جسدى تؤلمنى لكنى تمكنت من حماية رأسى ووجهى. أردت أن أتأكد فتحسستهما بيدى. لا توجد دماء.

نجح السلماوى فى صرف الزجالة وهو يتكلم معهم بصوت عال ويضاحكهم بينما كان إبراهيم يسألنى بصوت حزين :

- لماذا يا هانم؟

رددت عليه بسؤال وأنا أحاول أن يكون صوتى طبيعيا :

- كيف عرفتما أنى هنا؟

- جنود الحراسة أبلغوا الأومباشى. عباءة زبيدة كانت متروكة على عتبة الباب فعرفوا أنها لم تكن هى التى خرجت لكن . . .

اقترب الأومباشى السلماوى وقال: عفوا يا هانم، لكن يجب أن نرجع بأسرع ما نستطيع قبل أن يغير هؤلاء الرجال رأيهم وقبل أن يسمع سعادة المأمور بما حدث. جئنا دون أن نخبره بشىء.

التقطت الكراس ومشيت بثبات نحو النخلة. على الأقل لم يصب حمار زبيدة بشىء.

امتطى السلماوى حصانه وحمل الشاويش حملا تقريبا فأردفه خلفه ثم سبقنى مشهرا بندقيته فركبت الحمار وتبعته. لم يعد هناك معنى للتنكر، فأرخيت العباءة وتركت وجهى مكشوفا وأنا أتحسس مواضع الألم وأكتم تأوهاتى.

* * *

دخل محمود البيت مندفعا كالمجنون .

فى وجهه المحتقن غضب لم أر مثله من قبل .

زبيدة انصرفت غاضبة أيضا فور وصولى وهى تهدر بعبارات لوم وتأنيب لم أبال بأن أفهمها، وللمرة الأولى لم تحتضن فيونا وتقبلها وهى خارجة .

جلست فيونا إلى المائدة قبالتى وهى تحنى رأسها وفى وجهها حزن وانكسار .

قبل أن ينطق محمود بكلمة قلت : أنا آسفة . أخطأت وأنا آسفة .

فتح فمه ليتكلم لكن العبارات كانت تختنق فى حلقه ووجهه يزداد احتقانا وأخيرا انفجر :

الهانم آسفة؟ . .

ثم عاد يتلجلج : وأ . . أ . . أنا، أنا آخر من يعلم؟

تقدم نحوى وهو يمد ذراعيه ويبسط كفيه كأنه سيضربنى بكلتا يديه أو سيخنقنى لكنه رفع يدا فجأة خبط بها جبينه وتلجلج من جديد : " س . . س . . سأخنق السلماوى ومعه إبراهيم . أنا آخر من يعلم؟ أقسم أن . . .

ـ انتظر لحظة يا محمود!

سكت فجأة عندما وقفت فيونا تخاطبه . كان وجهها كالرماد لكنها كانت تتكلم بصوت واضح يكتم انفعالا شديدا :

ـ وجه كل لومك لى يا محمود. كاثرين لا ذنب لها. أنا التى طلبت منها أن تخرج لتتنزه.

وقف ينظر نحوها دون فهم ثم قال: حتى أنت؟ لكن لماذا؟

استدار ليخرج مندفعا مثلما دخل. ووضعت فيونا يدها على كتفى وكررت السؤال بصوت مرتجف:

ـ لكن لماذا يا كاثرين؟

* * *

١٨ـ محمـــود

صحوت أبكر من المعتاد وسط ظلام دامس.

ليلة أخرى من النوم القليل.

وهذا الاسم ديرا. . ديرادا. . ديارادا؟

يدور فى ذهنى منذ فتحت عينى ولا أفلح فى تذكره، اسم صعب وحكاية أصعب يافيونا.

لا يواتينى الاسم الصحيح وتتوه منى التفاصيل، فى الحكاية ملك شرير أراد لنفسه هذه البريئة ديرادا التى تحب فارسا جميلا ـ لا أذكر هل قتل الملك حبيبها وأخويه الفارسين أو قتلهم غيره. وهل قتلت الجميلة نفسها غما على حبيبها أو أماتها الحزن، تتبخر التفاصيل لكنى أذكر النهاية تماما. صمم الملك أن يفصل بينها وبين حبيبها حتى فى الموت، دفنها بعيدا عن قبره يفصل بينهما نهر أو قناة. لكن نبتة نمت من قبرها، لعلها اللبلاب، استطالت وامتدت فى البر وعبر الماء فعانقت فى الضفة الأخرى فرعا نما من قبر حبيبها ونبتت من عناقهما شجيرة، أمر الملك بقطع الشجيرة وبتر الفرعين لكنهما نبتا من جديد وتعانقا مرة ومرتين

ومرات كثيرة إلى أن يئس الملك وأوقف البتر . قهر حبهما في الممات إرادة الشر .

لم تكن هي فيونا الباسمة التي حكت القصة في الليل ، وإنما فيونا أخرى غاب عن وجهها الدم وتقطر كلماتها بالحزن ، سألتها كاترين بلهفة عندما سكتت : لماذا اختصرت الحكاية وأغفلت أشعارها الجميلة . فقالت وهي تقوم : يكفي هذا الآن ، أنا متعبة هذه الليلة .

بالفعل لم ينقطع سعالها المؤلم طول الليل . يزداد سوءا يوما بعد يوم ومعه شعوري بالعجز ، لم تصنع أعشاب الشيخ يحيى المعجزة التي تحققت مع إبراهيم فما العمل؟ رفضت كاترين أن تسافرا معا إلى القاهرة لعلها تجد هناك علاجا أفضل وردت على بما أعرف : كيف؟ الرحلة ستقتلها . لكن بقاءها هنا أيضا يقتلها ويقتلني معها . لو كان هاجس الشيخ يحيى عن حالتها صحيحا فلا أمل ، ومازال الحر بعيدا لكي نجرب الأمل الأخير ، فهل ستصمد إلى أن يأتي الصيف ويسخن الرمل؟ هل ستعيش؟ لابد أن تعيش ، لو أحد يستحق الحياة في هذا البيت فلا يوجد سواها . لا أنا ولا كاترين .

هدأ صوت السعال قليلا فارتحت . . أصبحت أميز حالات السعال بكل وضوح منذ انتقلت فيونا إلى الطابق السفلي . أرهف سمعي حتى لصوت تنفسها . ما الذي أريده منها ، لاشيء سوى أن تعيش مثلما قال الشيخ يحيى أنه تمنى أن تعيش مليكة ليبقى للعالم معنى . لماذا إذن لا أستطيع التخلص من وجهها الذي يطاردني في البيت والمكتب والطريق؟ حين أكون وحيدا في الفراش أو حين ترقد كاترين إلى جانبي؟ ما نهاية ذلك الشيء الذي لامطلب له ولا خلاص منه؟

تجدد السعال عنيفا هذه المرة وراح قلبي يضرب بعنف . يجب أن

أخرج. أن أبتعد. قفزت من الفراش ولم تستيقظ كاثرين. لاتوقظها حركتى ولاسعال أختها. عادت إلى نومها الثقيل بعد ليالى الأنين والتأوه من ألم الرضوض التى أصابتها بها الحجارة. لاتؤرقها هموم سوى معابد الأجداد! ليتهم بدلا من رجمها بالأحجار فى ذلك اليوم كانوا. . .

لا. سامحينى يافيونا. أنا لا أتمنى لأختك أى شر!

اغتسلت بسرعة وارتديت ثيابى وخرجت من البيت.

* * *

مازالت الظلمة حالكة وتباشير الفجر بعيدة، لم أجد صاحيا فى القسم غير جنود الحراسة الليلية الذين أدهشهم وصولى فى هذه الساعة، لكن بينما أعبر الفناء رأيت شبحا يتحرك فى طريقه للخروج، لم أميزه فى العتمة.

فوجىء بى هو أيضا فتقدم منى يحيينى مرتبكا ثم وقف ساكتا.

قلت: أهلا ياشيخ صابر.

رأيته مرة واحدة بعد الاعتداء على كاثرين فى المعبد. جاء متظاهرا بالاعتذار عما فعله الزجالة وكان كلامه يبطن، كالعادة، أشياء أخرى. حمل تأنيبا لكاثرين «لأن الهانم ذهبت إلى المعبد الذى يشك هؤلاء (الجهلة) أنها تمارس فيه سحرا»، وتأنيبا لى لأنى مادمت قد سمحت للهانم أن تذهب إلى المعبد، فقد كان الأفضل أن أرسل معها حراسة كافية. سلمت بينى وبين نفسى بأن الحق معه لكنى اكتفيت بشكره، وقلت إنى سأحرص على ألا يتكرر ما حدث. أصر وصفى على أن يدلنا الشيخ صابر على الزجالة المعتدين لكى نجلدهم أمام الجميع فيكونوا عبرة لغيرهم، فقلت بحسم: إنى أقبل اعتذار الشيخ صابر وأعتبر الموضوع منتهيا.

فى فناء القسم المعتم وقفنا متواجهين وصامتين، أخيرا قلت:

ـ هل حدث شىء يا شيخ صابر يحتاج تدخل الشرطة؟

فرد وارتباكه يزداد: أبدا.. أبدا ياسعادة المأمور، أنا كنت عند حضرة اليوزباشى و.. كنا نراجع بعض الحسابات للضرائب.

ضحكت برغمى: تراجعانها فى هذه الساعة ياشيخ صابر؟

- نعم هو قال لى قبل صلاة الفجر. يحب العمل مبكرا.

- البركة فى البكور فعلا. مع السلامة ياشيخ.

انصرفت عنه وصعدت إلى مكتبى. أراد أحد جنود الحراسة الليلية أن يوقظ الشاويش إبراهيم فمنعته، قلت سنبدأ العمل فى موعده مثل كل يوم.

شعرت بالبرد بمجرد دخولى فأغلقت النافذة المفتوحة وجلست وحيدا فى الغرفة المظلمة، أحتاج الوحدة وهذا السكون لكى أفكر.

أفكر فى أى شىء بالضبط؟ أدمنت التفكير فى نفسى وكلما فتحت صفحة وجدتها أسوأ من التى سبقتها. ليتنى لم أكن أنا! ليتنى كنت أخى سليمان مثلا، أنا التاجر فى الشام وهو الضابط فى الشرطة، لم لا؟

الأب نفسه والأم نفسها، هى مجرد صدفة. كان ممكنا جدا أن يخدمنى الحظ فأكون هو. لم أره منذ سنين ولا رأيت زوجته وأولاده. ملامحه شحبت فى ذاكرتى. قطع الماضى كله وبنى حياة جديدة بعيدا عنا، لا ألومه على شىء. لم يقصر أبدا وظل فى حياة أمه يرسل لها بعض المال رغم أنه كان فى بدء تجارته ويحتاج إلى كل قرش. لكن حز فى نفسى أنه لم يحضر عندما أرسلت له برقية نعيها، رد برسالة عزاء يقول إنه لافائدة من حضوره بعد أن تمت الجنازة والدفن، والأجدى أن توزع مصاريف سفره صدقة على روح المرحومة. تمنيت وقتها أن يأتى وأن نبكيها معا. كنت أنا الذى أحتاجه. لكن ربما كان مافعله هو

الأصوب. لو كنت سليمان ماعشت هذا العمر من الحيرة. . لو كنت سليمان. . لو كنت. .

السرادق واسع وأنا واقف أتقبل العزاء فى محمود عبد الظاهر لكن كل المقاعد خالية ولا أحد يأتى. . يجلس شيخ قارئ على دكة عالية لكنه يفتح فمه ويغلقه دون صوت ولا أحد يأتى. . ثم السرادق حديقة واسعة مزدحمة بالناس يلعب فيها كثير من الأطفال وأنا أسير وحدى أحمل طيات من قماش أبيض، استوقفت رجلا عجوزا وأسأله عن مكان المقابر فيشير بيده دون أن يتوقف ويقول استمر فأتبع إشارته وأجدنى على شاطئ نهر تحف به أشجار لبلاب تتدلى غصونها فى الماء وأنا أمسك بيدى فتاة جميلة ونضحك معا، وأقول لها تصورى كنت ميتًا لكنى عشت من جديد. فتقول بفخر هذا بفضلى أنا، ونركب قاربا فى النهر وأكتشف أنها نعمة فأضحك وأسألها: منذ متى غيرت لون شعرك؟ وترد: منذ تركتنى. . لكنها تصرخ فجأة وتشير بيدها خلفى ويظهر ناس كثيرون على شاطئ النهر يشيرون بأيديهم إلى حيث تشير وألتفت فأجد تمساحا هائلا فاغر الفم يهجم على القارب. .

أمسك بيد نعمة ونقفز معا من القارب. . نجرى بسرعة فوق الماء فنكون مرة أخرى فى السرادق وسط المقاعد الخالية وصوت القارئ لا يخرج لكنه يفتح فمه ويغلقه. .

تقول نعمة فى سخط: لماذا لايقرأ هذا الشيخ على الأقل؟ أتقدم منه غاضبا فأكتشف أنه لايقرأ لكنه يضحك. عرفته من عينيه فأمسكت بتلابيبه وقلت ثائرا: أنت ياشيخ. . ثم صحت:

ـ أدخـــل!

أيقظنى فزعا من غفوتى طرقات إبراهيم على الباب.

يختلط كلامه ببقايا الحلم فلا أركز كثيرا على ما يقول. فهمت من لهجته الحزينة أنه يعاتبنى لأنى لم أسمح بإيقاظه: هل لم تعد له فائدة فى القسم؟ طيبت خاطره وطلبت أن يحضر لى كوزا كبيرا من الشاى. نمت بعمق فلم أنتبه إلى حركة بدء العمل فى القسم ولا إلى نور الصباح الذى دخل الغرفة رغم النافذة المغلقة، قمت وفتحتها ثم رحت أتمشى فى الحجرة بسرعة لأستعيد شيئا من الدفء والنشاط.

عندما رجع إبراهيم ظل واقفًا أمامى وأنا أرشف الشاى من الكوز بيد مرتجفة فيتناثر رذاذه على المكتب، برغمى وضعت الكوز على المكتب وسألته.

- هل تريد شيئا ياشاويش إبراهيم؟

بدا عليه التردد للحظات ثم أخبرنى أن الشيخ صابر جاء اليوم قبل الفجر وقابل حضرة اليوزباشى.

- أعرف. قابلت صابر وقال إنه كان يراجع حسابات الضرائب مع اليوزباشى.

- حسابات؟ ولماذا يراجعانها فى السر سعادتك؟ لم تكن هذه أول مرة. يأتى الشيخ كثيرا فى عز الليل ويختليان فى المكتب فلا يسمعهما أحد، ويخرج قبل أن يصحو من فى القسم، فهل هذه مراجعة حسابات؟

- انصرف أنت الآن ياشاويش ولاتتجسس على اليوزباشى ولا على غيره. لو كان هناك شىء فسنعرفه فى وقته.

قال محتجا : كيف يا أفندم؟ فى وقته متى؟ يجب أن نعمل حسابنا قبل أن تقع الفأس فى الرأس .

- إن شاء الله سنعمل حسابنا ، انصرف الآن يا إبراهيم .

خرج متذمرا . كيف أقول له : إنى لا تهمنى هذه الحكايات؟ كل مايمكن أن يصيبنى حدث وانتهى .

* * *

قضيت النهار أعمل فى القسم، أخترع أعمالا. تفقدت المخازن وبدأت أكتب خطابات للنظارة عن الميرة والذخيرة الناقصة التى نحتاج إرسالها مع القافلة المقبلة، . وجاء اليوزباشى وصفى يعرض على كشوف الحسابات عن حصيلة الضرائب المتجمعة، قال إنه راجعها مع الشيخ صابر فى الصباح وأنها تفى بما طلبته النظارة. فهمت أنه سمع بمقابلتى مع صابر فجاء يعرض هذه الحسابات التى فات أوانها منذ زمن. كان يجلس أمامى ويتابعنى بعينيه اللتين لاتكفان عن الحركة وتثيران أعصابى فألقيت نظرة على الكشوف وشكرته وأنا أضعها جانبا ولكن كانت بيده أيضا مجموعة من الصحف قدمها لى وهو يقول وصلتنى مع القافلة الأخيرة، ربما تحب سعادتك أن تطلع عليها. كانت أعدادا قديمة من صحيفة (المقطم) التى أمقتها، قرأت عناوين بعضها بسرعة ثم أعدتها له كما هى وأنا أقول:

- يبدو أن الخديو الشاب يختلف عن أبيه، يبدو أنه لايحب الإنجليز كثيرا.

- سيحبهم!

كان يتكلم بثقة كبيرة فسألته:

- كيف؟

- حكومتنا لاتستغنى عن الإنجليز. نحن نحتاج إليهم.

قلت باسما: لكنك فى تلك الليلة كنت تؤكد عظمة أجدادنا

المصريين وأنت تمدح آثارهم، ألا يستطيع الأحفاد أن يصلحوا مثل أجدادهم لحكم البلد؟

ـ ليس الآن. لابد أن نتعلم أولا الكثير من الإنجليز. انظر سعادتك حتى آثار المصريين وعظمتهم يكشفها لنا الإنجليز ونحن لاندرى عنهم شيئا. كادت مسز كاثرين تضحى بحياتها من أجل العلم، فما الذى فعله بها الأغبياء الذين أرادت أن تخدمهم؟

لم أقل شيئا، فأكمل بحرارة وعيناه تلعبان بسرعة أكثر من المعتاد: لم أستطع أن أشرح لسعادتك وجهة نظرى فى تلك الليلة لأن الميس فيونا قاطعتنى، أردت أن أقول إن فتنة العصاة عطلتنا عن التقدم، لابد أن سعادتك رأيت بنفسك الفوضى التى عاشتها البلد فى تلك الأيام والتى حدثنى والدى عنها.

ـ ما الذى رآه والدك بالضبط وحدثك عنه؟ ماذا كان يعمل أيامها؟

ـ كان لواء فى الجيش.

ـ وهل كان يرأس قومسيون تحقيق مع العرابيين؟

قال بدهشة: لا. لا أظن ذلك، على العموم هو الآن على الاستيداع لكنه يذكر كل تفاصيل الهوجة والفتنة. قال لى إن واحدا من هؤلاء الخونة، أظن أن اسمه محمد عبيد، بلغ به الأمر أن فكر فى قتل مولانا الخديو! تخيل سعادتك الخراب الذى كان يمكن أن يحل بالبلد!

قلت بضحكة خافتة: أتخيل ياحضرة اليوزباشى!

وأكملت بلهجة من يرغب فى إنهاء الحديث: يعنى باختصار أنت ترى أن العرابيين أجرموا فى حق مصر لأنهم أرادوا أن يحكم أهل البلد بلدهم.

مط شفتيه بازدراء وقال : هذا يا أفندم هو الداء الذى يجر الخراب! عندما يتدخل العوام فى الحكم تأتى الفوضى والضعف . انظر سعادتك مثلا إلى فرنسا . منذ بدأت فتنة الثورة هناك واشترك العوام فى الحكم ضاع البلد . حتى عندما وهبهم الله عبقرية حربية لا نظير لها مثل نابليون استطاعت انجلترا أن تهزمه وتسحقه لأن حكومة فرنسا كان يحركها الرعاع ، أما حكومة إنجلترا فكان يديرها الساسة الأقوياء .

ـ الســـادة .

ـ الساسة يا أفندم .

ـ نعم الساسة السادة .

وقفت وأنا أقول : لابد أن نناقش هذه المسائل ذات يوم يا حضرة اليوزباشى .

فوقف بدوره وقال : يسعدنى هذا ، سأتعلم من سعادتك كثيرا .

أدى التحية بانضباطه المعهود وعندما فتح الباب ليخرج قلت بهدوء :

ـ اسمع يا وصفى .

ـ أفنـــدم .

ـ عرابى باشا أشرف من عشرة خديويين مجتمعين . والبكباشى محمد عبيد أشرف من كل الخديويين والباشوات الخونة الذين باعوا للإنجليز .

وقف عند الباب المفتوح يتطلع نحوى مبهوتا فقلت بالهدوء نفسه : انصراف!

عدت أجلس إلى مكتبى وفى داخلى صوت يسخر منى ـ لكن كلامك تأخر عشرين عاما ياحضرة الصاغ! وإلى غير وصفى كان يجب أن تقوله!

لكن لماذا أيقظ كلامه الذكرى؟ ما الذى يعيدنى إلى أيام المجد فى لحظات الخيبة؟ لأنى كنت هناك يومها!

كنت هناك فى بيت سلطان باشا رئيس النواب مع اليوزباشى سعيد والملازم طلعت نحرس الاجتماع، كانت مصر كلها هناك ـ نواب البرلمان والموظفون الكبار وشيوخ الأزهر وقسس الكنيسة وأعيان الريف وحتى أمراء البيت الخديوى. كنت قريبا ورأيت الضابط الفلاح الوسيم طويل القامة يقف محتقن الوجه وعضلات وجهه ترتجف وهو يشهر سيفه.

كان الخديو بعيدا فى الإسكندرية ووافق على إنذار الإنجليز بنفى عرابى خارج مصر وإقالة حكومة الثورة. وخطب عرابى فقال إنه لا حل سوى عزل الخديو وصفق له الحاضرون، وأخرج طلعت مسدسه يريد أن يطلقه فى الهواء تحية لعرابى فنهره سعيد وأنزل يده الممسكة بالمسدس. قال عرابى: من كان معنا فليقف! فوقف معظم الحاضرين لكن سلطان باشا وكبار الأعيان ظلوا فى أماكنهم. شممت لحظتها رائحة الخيانة المقبلة وشعر بها محمد عبيد، فلوح بسيفه وقال فى ثورة غضبه: أقتله أنا ياباشا ثم أعدمونى بعد ذلك؟! فقال عرابى غاضبا أيضا: «أسكتوا هذا المجنون!».

لكن هذا المجنون ياباشا هو وحده الذى مات وهو يحارب الإنجليز

من بين كل من حضروا الاجتماع، بينما كان سلطان باشا فى ركاب جيش الغزو ولعل أباك كان معه أيامها يا وصفى!

لكن هذا أيضا هو محمد عبيد الذى وصفته أنا ومن معه بأنهم «بغاة!».

فلا داعى للتباهى أمام وصفى أو غيره! لا داعى للشجاعة المتأخرة.

* * *

أرسلت الشاويش إبراهيم إلى البيت يبلغ كاثرين أنى لن أرجع للغداء وبقيت فى القسم حتى حل المساء دون أن يكون هناك أى سبب لذلك، لا عمل ولا غيره.

وعندما وصلت لم أر فيونا ووجدت كاثرين تفرش أوراقها وكتبها على المائدة وهى تقرأ وتكتب فى ضوء مصباحين غازيين كبيرين. تفعل ذلك كثيرا فى الفترة الأخيرة وتحتج بأنه ليست لدينا حجرة مكتب. لم أقل شيئا ولكنى أيقنت أن مصيبة جديدة فى الطريق. انتهينا بعد حادث الرجم إلى تجاهل كامل من الطرفين. تجاهل يكاد يكون وديا. كيف لم نكتشف هذه النعمة قبل الآن؟

كانت منهمكة تماما فردت على تحيتى العابرة بشكل عابر أيضا، سألتها عن أختها فقالت إنها متعبة الليلة ونامت دون عشاء. ثم عادت إلى أوراقها تمعن النظر فى صفحات كبيرة مليئة برسوم ونقوش وتنقل منها لتدون كتابات فى أوراق أخرى. ظللت لحظة أرقب ما تفعله ثم قلت إنى داخل لأنام.

- دون عشاء أيضا؟

- لست جائعا.

- سألحق بك بعد أن أنتهى.

- خذى مايلزمك من وقت.

دخلت فى الفراش بسرعة لكن النوم استعصى مرة أخرى. لم أكن

أفكر فى أى شىء، لكنى بقيت مفتح العينين أشعر أن أى نوم لن يزورنى هذه الليلة أيضا، ثم تأتى سعلة خافتة من بعيد فيملأ الغرفة برق مفاجىء، يسترخى جسدى المشدود ويحل بى سلام غريب. يأس مريح واستسلام نهائى: لا مهرب فلا تحاول. ارض بما يحدث. تقبل نعمة أن علمت مالم تكن تعلم. ها أنت تعشق دون أن ترغب حتى أن تلمس، ليس مهما أن تفهم. لاضرورة لأن تسعد. هى جاءت. أنت أحببتها لاتريد منها شيئا غير أن تعيش. هذا هو أول الأمر ومنتهاه، فلا تحاول!

بعد فترة طويلة لم أغلق فيها عينى وأرهفت فيها سمعى دخلت كاثرين الغرفة فى هدوء. غيرت ثيابها دون أن تحدث أى ضجة ثم تسللت إلى الفراش. تقلبت فى مكانى فقالت فى همس:

هل أيقظتك؟

- لا، لم أكن نائما.

قالت بصوت خفيض ينم عن انفعال لاتستطيع أن تكتمه:

- يامحمود أنا وجدت إشارة!

ثم راحت تتمتم كأنها تحدث نفسها وجدت إشارة، وجدت بشارة.

قلت عظيم - ثم استدرت فى الفراش وأغمضت عينى.

* * *

فجر آخر مظلم وليلتان دون نوم .

رأيت جنود الحراسة أمام الباب وقد لفوا رءوسهم بكوفيات من الصوف وأوقدوا نارا تحلقوا حولها يدفئون أياديهم . وقفت لحظة فابتعدوا عن النار وأخذوا وضع الانتباه . قلت إنهم يستطيعون أن يذهبوا الآن للنوم .

لكن وردية الاستلام لم تأت بعد .

لا يهم .

أدوا التحية وانصرفوا مسرعين .

لم أجد وصفى فى فناء القسم كالعادة . ناب عنه الأومباشى السلماوى فى طابور الصباح ولحق بى وأنا أتأهب لصعود السلم ، سألته عن اليوزباشى فقال إنه خرج مبكرا قبل الفجر ومعه بعض الجنود لاستقبال القافلة القادمة من كرداسة ووعد أن يرجع بسرعة قبل بدء العمل لكن الظاهر أنهم اختاروا الطريق الخطأ ، لأن جنودا من القافلة وصلوا بالفعل وسلموا للأومباشى صناديق ذخيرة وبعض خطابات تركها على مكتبى .

إذن لم يكن هناك ضباط جدد ولا مدد من الجنود يدربهم وصفى !

لا بأس !

استقبلنى إبراهيم على رأس السلم وسبقنى مسرعا بقدر ما تحمله رجله العرجاء ثم فتح الباب ودخل ورائى وأغلقه .

وقبل أن أجلس إلى مكتبى كان يقول بانفعال كبير: ماذا قلت لسعادتك؟

ـ ماذا قلت ياشاويش إبراهيم؟ اختصر لأنى متعب هذا الصباح.

ـ ماذا قلت لك عن الشيخ صابر واليوزباشى وصفى؟

ودون أن ينتظر ردى أكمل كلامه: جاءه فى عز الليل كالعادة قبل أن يخرج اليوزباشى واستطعت أن أسمع بعض الكلام.

ثم سكت لحظة وأكمل بلهجة ملتاعة: هو يطمع فى كرسيك يا ولدى والشيخ الملعون يشجعه! حذرتك من أنهما يدبران شيئا.

ضحكت وأنا أقول: مأمور؟ فى هذه السن؟ ولماذا لا؟ اليوم قبل الغد يا إبراهيم! لو الأمر بيدى لعينته مأمورا الآن ولرجعت إلى..

قاطعنى بغضب: ما عاش ولا كان من يريد كرسى سعادتك!

قلت لأهدئه: إذن فلا تخف شيئا. ليس الشيخ صابر أيضا هو الذى يعين المأمورين، انصرف الآن.

خرج متذمرا ونظرت إلى أظرف النظارة الموضوعة على المكتب. أعرف جيدا ما بداخل كل منها، إيصالات باستلام الذخيرة يجب توقيعها، كشوف المرتبات، التعليمات الجديدة من النظارة، الترقيات والتنقلات.. إلخ.

معظمها أوراق ألقى عليها نظرة ثم أحفظها فى الملفات.

فتحت الظرف الأصفر الكبير ولم أجد فيه غير ما توقعت وإن استوقفنى شىء وسط كشف الذخيرة الواردة. كان هناك إلى جانب عدد كذا بنادق جديدة وكذا من صناديق الخراطيش عدد واحد صندوق ديناميت! ديناميت؟

مانفعه هنا وسط الرمال؟ لعلهم أرادوا التخلص منه فى مخازن النظارة فأرسلوه إلى الصحراء، ربما لكى يشتروا غيره!

كانت هناك رسالة أخيرة خارج الظرف الكبير فتحتها فوجدت سطورا لا تتخللها أى أرقام، عدت إلى أعلاها فاكتشفت أنها موجهة إلى اليوزباشى وصفى، وكان اسمه أيضا على الظرف. أوشكت أن أغلقه من جديد لأسلمه له حين عودته غير أنى رأيت اسمى يتكرر كثيرا وسط السطور، إذن فهى تخصنى أيضا.

قرأت الرسالة مرتين وضحكت.

ما الداعى إلى الدهشة؟ حتى إبراهيم استطاع أن يتكهن!

لكنى مع كل البيانات التى تصلنى من النظارة لا أعرف هذا القسم المسمى مديرية النظام الخاص، ولا أخمن من هو رئيس هذه المديرية الذى اكتفى بتوقيع س.ح. وكان يشكر اليوزباشى على تقريره الوافى، يقول إن معالى مفتش النظارة أعجب كثيرا بدقته ويهنئه على نجاحه فى كسب ود الأجواد وثقتهم، اهتم سعادة المفتش بصفة خاصة بما ورد فى التقرير عن تدهور علاقة المأمور بسكان الواحة ومحاولتهم الهجوم على القسم بالبنادق والمغامرة التى أقدم عليها المأمور بإطلاقه قذيفة مدفع فى اتجاه البلدة دون أن يرجع إلى النظارة أو يبلغها بما حدث، يرى معالى المفتش أن هذه أحداث خطيرة للغاية فى اتجاه خاطىء كما قال بالنص

These are very serious developments in the wrong direction.

وهو يدرس الآثار بكل عناية ويطلب مع ذلك من حضرة اليوزباشى الالتزام الكامل بالتعامل مع سعادة المأمور كرئيس وإطاعة أوامره طبقا

للتعليمات والنظم إلى أن تتخذ النظارة الإجراء المناسب، ويؤكد معاليه ثقته بوصفي أفندى ويطلب أن يستمر فى اتصالاته مع شيخ الشرقيين الذى يطمح إلى منصب العمدة، يجب أن يبقى لديه الأمل لكن دون أن يعطيه وعدا محددا ودون أن يسيء إلى علاقته بمشايخ الغربيين، وفى النهاية يهنيء س.ح. حضرة اليوزباشى بثقة المستر هارفى ويطالبه بكتابة تقارير مماثلة عن كل الأشياء التى تصل إلى علمه عن الأجواد والأهالى وعن حضرة المأمور وأن يحرص على أن تظل المراسلات سرية. وتأتى بعد ذلك ملحوظة فى ذيل الرسالة بأنه اتصل بسعادة الباشا الوالد وهو يطمئن اليوزباشى على صحته وأنه فى خير حال بحمد الله.

أعدت الرسالة إلى الظرف ووضعتها أمامى على المكتب وأنا أضحك من جديد.

ما الذى جرى لى؟ لماذا لا أشعر بأى غضب؟ لماذا لا أشعر بشيء على الإطلاق؟ هل هو عقاب أستحقه؟ ربما!

انتبهت إلى ضجة الخيول المسرعة المقتربة ودخولها إلى فناء القسم، ثم وبأسرع مما توقعت سمعت طرقا على الباب ودخل وصفى.

أزاح إبراهيم بيده وهو يدخل ثم أغلق الباب، لم يغير زيه ولأول مرة أراه أمامى بطربوش يعلوه التراب وثياب معفرة بالرمل. أدى التحية بوجه ممتقع مشفوعة بسؤال ملهوف:

ـ هل هناك ياسعادة المأمور..

قبل أن يكمل جملته مددت له يدى بالظرف المفتوح قائلا: هذا الخطاب لك ياحضرة اليوزباشى. فتحته لأنه كان مع رسائل النظارة الرسمية ولكن يمكن أن تعتبر أنى لم أقرأه، انصراف.

وقف متردداً وهو يقلب الظرف بين يديه لكنني كررت بلهجة حاسمة:

انصراف!

ولم تمض دقائق على خروجه حتى عاد طرق ملح على الباب، أذنت بالدخول فاندفع الأومباشى السلماوى ووجهه محتقن.

- أنا أتظلم ياسعادة المأمور!

قالها بصوته المتهدج الذى يوحى دائما أنه على وشك البكاء.

- اهدأ يا أومباشى. ممن تتظلم؟

- اليوزباشى وصفى. وجدنى أسفل السلم وهو نازل من عند سعادتك فصفعنى على وجهى دون سبب.

قلت لنفسى بل هناك سبب يا سلماوى كان لابد أن يصفع أحدا!

لكنى عدت إليه:

هل ارتكبت أية مخالفة يا أومباشى؟ هل أغضبت حضرة اليوزباشى؟

قال محاولا أن يكتم غضبه: أبدا رآنى أمام السلم فصفعنى أمام الجنود ثم انصرف دون كلمة. صفعنى أمام الجنود سعادتك.

رفع السلماوى رأسه المحنى وقال: أنا أطلب حقى ياسعادة المأمور. نحن بدو ولانقبل الذل، حسابه كبير لو أخذت حقى بيدى.

- لاتكرر هذا الكلام يا أومباشى. لاتكرره أمامى ولا من ورائى. أنت تظلمت وسأحقق فى تظلمك، إن كان لك حق فستأخذه.

لكنى لم أر اليوزباشي وصفى أثناء النهار . أرسل جنديا يبلغنى أنه يشعر بتعب ويستأذن أن يعتكف فى غرفته فوافقت على الفور . سيريحنى على الأقل فى هذا اليوم الذى يهدنى فيه التعب من سماع ضجة التدريب وصيحاته الآمرة وصرخات الجنود وهم يجرون ويقفزون .

غادرت المكتب وصحبت معى الشاويش إبراهيم . كانت نظراته تنطق بفضول ولهفة لمعرفة مادار فى المكتب المغلق مع وصفى والسلماوى ، لكنى لم أترك له فرصة ، قلت لدينا عمل يا إبراهيم .

استدعيت الشاويش المخزنجى ثم ذهبنا ثلاثتنا إلى المخازن وراجعنا معا الأسلحة والذخائر التى أرسلتها النظارة ثم وقع المخزنجى على إيصالات التسلم فأخذتها وعدت إلى مكتبى أستكمل الرد على رسائل النظارة . يمكن تأجيل هذا العمل لكنى أحتاج إلى أن أشغل نفسى بشىء ، أحتاج إلى عدم التفكير فى شىء !

وبينما أغادر المكتب بعد الظهر قال لى الشاويش إبراهيم إنه يشعر بتعب ويستأذن فى أن يرتاح بقية اليوم . راقبت وجهه وكان يبدو عليه إعياء حقيقى لكنى سألته مازحا : هل يغار من اليوزباشى وصفى؟

قال باشمئزاز : العياذ بالله .

. . بالطبع يستطيع أن يستريح كما يشاء ثم إنى لن أرجع بعد الظهر .

اقترب وقال بصوت خفيض إنه يريد أن يطلب منى شيئا .

نظرت له مستفهما فأحنى رأسه وقال بصوته الهامس : أستحلفك ياسعادة المأمور إن وافانى الأجل هنا أن تدفننى فى بلدى . لاتتركنى

للغربة فى الرمل، أخاف الغربة فى الموت أكثر مما أخافها وأنا على ظهر الدنيا.

انقبض قلبى وأنا أتأمل تجاعيد وجهه لكننى حاولت أن أواصل بالنبرة نفسها كأنه لم يقل شيئا: الآجال بيد الله يارجل. طلبت هذا الطلب نفسه بعد كسر ساقك وها أنت كالحصان ماشاء الله، أنت بالذات ستدفننا جميعا وتمشى وراءنا . .

قاطعنى بابتسامة باهتة: فال الله ولا فالك ياسعادة المأمور!

تابعته وهو يعرج منصرفا ببطء: لن أسامح نفسى أبدا!

نزلت من المكتب ففوجئت باليوزباشى وصفى وقد غير زيه وطربوشه ووقف أنيقا منتصب القامة، نادى على الجنود وبصوته الآمر وزعق فيهم أن يصطفوا لأداء التحية، غير أنى رددت تحيتهم من بعيد وانصرفت دون كلمة. سأؤجل التحقيق معه إلى الغد.

* * *

فى الطريق إلى البيت وجدت الجو دافئا على عكس الحال فى الصباح .

ليست هناك سوى سحابات خفيفة شفافة وشمس العصر دافئة وهادئة تغرى بالاسترخاء تحت أشعتها . لكن عندما فتحت الباب وجدتهما تجلسان معا حول المائدة وقد فردت كاثرين فوقها أوراقها الكثيرة التى تشبه الخرائط .

قلت بدهشة : هل سنتغدى فراعنة اليوم؟

فهتفت كاثرين بحماس : سنؤجل الغداء قليلا بعد إذنك . أنت وصلت قبل موعدك لكنى سعيدة لأنك جئت الآن .

أريد رأيك . كنت على وشك أن أقرأ على فيونا ما وجدته .

التفتت فيونا نحوى وقالت ببسمتها التى تشيع بعض الحياة فى وجهها الشاحب : أليس هذا رائعا؟ وجدت كاثرين أخيرا ما كانت تبحث عنه .

سعلت بشكل متقطع وهى تضع يدها على فمها ثم أكملت : أظن . . أظن أن المؤرخين . . الـ . . ال . . المؤرخين سيهتمون بها . .

نقلت بصرى إلى كاثرين وسألتها فى حيرة :

ـ أى مؤرخين؟ . . ما الذى سيهتمون به؟

ـ الإشارة . . الدليل . . قلت لك هذا ليلة الأمس لكنك لم تنتبه .

ظللت صامتا وأنا أتطلع لها مستفهما فأكملت: تذكر يوم ذهبنا معا إلى معبد أم عبيدة؟

- وكيف أنسى ذلك اليوم؟

أكملت بالانفعال نفسه: كان الدليل هناك يامحمود لكنى لم أهتم به، نقلته بيدى ولم أنتبه، حسبته تضرعا عاديا للإله آمون، ركزت بغباء على البحث عن الكتابات اليونانية مع أنه لم يكن إلها لليونانيين وحدهم. هو ابن آمون رع. إله الكون وإله الشمس، وكان المصريون يعبدونه بهذه الصفة. بعض الأنهر كانت مطموسة ولهذا ذهبت إلى المعبد مرة أخرى لأتحقق منها.. و..

قاطعتها وأنا أصرخ تقريبا: من فضلك ما الذى تتكلمين عنه يا كاثرين؟

أنا لا أفهم أى شىء.

فصاحت بدورها: كيف لاتفهم؟ ألم أقل لك من قبل إنى أبحث عن دليل على مقبرة الإسكندر فى سيوة؟

- مطلقا! تبحثين عن دليل على مقبرة الإسكندر هنا؟ فى الصحراء وفى معبد أم عبيدة المشئوم؟ لو سمعت منك هذا من قبل لقلت إنك مجنونة..

قالت بابتسامة ظافرة: بالطبع! لست وحدك! كثيرون غيرك كانوا سيقولون إننى مجنونة! لكن اسمع من فضلك.. اسمع قبل أن تحكم.. بدأت تقرأ وهى تركز على ألفاظ بعينها وتنقل بصرها بينى وبين فيونا «أتريان؟» وكنت أنا أركز بصرى على فيونا التى أصبح وجهها أصفر تقريبا فى الأيام الأخيرة، لكننى أرغمت نفسى على

الاستماع إلى كاثرين وهى تقرأ كأنها ترتل وتنظر إلينا بين كل جملة وأخرى لتتأكد أننا نتابع ونفهم:

أيها المعبود الخفى الأسماء.. يامن تفتح عينيك فتهب النور للحياة وتغمضهما فيحل الظلام.. بالعدل تحكم عبادك.. تشرق بالنهار على أرضهم وفى الليل ترحل لترعى أهل مملكتك الخالدين فى الغرب.. امنحنى بركتك يا إلهى.. زودنى بقوتك.. أنت يامن قهرت كل الأعداء فى الأرض وفى أفق الغرب.. تقبل هذه الصلاة من عبدك «سنحريب» الذى يحكم باسمك صحراءك المقدسة.. غمسوا قدميك بعيدا فى الماء لكنك تعود لتبارك أرضك وأرض أبيك.. أرفع لك صلاتى أنا عبدك فى هذا المعبد المشيد لمجدك.. معبد أخيك الفرعون.. بن آمون..

سكتت كاثرين وراحت تنظر لنا بفخر وهى تقول مع ذلك بلهجة تسليم:

- اسم الفرعون غير واضح. . وفى مواضع كثيرة كان يجب أن أستخدم الخيال فى أنهر الكتابة المطموسة. . مثلا الإشارة إلى الماء واضحة وتأكدت منها عندما رجعت لزيارة المعبد، لكن السياق أى العودة إلى أرض أبيه بعد ذلك - هنا استخدمت خيالى لأن الكتابة ممحوة تماما. . ثم من هو الذى قهر كل الأعداء فى الأرض؟ إلى من غير الإسكندر يمكن رفع هذه الصلاة؟

حلت لحظة صمت فقالت فيونا: هذا كل شىء؟.

وردت كاثرين: نعم. .

ثم أكملت وهى تحول بصرها نحوى: إلى أن تسمح الظروف بزيارة بقايا معبد بلاد الروم. . أظن أنه هو المكان المقصود فى هذه الصلاة، .

أظن أنه هو الضريح أو أن الضريح فى مقبرة خفية إلى جانبه. يتفنن المصريون فى إخفاء مقابر ملوكهم تفاديا للصوص كما تعلمان.

قالت فيونا بحدة مفاجئة: ولكن.. ولكن ما قرأته ليس دليلا على أى شيء ياكاثرين!

قالت كاثرين محتجة: كيف؟ بذلت مجهودا كبيرا لأشرح..

فقاطعتها فيونا وكانت هى التى تبذل مجهودا لتنتزع الكلمات وسط أنفاسها المتقطعة لكنها تصر على الكلام.

ـ هذه صلاة.. أو مديح يمكن قوله عن أى إله.. أو عن أى ملك قديم.. وفى أهم جزء منه تقولين إنك استعنت بالخيال.. أليس هذا ما كان ينتقده ماى..

لم تكمل الاسم لكنى فهمت أنها تعنى زوج كاثرين الأول التى ردت فى عناد:

ـ هذا لأنه كان معدوم الخيال. ستثبت الأيام أن نظريتى صحيحة وأن قبر الإسكندر هنا..

قالت فيونا بصوت شديد الخفوت: ربما.. معذرة ياكاثرين.. سكتت لكنى رأيت الدماء تغيب عن وجهها وهى تلهث بينما اعتمدت بيديها معا على المائدة ونهضت بصعوبة ثم بدأت تترنح فجريت أسندها بيدى قبل أن تهوى إلى الأرض.

صرخت كاثرين أيضا وهرولت تسند أختها معى. نقلناها معا إلى السرير، راحت كاثرين تبلل وجهها بالماء وتقرب عطرا من أنفها. كان تنفسها ضعيفا لكنها فتحت عينيها مرة وحاولت أن تبتسم لأختها، ثم أغمضت عينيها من جديد.

راقبت الجسد الممدد على الفراش والوجه الذى أخذ يزرق وسألت كاثرين بهدوء:

هل هى تموت الآن؟

فصرخت فى وجهى وهى تضرب صدرى بقبضتيها: لا! لا! إياك أن تقول هذا!

فقدت الوعى مرات من قبل ثم أفاقت. ستفيق الآن!

حـــالا!

ـ نعم، لابد.

لم أرفع عينى عن الوجه النائم. العينان مغمضتان لكنهما محفورتان فى ذهنى.

قلت: الشمس تدفىء من جديد فعلا.. وستستطيع زبيدة.. أقصد وستنفع أدوية الشيخ يحيى.. لكننى لن أنتظر.

ـ ماذا تقصد؟ وإلى أين تذهب؟ هل تتركنى الآن وحدى وأنت ترى حالتها؟ هل جننت؟

كانت تصرخ فصرخت أيضا وأنا أخرج: لن أنتظر!

ولاحقتنى بصياحها.

* * *

فى القسم رأيت اليوزباشى وصفى من جديد .

تقدم منى وأنا أضبط سرج الحصان وأعلق الجرابين على جانبيه . لم يسألنى أين أذهب بل وقف أمامى وقال بوجه كالح ونظرة تصميم فى عينيه :

ياسعادة المأمور، كنت أريد أن أشرح لمعاليك . .

- لاتشرح أى شىء . لا أريد أن أسمع أى شرح . الغلطة فى الحياة نفسها .

- معذرة . لم أفهم ما تقصده سعادتك . أى غلطة فى الحياة؟

- ستفهم كل شىء بنفسك . لا ، بل أنت فهمت مبكرا جدا .

وبينما أمتطى الحصان قلت بشكل عابر لكن أنصحك مع ذلك أن تسوى أمورك مع السلماوى .

قال باستهانة : السلماوى؟ ومن يكون؟

- هو من هو ، انس ما قلته وافعل ماشئت ، لكن لاترسله ورائى ولاترسل أحدا غيره ، بل انتظر لحظة ، أرسله هو والشاويش إبراهيم فورا إلى البيت ، ربما تحتاج الهانم شيئا منهما . أما أنا فلا أحتاج أحدا ورائى . هذا أمر يايوزباشى . هل فهمت؟

- أمرك أفندم .

* * *

همزت الحصان وخرجت من القسم. لم أتوقف عند البيت وأخذت طريق أغورمى ركضا بالحصان وسط الحدائق فى ضوء النهار المتأخر، رأيت كالعادة بعض الزجالة والصبية يقفون أمام حدائقهم ولم ألتفت إليهم، اقتربت من المكان الذى ننحرف فيه يسارا إلى حديقة الشيخ يحيى، لم تنفع نصائحك لى أيها الشيخ الطيب ولا نفعت أدويتك لفيونا، ربما ستنفع الأدوية، لكن النصائح هى التى لم تنفع. ما العمل ياشيخ وكل الحكمة لاتفيد فى أن تهدى الراحة إلى القلب؟ الغلطة فى الحياة بالفعل، أنا لم أختر حياتى. لم أختر أن آتى إلى هذه الواحة ولا اخترت أن تدخل مليكة بيتى ولا أن تأتى فيونا إلى قلب الصحراء.

كل ما طلبته هو أن تعيش، لا شىء أكثر. جئتك لتساعدنى لكنك لم ترنى.

انتبهت فجأة إلى نهيق حمير وظهر أمامى جيش من الزجالة راكبى الحمير متوقفين ليسدوا الطريق عامدين. شب الحصان فجأة على ساقيه ثم توقف وراح يصهل ويدق الأرض بحوافره فى عصبية. كانوا ينظرون نحوى فى صمت وتحد وهم يهزون بحركة رتيبة سيقانهم المدلاة فى سراويلهم البيضاء الطويلة. ربت على رقبة الحصان وأنا أصيح فى غضب: لا!.

انتظرتكم دهرا لم تفعلوا شيئا فلا تعطلونى فى هذه الساعة! ثم همزت الحصان قائلا لاتخذلنى الآن ياصديقى! اندفعت نحوهم فى

ركض سريع ، فانتاب الزجالة ذعر مفاجىء وقفزوا على الأرض وراحت حميرهم تتخبط وتصرخ وهى تفسح الطريق للحصان الذى مرق وسطهم واحتك على الجانبين بالحمير التى أخذت تجرى فى كل اتجاه بينما أصحابها يطلقون الصيحات والسباب .

افعلوا ما شئتم ، لاشىء يصلح فى هذه الدنيا الغلط إلا الغلط !

* * *

واصلت الركض بالحصان إلى أن وصلت المعبد.

أعمدته واضحة تماما فى الشمس القانية التى مالت نحو الغروب.

أعمدة المدخل الذى طار منه الحجر وهشم ساق إبراهيم. أراها عالية لكنى لا أرى النقوش المحفورة فيها. النقوش التى شغلت كاثرين فلم تبال وهى تحل طلاسمها أن ترى أختها تموت أمام عينيها. لا. لاتتكلم عن الموت! لكن هل تستحق النقوش بالفعل هذا العناء؟ كل هذه البلادة وهى ترى شبح الموت حول أختها؟

هيا. لا وقت لنضيعه. بدأت كرة الشمس تسقط فى أفق الخلود الذى تغنى به وصفى، لن نتركها ترحل وحدها!

وثبت من فوق الحصان، أشباح كثيرة هنا حول هذا المعبد. أشعر بها دون أن أراها، أشباح الفراعنة؟ أشباح النخل؟ أشباح قتلة؟ من أرسلهم ورائى؟ صابر ووصفى؟ طلعت؟ هارفى؟ كاثرين؟

همهمة ودمدمة تملأ أذنى. نهيق حمير وحوافر خيول وغناء وقرع طبول. كل أصوات هذا العالم الصغير المغلق، لا! فلننجز العمل قبل أن يطيش العقل، يجب أن نصفى الحساب بسرعة.

أمسكت برقبة الحصان فحول رأسه نحوى وراح يرمقنى بعينه السوداء المحمرة، ماذا تريد أن تقول؟ أنه مازال هناك وقت؟ يمكن أن تأخذنى إلى مكان آخر لنجرب شيئا آخر؟ لكن أنا ماكتب لى أن أنجو. لو كان الألم والشقاء وطعنات الخيانة والظلم ثمنا للنجاة لنجوت ولنجا

معى كل الناس، فهيا ابتعد. أخذت الجرابين ثم ضربت كفله وهششته لكنه تلكأ لايريد أن يتحرك. طاردته حتى آخر النخل ثم تركته فى الطريق. ظل واقفا هناك يحمحم ويضرب بحوافره الأرض. ليكن، المهم أنه بعيد بما فيه الكفاية.

عدت إلى المعبد ووقفت لحظة أتأمله والجرابان على كتفى. هذا إذن هو المجد الذى يكتشفه لنا الإنجليز لنعرف أننا كنا عظماء وأننا الآن صغار!

الأجداد لابأس! أما الأحفاد فلا يصلحون إلا للاحتلال.

فخور جدا وصفى بهذا الاكتشاف ليبقى الأسياد أسيادا! يجب أن يزول هذا الكابوس، لا أصدق ما قاله الشيخ يحيى إن مليكة كانت تحب هذه الخرائب الملعونة وإنها وجدت فيها جمالا فأحبها من أجلها.

لا أصدق! لايمكن أن يكون هناك شىء يجمع بين مليكة ووصفى!

الشيخ يتخيل أشياء فى شروده ويجب أن تزول كل أشباح الماضى هذه.

أخرجت أصابع الديناميت من الجرابين ودخلت المعبد. هنا كثير من الأصابع تحت المدخل الذى يسند الصرح. ثم إلى الداخل. هناك بقايا أعمدة تصنع مداخل ودهاليز مليئة بالنقوش، نقوش الموتى.

لابأس، ما معى يكفى. وأصابع أخرى تحت الجدران نفسها. يجب ألا يبقى للمعبد أثر. يجب أن ننتهى من كل قصص الأجداد ليفيق الأحفاد من أوهام العظمة والعزاء الكاذب، سيشكروننى ذات يوم! لابد أن يشكروننى!

مددت فتيلا من تحت الأعمدة والصرح إلى خارج المعبد .

الحصان مازال فى مكانه وهو يحمحم فى غضب ، لابأس ، وهل هذا صوت حوافره تخبط الأرض أم حوافر أخرى أم هى من جديد تلك الأوهام فى سمعى؟

لا يهم . يجب أن أسرع ، أشعلت طرف الفتيل الممتد من أسفل الصرح ووقفت أنتظر . لماذا تتحرك الشرارة بهذا البطء؟ هيا أيتها النار المقدسة التهمى المعبد المقدس لننتهى من هذه الحكايات كلها .

لم يحدث شىء . لغط كثير وأصوات كثيرة تقترب . هيا!

انفجارات ومطر من أحجار تتطاير فى الفضاء كنت أتمناها نارا تشعل المعبد كله ، ما رأيك ياكاثرين؟ تصلح هذه الأحجار لبناء سلم جديد متين؟ تصلح بيتا . .

أو ربما مقبرة أخرى؟ افعلى بها ماشئت لكنك لن تجدى فيها بعد الآن أى نقوش . أقسم ألا أترك لك فيها أى نقوش!

سامحينى يامليكة ، كنت أشجع منى ، وسامحينى يافيونا لأنى لم أنتظر ، وسامحنى يا إبراهيم فها أنا أسبقك كما وعدتك ، ولكن الأحجار تسقط حولى لا فوقى ، فلماذا أنتظر فى الخارج؟ هل سيعاودنى الجبن فى آخر لحظة؟ لا! أنا آت! هيا . . جريا إلى داخل المعبد .

أجرى لكنى أسقط على الأرض قبل أن أبلغه . أراه قبل السقوط يندفع نحوى ، يرتطم الحجر برأسى فأسقط ويحل نوم ، لكنى أصحو مرة أخرى أمد يدى إلى رأسى ورقبتى فأحس اللزوجة وسخونة الدم

وألمس الشظية الكبيرة المرشوقة فى رقبتى . . أحاول انتزاعها بيدى الخائرة فلا أفلح . . لم يكن هناك ألم . . وتوهج فجأة نور فى داخلى، نعم، الآن يمكن أن أرى كل شيء! . . أن أفهم كل مافاتنى فى الدنيا أن أعرفه! . . أحاول أن أرفع رأسى فلا أستطيع . . يخبو النور وتحل هجمة السبات الثقيل وأسمع صوتا متهدجا أجش يزعق باسمى كأنه يبكى . . فأقول وأنا أغمض عينى شكرا . . لك لأنك . . تأخرت! .

على هامش الرواية

استأنست في كتابة هذه الرواية التي تدور أحداثها في عصور تاريخية مختلفة بعدد من الكتب والدراسات، من حق القارئ المهتم بمقارنة الحقيقة بالخيال أن يطلع عليها ويشترك معي في بعض الخواطر حولها.

١ - ان كتاب عالم الآثار الراحل د. أحمد فخري «واحة سيوة» هو مدخلي إلى هذا العمل. فقد لفتت انتباهي إشارته إلى علاقة المأمور محمود عزمي بما حدث لمعبد أم عبيدة في عام ١٨٩٧ فحاولت في هذه الرواية أن أفهم الشخصية وأفهم الحدث، أفدت كثيرا من هذا الكتاب، الذي يجمع بين دقة العالم الموسوعي وأسلوب الفنان المطبوع، في استلهام أجواء سيوة في القرن التاسع عشر، لاسيما فيما يتعلق بعادتي الحروب الداخلية والتعامل مع الأرامل.

٢ - وقد اندثرت الآن عادات القرن التاسع عشر وأصبحت سيوة إقليما مصريا خالصا يتكلم كل أبنائها العربية التي يدرسون بها في مراحل التعليم المختلفة بالواحة، وإن حافظوا على لغتهم الأصلية

فى التعامل فيما بينهم . ومازالت سيوة تتميز بجمالها النادر، الذى فتن منذ القدم هيرودوت اليونانى والرحالة العرب والأجانب باعتبارها أرض غابات النخيل والزيتون والبساتين والبحيرات العذبة والمالحة وعيون الماء التى تنبثق وسط أرضها الخضراء المحاطة بالرمال الصفراء من كل مكان . ومازالت أطلال «شالى» الهرمية المهيبة تتوسط المدينة بعد أن «أذابتها!» أمطار غزيرة فى عام ١٩٢٦ . وأضم صوتى إلى صوت محبى هذه الواحة الجميلة بضرورة أن تراعى جهود التحديث والتنمية طابع البيئة الفريدة للمكان .

٣ـ ومازالت سيوة أيضا هى أرض الإسكندر الأكبر الذى تلقى الوحى فى معبدها الشهير الشامخ حتى اليوم، وقد استعنت فى الصورة التى رسمتها الرواية للملك المقدونى الأشهر بعدد من كتب التاريخ، أبرزها كتاب المؤرخ الرومانى «كورتيوس» «حياة الإسكندر» الذى عنى فيه بالجانب الإنسانى أكثر من التركيز على الغزوات والبطولات الحربية التى اهتم بها غيره .

كما قرأت باستمتاع شديد كتاب «مذكرات الإسكندر الكبير» وهى سيرة ذاتية متخيلة من تأليف الكاتب اليونانى المعاصر «نسطور ماتساس» ترجمها الأديب التونسى المعروف «الطاهر قيقة» وأضاف لها هوامش غنية تضيف الكثير إلى النص .

٤ـ مقبرة الإسكندر ـ يذكر أبناء جيلى العناوين الصحفية المثيرة التى كانت تعلن عن اكتشافات «الجرسون» اليونانى ـ السكندرى «استيليوس» وقرب عثوره على مقبرة الإسكندر تحت مسجد النبى

دانيال. ولم تسفر جهوده عن شيء غير تهديد أساس المسجد، فأوقفت السلطات نشاطه. ومازالت هناك حتى الآن بعثة بولندية للآثار تواصل البحث عن المقبرة فى الإسكندرية. غير أن هناك من يبحث عنها فى مظان ومواقع محتملة أخرى تتوزع بين قارات ثلاث! أما صاحبة نظرية وجود المقبرة فى واحة سيوة فهى باحثة يونانية تدعى «لينا سوفالتزى»، وقد شرعت فى التنقيب فى الواحة فى عام ١٩٨٩ وتوصلت إلى اكتشاف بعض المواقع الأثرية هناك وتقول إنها كانت فى طريقها لاكتشاف المقبرة ذاتها ولكن أبحاثها توقفت فى مطلع عام ١٩٩٦ لخلاف مع مصلحة الآثار المصرية. وقد ألفت «ليانا» بعد ذلك كتابا طويلا عنوانه: «مقبرة الإسكندر الأكبر فى واحة سيوة» يفند الاتهامات الموجهة لها من مصلحة الآثار وتثبت فيه أنها على الطريق الصحيح لأهم كشف أثرى فى العصر الحديث. من يدرى؟

٥ ـ بالنسبة لأحداث الثورة العرابية كان لى مرجعان أساسيان هما كتاب عبد الرحمن الرافعى «الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى» وكتاب «التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا لمصر» من تأليف «ألفريد بلنت».

٦ ـ وأخيرا، وليس آخرا، فإنى أوجه شكرا خاصا للصديق الشاعر والكاتب الكبير الدكتور «نصار عبد الله» الذى انتفعت بمشورته الثمينة أكثر من مرة أثناء كتابة الرواية. والشكر يمتد أيضا إلى أصعب قارئتين وناقدتين لما أكتب، ابنتى الغاليتين دينا ويسر. هما قد فعلتا ما عليهما ويبقى فيما آمل أن أكون قد أفدت من ملاحظاتهما النفاذة.

٧ـ وهناك مع ذلك كلمة أخيرة. فقد ذكرت فى مدخل الرواية أنى لم أجد أى معلومات عن حياة المأمور الحقيقى «محمود عزمى» أو عن مصيره بعد حادثة المعبد. ولكن تجدر الإشارة إلى أنه يقال إن حجارة المعبد قد استخدمت فى بناء سلم جديد لقسم الشرطة وفى ترميم مسكن مأمور الواحة!

بهاء طاهر

القاهرة

أكتوبر ٢٠٠٦

ـــ الرواية الفائزة بالجائزة العالمية للرواية العربية لعام ٢٠٠٨ ـــ

واحة الغروب

يعود بهاء طاهر في روايته الجديدة والبديعة «واحة الغروب» والتي لاقت نجاحا جماهيريا واستحسانا نقديا كبيرا، إلي نهايات القرن التاسع عشر، وبداية الاحتلال البريطانى لمصر. حيث يُرسل ضابط البوليس المصرى محمود عبدالظاهر، والذى كان يعيش حياة لاهية بين الحانات وبنات الليل، إلي واحة سيوة لشك السلطات فى تعاطفه مع الأفكار الثورية لجمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي.

ويصطحب إلي الواحة زوجته الأيرلندية «كاثرين» الشغوفة بالآثار، والتي تبحث عن مقبرة الإسكندر الأكبر، لينغمسا في عالم جديد شديد الثراء والخصوصية يمزج بين الماضى والحاضر والذاتي والموضوعي والتاريخي، ويقدم تجربة مشوقة للعلاقة بين الشرق والغرب على المستويين الإنساني والحضاري بما فيها من صراع وتوافق. مواجهة شجاعة للنفس في زمن اختلطت فيه الانتهازية والخيانة والرغبة بالحب والبطولة.



بهاء طاهر أحد أهم الروائيين العرب. حاصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ١٩٩٨. صدرت له حتى الآن ست روايات، من أهمها: خالتى صفية والدير (١٩٩١) والحب في المنفى (١٩٩٥) وخمس مجموعات قصصية بالإضافة إلى الدراسات الأدبية والنقدية والترجمة.


ISBN 978-977-09-2025-1

9 789770 920251

دار الشروق

www.shorouk.com